

تاريخ الدولة الزيّانية

الجزء الثالث

الأحوال الاجتماعية

منشورات الحضارة

الدكتور مختار حساني

تاريخ الدولة الزيّانية

الجزء الثالث

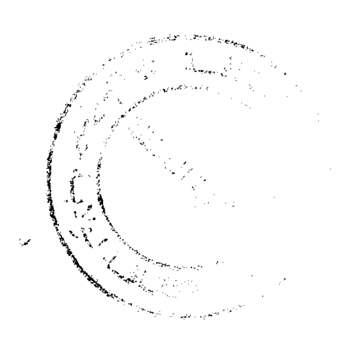
الأحوال الاجتماعية

منشورات الحضارة

تاريخ الدولة الزيانية

الجزء الثالث

الأحوال الاجتماعية



الدكتور: مختار حساني

منشورات الحضارة

طبـــعـــة 2009

الإيداع القانونـــي: 760-2009

ردمك:2-67-767-9961-978

منشورات الحضارة

ص ب 04 بئر التوتة 16045 الجزائر

هاتف/فاكس: 41. 34. 44 (021)

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة

في إطار الصندوق الوطني لترقية الفنون والآداب

المقدمة

تعتبر الدولة الزيانية من أهم الدول التي نشأت على أرض الجزائر، حيث استمرت أكثر من ثلاثة قرون 1232- 1562. وقد مرّت بجميع المراحل التي ورد ذكرها في مقدمة ابن خلدون حيث كان شاهدا على مرحلة هامّة من حياة هذه الدولة، هو وأخوه يحي ابن خلدون صاحب كتاب بغية الرواد.

وتميّزت هذه المرحلة بحروب متواصلة مع القوى الخارجية التي كانت تعمل من أجل السيطرة على أراضيها لأهميتها من الناحية الاقتصادية اذ تعتبر الدولة الزيانية من بين الدول التي أعطت أهمية كبيرة للتجارة الداخلية والخارجية مع محيطها (البحر المتوسط، السودان الغربي والمشرق العربي) فالوثائق التي تحصّلنا عليها في دور الارشيف بالدول الغربية وكذلك ما بقي من التراث المخطوط الذي يعود لعصر هذه الدولة يؤكد عظمتها في هذا الميدان.

أما في الجانب الثقافي فكانت عاصمتها تلمسان من بين المراكز الهامة، حيث كان لعلمائها أثر كبير في الحواضر الاسلامية في بلاد المشرق وبلاد المغرب الاسلامي. فالتراجم المتوفرة لدينا تؤكد هذا الدور الهام الذي قام به علماء الدولة الزيانية ونذكر منهم على الخصوص: أبو زكريا ويحي المغيلي المزوني الذي ألّف الدرر

المكنون في نوازل مازونه وتعرض فيه إلى الاحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية من خلال مجموعة من النوازل لعلماء الجزائر، وكذلك محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، رجل الاصلاح في عصره...

وهذا العمل الذي نقدّمه للمكتبة الجزائرية يعدّ مرآة صادقة لاحوال هذه الدولة انطلاقا من دراسة تاريخية اقتصادية، اجتماعية وسياسية.

د. مختار حساني

برج الكيفان في 8. 10. 2007

الفصـــــل الأول



الطبقـــات الاجتماعـــية

- عنـــاصـــر السكـــان:

إن الدارس للدولة الزيانية في هذه المرحلة المضطربة يجد صعوبات كبيرة في تحديد سكان الدولة الزيانية في المدة الأخيرة فالمصادر التي تناولت الموضوع لم تتوسع في هذه النقطة.

أ - لأن الدولة الزيانية في هذه الفترة تميزت بتقليص مساحتها عما كانت عليه في عصرها الذهبي حيث وصلت في أعز قوتها إلى جبال الزان[1] شرقا ووادي ملوية[2] غربا والبحر المتوسط شمالا و وادي ميزاب[3] جنوبا، لكن في الفترة الممتدة من بداية موضوع البحث إلى نهاية دولة بني زيان962هـ/ 1554م قد انفصلت عنها أجزاء كبيرة ولم تزد في بعض الأحيان على تلمسان وما حولها وامتدت أحيانا أخرى إلى قلعة بني راشد.

ب: حركة القبائل وهجرتها داخل محيط الدولة الزيانية ، يتبين لنا ذلك بوضوح من خلال وصف الحسن الوزان لأراضي الدولة الزيانية في بداية القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي يستفاد منه أن جزءا من أراضي الدولة مسها، الخراب مما جعله يشير إلى فراغ مجموعة من المناطق مـــن

1- جبال الزان المعروف اليوم بجبل أنفا دوا والذي يشكل جزءا من جرجرة، انظر التنسي، نظم الدر و العقبان، ص:184.

2- وادي ملوية : ينبع من جبال الأطلس المغربية ويصب في البحر المتوسط بالقرب من مليلة، انظر الوزان، المصدر السابق ، ص : 250.

3- وادي ميزاب أو مصاب يقع بجنوب الجزائر أقيمت حوله مجموعة من المدن و القرى نسب أهلها اليه.

سكانها كالأراضي المحيطة بالبطحاء وشرشال ومستغانم وهنين، كما حلت قبائل محل قبائل سابقة واستقرار القبائل العربية مكان مضارب القبائل البربرية.

- **الخـــريطـــة السكـــانية:**

فالتوزيع السكاني لا يكون على أساس المناطق أو النواحي فقط وبين المدن والأرياف بل يكون على أساس عرقي، فعلى الرغم من تعريب السكان وانتشار القبائل العربية ضمن محيط الدولة الزيانية فإن العنصر الأكثر انتشارا هو العنصر البربري ثم العربي وبعده المهاجرون الأندلسيون ومجموعة من الجاليات الأجنبية يهود ونصارى.

* **القبـــائل البربريـــة.**

قبل التعرض للقبائل لابد من القول بأن هناك أنواعا من القبائل منها القوية التي لها تأثير على تسيير دواليب الدولة خلال فترة موضوع البحث منها قبائل ثانوية تأثيرها أقل القبائل البربرية:

اختلف النسابون في أصل البربر فقال السهلي [1] المسعودى [2] والقطاعي [3] هــو ولد بن بربر بن كنعان بن صار، وقال الطبري مثله ورد أيضا أنهم مــن ولــد بربر بن نفسان بن ابراهيم الخليل(ص) [4].

1-أبو زيد عبد الرحمان بن احمد بن اصبع السهيلي ت581، 1192 انظر ابن فرحون المذهب في أعيان المذهب ط1 الأولى القاهرة 1929 ص 220 وانظر أيضا ابن خلدون يحيى بغية الرواد ج 1 ص 181

2- الزاركلي الاعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين الطبعة الثانيةج5ص89

3- ابو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي ت 454 انظر السبكي طبقات الشافعية تحقيق الحاجي القاهرة 1963 ج 4 ص 63 ابن خلكان وفيات الأعيان وأنباء الزمان تحقيق احسان عباس بيروت 1971

4- مروج الذهب ومعادن الجوهر(ط) بولاق الطبعة الحديثة المصورة منها ج 2 ص 94 ؛96

وقال الصولي[1]: هو ولد بن بربر بن مصرائم بن حام، وزعم بعض المؤرخين أنهم من ولد سام بن نوح عليه السلام، ثم اختلفوا فقالت فرقة: هم ولد بربر من تملا بن مارين بن فار بن عمر بن عملاق بن رام بن سام وعلى هذا القول الأخير يكونون من العمالقة.

وقال مالك بن المرحل: البربر قبائل شتى من حمير ومصر والقبط والعماليق وكنعان وقريش، تألفوا بالشام ولعلّ قسما منهم افريقيش بن قيس البربر لكثرة كلامهم[2].

واختلف الناس أيضا في سبب خروجهم الى المغرب فذهب المسعودى والطبري والسهلي الى أن افريقيش بن قيس بن صيفي هو الذي أخرجهم لفتح افريقية وسماهم البربر.

ذهب البكري[3] الى ان بني اسرائيل هم المخرجوهم منذ فتح داود عليه السلام جالوتهم مذكور في القرآن، وقال ابن قتيبة[4] هو زقرر بن حرتيل بن حديلان بن جلوه بن اديلان بن حطي بترجيع بن مادغيس لأبتر بن قيس بن عيلان بن مضر[5].

1- أبو بكر بن يحيى الصولي ت 353 ، 1082 عنه انظر الزاركلي الاعلام ج 8 ص 4 كحالة عمر تراجم مصنفي الكتب العربية مكتبة المثنى بيروت ج 2 ص 105 بروكلمان تاريخ الأدب العربي ترجمة النجار ج 3 ص 51 ؛54 زغلول عبد الحميد المرجع السابق ص81

2- عن اقريقش انظر المسعودي مروج الذهبج 2 ص 13

3- ابن خلدون عبد الرحمان العبر ج 6 ص 176 ؛177 ؛ ابن حزم جمهرة أنساب العرب تحقيق محمد هارون القاهرة دار المعارف 1962 ص 495

4- وعبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب البكري ت 587 انظر كتاب الصلة لان بشكوال مراجعة عزت العطار الحسيني مكتبة المثنى بغداد 1955،1374 الزركلي الاعلام ج 4 ص 223 كحالة نفس المرجع ج 6 ص 76

5- وعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفى سنة 276 ، 889 عنه انظر بروكلمان تاريخ الأدب العربي ج 1 ص 221 ؛230 ابن خلدون يحيى بغية الرواد ج 1 ص 179

هذه هي أغلب الروايات التي تناولت البربر،ومن بين المحدثين الذين تناولوا هذه النقطة أستاذنا الدكتور لقبال[1] الذي يرى بأن دور العرب المسلمين في إطلاق اسم البربر على سكان المغرب الإسلامي لا يتعدى تبني مصطلح جامع لكل السكان محاكاة لمن سبقوهم في المنطقة، ولكن من خلال دراستنا للكتب المغربية التي تعرضت للموضوع لاحظنا أن نسابة البربر قد استساغوا الكلمة وأخذوا بها وأقربها في نسبتهم علما أن هذه الكتب لم توضع إلا في العهود المتأخرة، حيث تردد صداها فيما دونه المؤرخون المسلمون منذ حركة التدوين في المغرب الأقصى تلك الحركة التي كان رائدها أبوالقاسم الزياني ت(1249هـ/1809م).

ومن أشهر نسابة البربر الذي تناولهم ذلك المؤرخ الرحالة المغربي سليمان بن اسحاق المطماطي وكذلك تاريخ العقباني عن بني زيان وابن مرزوق صاحب المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن السلطان أبي الحسن[2].

بالاضافة إلى بعض الفقرات لمحمد بن يوسف الوراق وابن حزم وابن عذارى وابن عبد الحكم الذي يظن أنه صاحب الأنساب والذي اختيرت منه نبذة من مفاخر البربر لابن خلدون[3] والسلاوي[4].

1-لقبال المرجع السابق ص 84 ابن مرزوق. (1). المسندالصحيح الحسن ص 107 ؛113

2- ابن خلدون العبر ج ج 6 ص 71.

3- لسلاوي ،الاستقصاء ج 1 ص 36 انظر أيضا شارل أندري جوليان تاريخ افريقية الشمالية تونس الجزائر المغرب الاقصى ترجمة محمد مزالي والبشير بن سلامة الشركة التونسية والشركة الجزائرية للنشر والتوزيع الجزائر 1978 ج 1 ص 67.

4- أمين ،واصف الفهرسة والخرائط التاريخية للممالك الاسلامية ص16؛17 انظر أيضا سعيد عبد الفتاح عاشور أوروبا في العصور الوسطى ج1 الطبعة الثانية1961 ص 65؛66 ؛89 انظر أيضا لقبال موسى المرجع السابق ص52

والملاحظ أن كلمة البربر استهوت الباحثين المحدثين في المشرق والمغرب وترددت كثيرا من أن مقابلها كلمة أمازيغ ومشتقاتها التي تدل على الشرف والنبالة وتعشق الحرية لم تحظ بهذا القدر من الاستعمال.

وإن كلمة البربر غدت هي الغالبة على السكان الأقدمين اعتمادا على الروايات السابقة التي ذكرناها من قبل بالإضافة الى ما أورده بعض المؤرخين الأوروبيين حول أصل الكلمة وقالوا بأنها إيرانية أو لاتينية.

وأن الإغريق أطلقوها على الشعوب الجرمانية المتوحشة الذين اشتهروا بالتخريب للحضارة والعمران في كثير من ولاية الامبراطورية الرومانية الغربية والشرقية ومن هؤلاء الوندال الذين مارسوا أسلوبا غير إنساني مع سكان شبه جزيرة ايبيريا بالمغرب الاسلامي (شمال افريقية) وبعد انقراض الوندال من شمال أفريقية حيث سيقوا الى القسطنطينية في عصر جستنيان بقيت كلمة البربر في ذاكرة التاريخ منسوبة لغير أهلها.

وقد كان الاعتماد من طرف المسلمين في بعض الأحيان على شجرة الأنساب الواردة في التوراة وأنه بدا للمتأخرين من المغاربة، وهو مالك بن المرحل أن يوافق بين هذه الأراء وأن البربر خليط من عدة أجناس ما بين سامية وحامية ويرى الدكتور لقبال أن البحث عن أصل البربر بحث عقيم اللهم إلا إذا كان البحث يدور حول نوع الجاليات والشعوب التي دانت لها احتكاك بالمنطقة والتي استقرت بها، واندمجت مع السكان الأصليين و ذهب إليه بعض الدارسين الأنتروبولوجيين حول موضوع أصل الأنساب في شمال افريقية وإن أهم سمات هذا الأنسان الشعر وبروز الأنف وسواد العيون

واعتدال القامة[1] لا تخرج كل هذه الصفات على المجموعة التي تميز بها الانسان في حوض البحر المتوسط وجنوب آسيا، واذا كانت المنافذ التي من الممكن أن تكون طريقا الى الهجرات على الصحراء والبحر هو باب المندب وبرزخ السويس وسيناء ومضيق جبل طارق، ومعنى ذلك أن امتزاجا حدث بين المسلمين والحاميين عن طريق النزوح والاختلاط،وهذه السمة هي الغالبة مع اختلاف العصور وخصوصا في المناطق الحساسة من العالم مثل حوض البحر المتوسط[2].

وقد تفرعت القبائل البربرية إلى مجموعتين أساسيتين، البرانس، وهم مستقرون بالقرى الساحلية، والبتر وهم منتشرون في السهول[3]، ويتميزون بالرحلة، وينتشرون بالمناطق التلية والسهوب. ومن أبرز القبائل البربرية خلال فترة موضوع البحث زناتة وموطنها الأصلي المغرب الأوسط[4].

ومعنى ذلك أنها داخلة في الإطار الزياني، وفي ذلك يقول ابن خلدون[5]: أن المغرب الأوسط ينسب إليها ويعرف بها فيقال وطن زناتة وهي أقوى القبائل البربرية البترية عدة وعددا وتنتسب الى مادغيس الأبتر والادريسي[6]

1- شارل أندري جوليان المرجع السابق ج 1 ص67 ؛68.

2- دوزي تاريخ مسلمي اسبانيا ج 1 ترجمة حسن حبشي وجمال محرز ومختار العبادي القاهرة 1963 ص 141 انظر ماجد عبد المنعم التاريخ السياسي للدولة العربية ج 1 ص 226

3- ابن منظور القبائل العربية ج 1 ص 223 وما بعدها انظر لقبال نفس المرجع ص 54 ؛ شارل أندري جوليان المرج السابق ج 1 ص 66 وما بعدها ؛ حليمي عبد القادر جغرافية الجزائر ص 223

4- ابن خلدون العبر ج ص 203 ؛ ابن حزم جمهرة أنساب العرب ص 95 مرمول السياسة الداخلية للخلافة الفا طمية في بلاد المغرب الاسلامي الجزائر 1983 ص 156

5- ابن خلدون المصدر السابق 7 ص 178

6- الإدريسي المصدر السابق ص 98

يرى أنها تنسب إلى جانا بن مدغيس، وهو جالوت الذي قتله داود عليه السلام، ومعنى ذلك أنه يرى أنها تعود في أصل نشأتها إلى العرق الكنعاني من العماليق، ويتفق معه أبو الفداء في نسبتها إلى العرب، ويرى بأنها عدنانيـــة أو قحطانية.

وأهم مناطق سكنى زناتة هي وهران وتلمسان وأم عسكر وتيهرت[1] ويمكن تحديد مضاربها من تلمسان غربا الى نهر الشلف شرقا ومن ساحل شرشال ووهران شمالا إلى تيهرت جنوبا، الأول جراوة[2] بالأوراس بني يفــرن[3] ومغراوة[4] الذين كانوا تحت قيادة بني خزر وبني ومانوا وبني يلومي[5] وفـــي القرنين الرابع الهجري والخامس الهجري/العاشر والحادي عاشر الميلادي كانوا متمركزين بالسهول الغربية للمغرب الأقصى وحوض الشلف كما تواجدت مضارب بني يعلى في تلمسان وبني خزرون في سجلماسة[6] وتعتبر من أقوى القبائل الزناتية خاصة خلال القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي حيث تمكنت من تحطيم حركة الفاطميين نحو الغرب وكان هذا بقيادة الخزر.

1- الاصطخري،المسالك والممالك تحقيق محمد جابر عبد العالي بدون تاريخ ص36؛ الإدريسي صفة المغرب ص36؛ ابن عذاري البيان المغرب ج1 ص200 ؛ لقبال موسى المرجع السابق ص59 ؛ محمد الصالح مرمول المرجع السابق ص178 ؛ بن عميرة المرجع السابق ص126.

2- عن جراوة انظر ابن خلدون العبر ج 4 ص159

3- العبر ج7 ص 135 لقبال المرجع السابق ص59 ؛60

4- نفسه ج7 ص 134 ؛ ابن عذاري البيان المغرب ج1 ص 189 ؛200

5- نفسه ج4 ص 44؛ ابن عذاري البيان المغرب ج1 ص 200 ؛ الجيلالي المرجع السابق ج 2 ص 256

6- نفسه ج7 ص 131 انظر حاجيات أبو حموا موسى الثاني مقال بمجلة تاريخ وحضارة المغرب ع 5 السنة الخامسة 19 78 ص 16 و26 ؛ الميلي المرجع أنساب ج 2 ص 349

وخلال فترة موضوع البحث برزت إلى الوجود أسرة أولاد منديل[1] الذين أسسوا لهم إمارة بناحية مازونة وفي نفس المنطقة التي كانت تندرج ضمن مضارب مغراوة مند قرون عديدة وجدهم منديل هو الذي ملك شلف بعد أن تقلص نفوذ الدولة الموحدية بعد معركة العقاب وملكوا جبل الونشريس والمدية ثم أغاروا على متيجة فسيطروا عليها إلا أنهم اصطدموا ببني غانية ووقعت معركة بين الجانبين قتل فيها منديل سنة1244/622[2].

وكانت لهذه الهزيمة نتائج سلبية اذ وضعت حد لتوسع منديل وقوة مغراوة وأرغمتهم على التخلي على متيجة وأضعفتهم إلى حد أنهم أصبحوا لا يقوون على الدفاع على جبل الونشريس لما زحف إليه بني توجين وحتى المدية وبقي أولاد منديل منحصرين في منطقة الشلف وأهم مدنه شرشال ومليانة وتنس إلا أنهم في هذه الأثناء استطاعوا أن يختطفوا مازونة في النهاية كما سيوضح بعد ذلك[3].

وأما بنو ومانوا وبنو يلومي[4] فكانا بين القبائل التي كانت تستقر بتلك المنطقة وفي مدينة البطحاء[5] وأراض سيق وسيرات ومما يذكر أنهم كانوا

1- العبر ج7ص 134 ؛ الميلي المرجع السابق ج2 ص369 الجيلالي تاريخ الجزائر العام ج2 ص148 ؛ دائرة المعارف الاسلامية ج14 ص360.

2- نفسه ج 7 ص 114 انظر الميلي المرجع السابق ج 2 ص 174

3- عن بني ومانوا وبني يلومي انظر ابن خلدون العبر ج 7 ص 114 ؛119

4- البطحاء تقع بالمنطقة المحصورة بين الهبرة وسيق أو ربما بالقرب من بلدية عمي موسى وقد كانت أطلالها ماثلة للعيان خلال زيارة الحسن الوزان للمنطقة في بداية القرن العاشر الهجري السادس عاشر الميلادي انظر وصف افريقيا ص 416

5- عن عبد المؤمن بن علي الكومي مؤسس الخلافة الموحدية انظر المراكشي المعجب في تلخيص أخبار المغرب ليد 1847 ص 97 ابن صاحب الصلاة ص 412

على اتصال بسلطان الموحدين، وذلك منذ عهد عبد المؤمن الكومي545/ 1145[1] حيث كانوا يدفعون الضرائب له.

أما الجنس الثاني فقد برز بالدرجة الأولى في القرن السابع الهجري الثالث عاشر الميلادي ويتألف من بني واسين [بنو مرين وبنو عبد الوادي] التي يندرج تحتها بنو زيان وقد أكد يحي بن خلدون أنهم من البربر حيث قال ومن أبناء زناتة بنو عبد الوادي وبني توجين ومليكش إلاّ أنه عاد فقسمهم الى فخذين ينسب أولها إلى البربر والثاني إلى إدريس بن عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب[2].

وأرجع التنسي[3] نسبهم إلى الرسول (ص) على أن عبد الرحمن بن خلدون رد على الزعم بأنه لا سند له ولو كان الأمر كذلك لافتخر به يغمراسن بن زيان، لأن هذا الأخير لما علم بذلك قال برطانتهم إن كان هذا صحيحا فينفعنا عند الله وأما الدنيا فإننا نلناها بسيوفنا.

ويبدو أن الشيء الذي دفع بهؤلاء المؤرخين أن يربطوا نسب بني عبد الوادي إلى بيت النبوة أن كل منهما ألف كتابه وقدمه إلى أحد سلاطين هذه الدولة فابن خلدون يحي قدم كتابه للسلطان أبي حمو موسى الثاني وفعل نفس الشيء التنسي الذي ألّف كتابه في عهد المتوكل[4].

1- العبر ج 7 ص 114
2- نفسه ج 7 ص 190
3- نفسه 7 ص 149
4- عن المتوكل انظر التنسي المصدر السابق ص 236

من هنا يتبين لنا أن أهم قبائل زناتة مايلي:

- **أولا:** بنو عبد الوادي كانوا يعيشون قبل الفتح الإسلامي للمغرب الأوسط في جبل الأوراس وقد تحدث عنهم الإدريسي في رحلته فذكر أنهم من بين سكان الأراضي المحيطة بمدينة بسكرة ثم انتقلوا نحو السهول التلية في عهد الدولة الموحدية وتمركزوا في الأراضي المحصورة ما بين وطن الشلف وتلمسان الـــى جوار إخوانهم من الزناتيين مثل بني توجين ومغراوة.

- **ثانيا:** قبيلة مغراوة التي كانت تقطن وادي شلف ومليانة وبرشك وشرشال ومازونة.

- **ثالثا:** بنو توجين وقد انتقلوا من الواحات الصحراوية نحو الشمال فسيطروا على أراضي صنهاجة[1] مثل المدية[2] واخرجوا الثعالبة من أراضي تيطري، ينقسمون بدورهم الى مجموعة من البطون.

بنو تغرين سيطروا على جبل الونشريس منذ أوائل القرن الثامن الهجري الرابع عاشر الميلادي بعد أن تخلى عنهم بنو مرين بعد الحصار الكبير لتلمسان 698/1296-707/1307وكان الونشريس قبل ذلك تحت سلطة محمد بن عبد القوي المنتمي الى بني منكوش وهم فرع آخر من بني توجين وكان تواجدهم بمنطقة الونشريس والسرسو.

1- صنهاجة تشكل أكبر مجموعة من البرانس أبرز بطونها تلكاتة التي تنسب إليها الدولة الزيرية والحمادية ولمتونة التي ينتسب إليها المرابطون لمزيد من المعلومات انظر ابن خلدون العبر ج 6 ص 313 ؛370

2- ابن عذاري البيان ج 1 ص 330 ؛341

أولاد عزيز الذين استوطنوا المنطقة الممتدة ما بين المدية ومضارب بني منكوش وقد وفدوا من موطنهم الأصلي ماسون وكذلك بنو يدللتن الذين هم أيضا من بني توجين.

استولت قبيلة بني توجين على حصن الجعبات وقلعة تاغزورت وبذلك أصبحت المناطق الواقعة بين مواطن بني راشد وصنهاجة بنواحي المدية وبلاد السرسو وجباله ملكا لبني توجين قبل انتقال القبائل العربية لهذه المنطقة.

بنو ورنيد الذين هم فرع من بني توجين فقد كانوا هم الآخرون يقطنون سفوح الونشريس ثم سيطروا على المناطق الجبلية منه. بنو سلامة تمركزوا في المنطقة المحصورة بين تاغرورت الونشريس.

- **رابعا:** بنو راشد الذين كانوا يرتدون منطقة جبل بني راشد [جبل عمور] الذي يحمل اسمهم وذلك أنهم خلال المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الموحدية المضطربة توجهوا نحو المناطق الشمالية لأهميتها من الناحية الاقتصادية وعلى الخصوص النشاط الزراعي فخصوبة الأرض تساعدهم على ايجاد الكلإ والماء لمواشيهم وقد أغاروا على المنطقة التي لقبيلة مديونة الواقعة ما بين وادي مينا ووادي سيق فتغلبوا عليها واختطفوا بها القلعة التي أصبحت تحمل اسم قلعة بني راشد كما توجهوا الى المنطقة التي كانت في الماضي ضمن مضارب بني يفرن.

وهناك قبائل أخرى كانت مستقرة بأراضي الدولة الزيانية مثل الصنهاجيين وقد كان هؤلاء يعيشون بجبل الونشريس وذلك قبل بداية التوسع الصنهاجي خلال عهد بلكين بن زيري978/368 الذي قام بتجديد مدن مليانة والمدية

التي كانت تحمل اسم قبيلة صنهاجة ونفس الشيء بالنسبة لجزائر بني مزغنة، وكذلك بنو يندل أوهندل[1] ومتيجة الذين ينتسبون بدورهم لنفس القبيلة.

ومن القبائل التي عاشت بشلف حد يجن[2] حيث كانت مضاربهم في منداس بين بني يفرن من الناحية الغربية ولواتة في الشرق وبين مطماطة في السرسو والونشريس إلا أنهم كانوا في صراع مع لواتة مما أدى إلى ضعفهم وتسهيل مهمة بني يلومي ومانو في السيطرة على أراضيهم ،إلاّ أن وجودهم رغم ذلك استمر بتلك المنطقة إلى أن تغلب عليهم بنو عبد الوادي وبني توجين.

أما سنجاس فكانوا هم الآخرون يتمركزون بالشلف ويشير ابن خلدون الى مذهبهم فيقول أنهم معتنقون للمذهب الخارجي لكنه يبدو أنهم تخلوا عنه بالتدريج لأن مضاربهم التي ذكرها ابن خلدون مثل جبل بني راشد والشلف ينعدم بها المذهب الخارجي[3].

كما تتواجد في نفس المنطقة قبيلة الماية وهم من بني فاتن وقد لعبوا دورا هاما في تكوين الدولة الرستمية وخلال عهد ابن خلدون كانت مضاربهم بجبل الونشريس وبالتحديد أراضي السرسو قبلة منداس حتى جبل كزول[4].

وإذا انتقلنا الى شمال الشلف نجد من بين قبائله مغيلة التي استقرت بجبل الظهرة وبالتحديد بين مصب شلف حتى مازونة[5].

1- بني هندل قبيلة بربرية

2- ابن خلدون العبر ج 6 ص 412 ؛313 الإدريسي المصدر السابق ص 89

3- نفسه ج 6 ص 97 انظر الميلي المرجع السابق ج 2 ص 175

4- ومنداس حسب النسابة البربر أنه ينتسب إلى مغر بن أوريغ بن المثنى وقد ترك هؤلاء مضاربهم وتوجهوا الى جبل ونشريس انظر العبر ج 6 ص 254 ومنداس الآن إحدى دوائر ولاية غليزان

5- هوارة انظر ابن خلدون العبر ج 6 ص 283 الميلي المرجع السابق ج 2 ص 249

ومن القبائل المحيطة بجبل الونشريس هوارة ومن بطونها زكارة التي ينسب إليها جبل زكار بدائرة مليانة.

وخلال القرن السادس الهجري الثاني عاشر الميلادي ،أسس شيخ هوارة قلعة هوارة[1] ويرى ابن خلدون أنهم يتمركزون بالمغرب الأوسط خاصة بجبل هوارة القريب من مدينة البطحاء.

كما يقول عنهم أنهم وجدوا في البداية بنواحي طرابلس وبرقة ثم توزعوا في منطقة الأوراس وكذلك بين عنابة وتيفاش[2] وبين وهران وتيهرت وعلى مسافة غيز بعيدة من أشير يوجد سوق هوارة[3].

ومن الملاحظ أننا نجد بعد تأسيس الدولة الزيانية أن بعض شيوخ هوارة تحالفوا مع ملوك بني زيان وهو يعقوب بن يوسف الهواري الذي عاش خلال عهد السلطان أبي تاشفين الأول718؛1318/737؛1337 وقد عينه على قبيلة بني توجين[4] وهذا يجعلنا نرجح أن القبائل البربرية المتواجدة بأراضي الدولة الزيانية كانت تظهر الطاعة لهم، لكن لا تلبث أن تنقلب عليهم عندما يتعرض ملكهم لأخطار خارجية وفي كثير من الأحيان كانت هذه القبائل تمديد العون لأعدائهم في الداخل والخارج، ومن بطون مطماطة بني يلسن الذين استقروا بالونشريس وقد هاجروا مع الزناتيين من بني توجين وتمركزوا بناحية منداس.

1- تيفاش مدينة قديمة ترجع الى العهد الروماني توجد الآن بولاية سوق اهراس وقد وصفها البكري بالظالمة انظر المغرب ص 53

2- البكري المصدر السابق ص 60

3- يحيى بن خلدون بغية الرواد 1 ص 230

4- يحيى بن خلدون بغبة الرواد ج 1 ص 230

- العلاقـــة بين القبائـــل البربرية والدولـــة الزيـــانية:

من الضروري التعرف في هذا البحث على طبيعة العلاقات المتبادلة بين الدولة الزيانيه والقبائل البربرية الداخلة في إطارها السياسي حيث نرى بأن هذه العلاقات كانت من طرف الدولة قائمة على التسلط والسيطرة ومن الجانب الآخر نرى أنها علاقات قبلية لم تصل الى درجة الانتماء الوطني.

وإنما تخضع الى لون من العصبية أحيانا للدولة وأحيانا للقبيلة ومن ثم فإننا نلاحظ أن هذه العلاقة لم تأخذ طابع الاستقرار طول الفترة التاريخية للعصر الزياني ومن هنا انقسمت الى قسمين:

- **أولا:** علاقة القبائل البربرية بالدولة الزيانية[1] وهذه العلاقة تخضع لعدة اعتبارات منها المصلحة الاقتصادية والتعصب للعرف.

وكان العامل الأول أكثر قوة ذلك أن التأثير الأكبر لصالح القبيلة ودليلنا على ذلك أن قبيلة بني توجين كانت علاقاتها عدائية مع الدولة وذلك أنهم فـــي هذه الفترة كانوا كثيري الحركة[2] كما كانوا على إتصال بالمغراويين الذين يجاورونهم ويجوبون معهم سهول وادي شلف وقد حاولوا أن يحافظوا على المنطقة من التدخل الخارجي مما جعلهم يتحدون في مواجهة االزيانيين رغم رابطة العمومة مع الأسرة الحاكمة في تلمسان.

1- عن علاقة الدولة الزيانية بالقبائل البربرية انظر ابن خلدون العبرج7ص200؛201 يحيى بن خلدون بغية الروادج1والثاني.

2- شارل عما نوائيل ديفورك مكانة الونشريس والجهات المجاورة له في تاريخ المغرب الأوسط عبر الألفية الأولى من التاريخ الهجري، محاضرة ألقاها في ملتقى الفكر الإسلامي بالجزائر1980ص9.

ومن جهة أخرى، فإن بني زيان ام يحاولوا التفاهم معهم للاستثمار الروابط العرقية ذلك أن بني توجين نفسوا عليهم مال إليهم من سلطان وفي ذلك يقول ابن خلدون [استقل يغمراسن ابن زيان بأمر تلمسان والمغرب الأوسط وظفر بالسلطان وعلا كعبه على سائر أحياء زناتة، نافسوا عليه ما أتاه الله من العز وأكرمه به من الملك فنبذوه العهد وساقوه الطاعة وركبوا له ظهر الخلاف][1].

إلا أن هذه العلاقة اختلفت بعد الحصار الطويل لتلمسان الذي قام به المرينيين ضد الزيانيين من سنة 698؛1317/707؛1337[2] قد مالت إلى الود والصفاء بعد ذلك ولعل هذا الموقف يرجع إلى أحد احتمالين:

- **أولا** :أنهم وجدوا أن بني زيان وصلوا الى درجة عالية من التفوق العسكري خلال عهد أبي تاشفين الأول717-1317/737-1337.

- **ثانيا** :أن بني توجين وبني عبد الوادي وبني مرين وإن كانوا من أصل واحد الا أن بني توجين من جد أقرب ولذلك نجد العصبية القبلية تسيطر على بني توجين فينحازون إلى بني زيان.

ومما يؤكد الاحتمال الأول أنه خلال سنة 1348/749 وبعد أن التف بنو عبد الوادي وراء أبي سعيد الملقب بالزعيم استطاعوا إحياء الدولة من جديد حيث تحالفوا معهم بنو توجين بعد رجوعهم من القيروان[3].

1- ابن خلدون العبر ج 7 ص 164

2- ابن خلدون العبر ج 7 ص 201 يحيى بن خلدون بغية الرواد ج i ص 215 التنسي المصدر السابق ص 156

3- ابن خلدون المصدر السابق ج 7 ص 196 ابن خلدون يحيى بغية الرواد ج 2 ص 148

ويدل على ذلك أنه خلال عهد السلطان أبو حمو موسى الثاني كان شيخهم نصر بن عمر التجيبي أميرا في جبل الونشريس للزيانيين بعدما أعلن طاعته وقدم لهم حصة من المقاتلين لتساهم في الحروب التي تخوضها الدولة[1].

ويتبين لنا من خلال ما أوردناه أن سياسة بني توجين كانت تهدف إلى مسالمة كل من ظهرت غلبته وقوى أمره وإعلان الطاعة والإنحياز لكل من فرض سلطته على هذه الدولة مقابل المحافظة على ولايتهم بجبل الونشريس ولذلك وقفوا إلى جانب أبي زيان ضد أبي حمو موسى الثاني الذي عندما اشتد جانبه أخذ أشياخ بني توجين كافة وساقهم في ركابه تحملهم البغال المبردعة[2] وهكذا خضعوا من جديد لابي حمو وأن خضوعهم هذا ينم عن ضعفهم.

وميلهم إلى الاستسلام للغالب من السلاطين مما كان يحط من شأنهم ويخل بما عرفه قومهم قبل ذلك من عزة وكرامة وما زاد في انحطاط قوتهم أن السلطان الزياني أبو حمو قطع أراضيهم للقبائل العربية ومنها قلعة بني سلامة أعطاها لأولاد عريف وكذلك منداس وما جاورها وقد علق ابن خلدون فقـال: [وعمرت أوطانهم قبائل عرب بني هلال والمعقل، لما تغلبوا على سائر البلاد والبقاء لله][3].

ويتجلى لنا من النص أنهم فقدوا أغلب الأراضي الزراعية وأصبحوا مطالبين بتقديم الضرائب عما بقي بأيديهم منها للقبائل العربية التي استقرت بينهم.

1- يحيى ابن خلدون المصدر السابق ج 2 ص 200

2- ابن خلدون العبر ج 6 ص 182

3- بنو تغرين إحدى بطون قبيلة بني توجين انظر العبر ج 7 ص 320

على أن مغراوة هي الأخرى اصطدمت مرارا بالدولة الزيانية التي كانت تحاول السيطرة عليها لذلك استولى يغمراسن على بعض مدنهم تنس، وبعد وفاته حاربهم ابنه أبو سعيد فسيطر على أملاكهم مما جعل أميرهم ثابت بن منديل يلجأ الى المغرب الأقصى سنة694؛1294 طالبا المساعدة من بني مرين وإثر محاصرة هؤلاء لتلمسان سنة698؛707/ 1298؛1307اغتنم راشد بن محمد الفرصة، فعاد لإحياء إمارته إلا أنه اضطر بعد ذلك إلى مغادرة المنطقة بعد فك الحصار خوفا من انتقام بني عبد الوادي وكذلك فعل ابنه علي بن راشد فقد قام هو الآخر بمحاولة إحياء إمارته إبّان الاستيلاء المريني على تلمسان في عهد السلطان أبي الحسن المريني1336/737 وتوجه معه إلى القيروان حيث شارك إلى جانبه في المعركة التي انهزم فيها الجيش المريني سنة 1347/748 وعاد مع شيوخ زناتة إلى المغرب، وكان له دورا بارزا في اعادة النفوذ الزياني حيث وقف إلى جانبهم لعهد تم بينه وبينهم ، ثم ما لبثت مغراوة أن نقضت هذا أبعد أكثر من مرة عندما رفضت مساعدة بني زيان في حربهم ضد الناصر بن أبي الحسن المريني سنة 1347/749 وهذا الموقف من جانب مغراوة أحكم العداء بينها وبين الدولة الزيانية ولم تنفرد قبيلة مغراوة بموقفها العدائي من بني زيان بل وقف بني توجين وقبائل زغبه ضدهم في حربهم ضد أبي الحسن المريني سنة 750/ 1349.

ولم يمر موقف مغراوة من الدولة الزيانية دون عقاب، فقد قام أبو ثابت بعدة حملات تأديبية لهذه القبائل حيث استطاع هزيمة مغراوة وقتل علي بن راشد والسيطرة على مليانة والمدية وبرشك وشرشال وتقرر هذا فكلما ضعف شأن الدولة الزيانية وتلاشى سلطانها تطلع أمراء مغراوة إلى إحياء

مجدهم بمساعدة بني مرين ولكن سرعان ما كان بنو عبد الوادي يسترجعون ملكهم ويستعيدون الشلف منهم وبذلك قضوا على آمال المغراويين به.

وأما بني راشد فقد تعاونوا مع الزناتيين في مواجهة بني مرين وشاركوا إلى جانبهم في معركتي أيسلي ووادي تلاغ وكونوا إمارة صغيرة موالية للدولة الزيانية ولما استولى أبو الحسن على تلمسان سنة1336/737 وجد بها بعض أشياخ بني راشد فنقلهم مع شيوخ بني عبد الوادي إلى المغرب الأقصى وعندما قام أبوسالم بمنافسة أبي حمو موسى الثاني قدم زيان بن يحي الراشدي إلى وطن بني راشد داعيا لأبي زيان القبي فيها.

وفي ربيع الأول سنة761 سبتمبر1360 أغار الأمير أبو تاشفين الثاني رفقة الشيخ عمران بن موسى اللؤلؤي على أراضي بني راشد، ففرّ زيان ين يحيي والتجأ عند عرب سويد ثم عاد الى وطنه وقام بدعوة بني مرين مما جعل عمر بن موسى اللؤلؤي يتجه إليه ويهزمه هزيمة أكبر من الأولى واجلائه من أراضيه، مما جعله يتجه مرة أخرى إلى المغرب الأقصى.

وعندما عاد الى قلعة بني راشد بعد عقد الصلح مع بني عبد الوادي وفي رجب سنة 1362/763 اتهمه أبو حمو موسى الثاني بمراسلة بني مرين فقبض عليه واعتقله بوهران ففر من معتقله وتوجه إلى المغرب الأقصى وعند عودته اعتقل من جديد سنة1367/768 وتوفي بسجنه وبوفاته انتهت إمارة بني راشد.

يتبن مما سبق دراسته ،أن علاقة الدولة بالقبائل الزناتية عامة كانت قائمة على روح التنافس والصراع وقد ضربنا لذلك أمثلة مثل علاقة بني توجين وبني راشد بالدولة.

أما علاقة بني عبد الوادي أنفسهم بالدولة، فتبدوا مختلفة لأنها تمس علاقة القبيلة بالأسرة الحاكمة وهي علاقة بلا شك أكثر إيجابية إلاّ أنها في بعض الحالات تبدو عدائية، ذلك أن بطون بني عبد الوادي وقعت في نفس الروح القبلية وسيطرت على البعض منها روح المنافسة ودليلنا على ذلك ما ذهبنا إليه عما أورده ابن خلدون عن شخصية يغمرا سن أنه كان من أشد هذا الحي بأسا وأعلمهم في النفوس مهابة وجلالا وأعرفهم بمصالح قبيلته.

وقد تناول هذه العلاقة بمزيد من الوضوح السلطان أبي حمو موسى الثاني في قوله [أنه كان على السلطان أن يرضيهم وأن يجعل على كل جماعة منهم شيخا من أكابرهم وأعيانهم على أن يكون كل واحد من هؤلاء الأشياخ من أكثر قبيله محبة له ورغبة في خدمته واستعدادا لتحريض جماعته على الطاعة وأسلمهم ريبة وأبعدهم عن النميمة والغيبة].

ومن هذين النصين اللذين قد عرضنا لهما كأمثلة تتبين لنا العلاقة بين الأسرة الحاكمة في الدولة الزيانية وقبيلة بني عبد الوادي كانت أكثر انسجاما من بقية القبائل البربرية الأخرى ،مما يدل على أن السلطان جعل القرابة التي تربطه بهذه القبيلة وسيلة للتقرب منه فقرب أفراد من هذه الأسرة وأدخلهم في خدمته واختار الشيوخ من أكابرهم وأعيانهم بشروط كان من أهمها محبتهم له ورغبتهم في خدمته واستعدادهم لتحريض جماعته على الطاعة مع قلة الريبة والبعد عن الغيبة والنميمة وبذلك يتبن لنا صحة ما ذهب اليه ابن خلدون عبد الرحمان من وصفه ليغمرا سن بن زيان أنه كان أعظم ملوك بني زيان على الاطلاق.

وأما من حيث الأنشطة فهناك قبائل مستقرة تمارس الزراعة وأخرى متنقلة تعتمد على تربية المواشي ومن بين القبائل من يجمع بين الحرفيين وقد استفادت بعضها من ضعف الدولة وساهمت في موت الدول بالحروب والفوضى كقبيلة بني عامر وسويد من بني هلال وبني راشد من زناته وقد اتبعنا طريقة عبد الرحمن بن خلدون في تقسيم القبائل لا على أساس الأنشطة الاقتصادية ومكانتها في المجتمع بل اعتمدنا الجانب العرقي وبدأنا بالقبائل البربرية لقدمها في المنطقة.

وخلال القرن التاسع الهجري ومنتصف القرن العاشر الهجري الموافق للقرنين الخامس عشر والسادس عاشر الميلاديين فكان توزيع القبائل كمايلي:

- أولا: القبائل البربرية

ومن أبرز القبائل البربرية في فترة موضوع البحث زناتة التي كان المغرب الأوسط موطنها الأصلي وهو ما يتضح من قول ابن خلدون: « إن المغرب الأوسط ينسب إليها ويعرف بها فيقال وطن زناته وهي أقوى القبائل البربرية البترية عدة وعددا[1].

وأهم مناطق سكنى زناته، هي وهران وتلمسان ومعسكر إلى تيهرت ويمكن تحديد مضاربها من تلمسان غربا إلى نهر شلف[2] شرقا، ومن ساحل شر شال[3] شمالا إلى تيهرت[4] جنوبا وقد كانوا يقومون بالرحلة بين التل والسهوب

1- ابن خلدون: العبر، مجلد7، ص:10-15.

2- من أكبر أنهار الجزائر يصب في البحر المتوسط بالقرب من مدينة مستغانم، انظر الوزان، المصدر السابق ج2 ص32

3- شرشال: مدينة تقع غرب الجزائر على ساحل البحر المتوسط كانت عاصمة لموريطانيا القيصرية و عرفت الإزدهار في عهد الملك يوبا الثاني . انظر الحسن الوزان ج2 ص 34.

4- تيهرت: هناك مدينتان تيهرت القديمة الرومانية وتيهرت الرستمية، عنها انظر ياقوت الحموي المصدر السابق.

والواحات الصحراوية ولاتزال بعض المناطق في أدرار ووادي السورة تحمل أسماء زناته تؤكد تواجد هؤلاء قبل الهجرة الهلالية. وقد زاد نفوذ الزناتيين في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي بعد تأسيسهم لدول وينتسب هؤلاء إلى بني واسين « بني مرين وبني عبد الوادي».

فبنو عبد الوادي انتقلوا من الواحات الصحراوية إلى نواحي تلمسان وأصبحوا يتحكمون في الناحية الممتدة ما بين وادي صا ومضارب بني توجين وبالتحديد من المدية إلى جبل الونشريش ومن التراب إلى الجعبات.

أما الحدود الفاصلة بين بني عبد الوادي[1] و بني توجبن فتشتمل على سيق[2] ومدينة البطحاء[3] امتدادا إلى مضارب مغراوة مما أدى إلى كثرة الحروب بين هذه القبائل وبني عبد الوادي على الأراضي التي تتميز بوفرة الكلأ والماء لأن أغلب بطونهم يعتمدون في حياتهم على تربية المواشي والرحلة بين التل والواحات الصحراوية. هذا فيما يتعلق بمضاربهم بني عبد الوادي.

أما بطونهم فقد بلغ عددها عند تأسيس دولتهم إثنا عشر بطنا منهم بنو القاسم الذين نسبوا لبني عبد الوادي بالمجاورة وأنهم من الأشراف العلويين حسب ما ذكره التنسي وغيره من المؤرخين الموالين لبني زيان ولم يحافظوا على قوة عصبيتهم خلال مراحل دولتهم حيث بدأ الصراع بين هذه البطون في عهد يغمراسن بن زيان الذي عارضه بنو مكن دفع ببعضهم إلى الفرار

1- عن بني عبد الوادي: انظر ابن خلدون، العبر، مجلد 7س 129: ابن خلدون يحي، بغية الرواد ج1، بغية الرواد، ج1، ص:91 دائرة المعارف الإسلامية، ستال جورج مارسي Marçais (G) ، مادة زيان 418.

2- سيق تعتبر من بين المدن ذات الأهمية وهي إحدى دوائر ولاية معسكر حاليا مشهورة بالزيتون.

3- عن البطحاء ، انظر الباب الثاني الفصل الأول ص 278

نحـــو الأندلس اضطرارا لأن يغمراسن خشي من زعيمهم يحيى بـــن مكـــن وابنه الزعيم مما جعل بنو مكن يتحالفون مع المرينيين ضد يغمراسن، لكن هذا لم يستمر ويبدو أن بعض شيوخ بني عبد الوادي لعبوا دورا مشرفا في حسم الصراع بين يغمراسن وبني مكن لصالحه، فعادوا إلى تلمسان وربطوا علاقاتهم بأمراء بني زيان وخاصة في عهد شيخهم داود بـــن علـــي، الـــذي يعتبـــر من ابرز مشايخ بني عبد الوادي[1] وصاحب الشـــورى فـــي عهـــد السلطـــان أبـــي حمو مـــوسى[2] الثاني الذي سبق أن حث ابنـــه أبـــا تشفين الثانـــي للاعتماد على شيوخ بني عبد الوادي و تفضيلهم على غيرهم.

كما أن الصراع داخل الأسرة الحاكمة على السلطة له تأثيرات سلبية في قوة القبيلة فإنه بعد مقتل السلطان أبي حمو موسى الأول من قبل أبي تاشفين[3] الأول عمد هذا الأخير إلى إبعاد قرابته من أولاد وأحفاد يغمراسن الذين كانوا بتلمسان فطاردهم نحو الأندلس خشية من ترشيحهم لتولي شؤون الدولة رما يتوقع من الفتن من قبلهم، مما دفع بالبعض منهم كبني بند وكس[4] بن طاغ الله وخاصة بنو جرار بن علي إلى التعامل مع بني مرين لذلك عندما استولى هؤلاء على تلمسان سنة737هـــ-1337م استعملوا عليها عثمان بن جرار.

---

1 – التنسي، المصدر السابق، ص 159-164.

2 – وعن أبي حمو موسى الثاني، انظر المقدمة ص:159-164.

3 – قتل السلطان أبو حمو موسى الأول سنة 717 هـــ، 1317 م، انظر ابن خلدون يحيى، بغية الرواد،ج1، ص:127، التنسي، المصدر السابق 138-139.

4 – عن بني بنداوكسن بن طاع الله من بين أفراد أسرة بني زيان. انظر ابن خلدون يحيى، بغية الرواد، ج1، ص:102، أونيكوكسن اوتبدوكسن التنسي ص:109، تعرضت تلمسان إلى الاحتلال المريني مرات منها سيطرة أبو الحسن عليها سنة 737هـــ، 1337م، لمزيد من المعلومات عن دخول أبي الحسن لها، انظر ابن خلدون، العبر، ج7، ص:536.

وقد ازداد هذا الانقسام في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الزيانية نتيجة لسوء الأوضاع السياسية التي عرفتها الدولة وما أسفر عنها من حروب بينها وبين القبائل الواقعة تحت سيطرتها، والأمثلة على ذلك كثيرة منها أولاد قايد وأولاد سالم وأولاد الحاج علي وأولاد عبد الحليم وهؤلاء من بني زيان لعبوا دورا مشرفا في عصر قوة الدولة لكن في مرحلة انحطاطها دخلوا في صراع مع أمرائها، مما أدى إلى ترك مساكنهم[1] بتلمسان ومضاربهم بضواحيها والانتقال في اتجاه الجنوب وأول محطة توقفوا عندها عين الصفراء[2] التي تعتبر من بين المراكز القريبة من عاصمة الدولة وإحدى المحطات التجارية التي تسلكها القوافل المتجهة من تلمسان نحو الواحات الصحراوية والسودان الغربي فأقاموا بها نحو أربع و عشرين سنة، ويبدو أن خروجهم من تلمسان لم يضع حدا لصراعهم مع دولة بني زيان، وهو ما يؤكده صاحب النص بقوله: «وهم أهل مدينة تلمسان و أنهم كانوا أهل مملكة فقام عليهم بنو زيان فأخرجوهم من تلمسان ثم ارتحلوا ونزلوا بعين الصفراء، ثم نزلوا بعين صبرة فاستقروا بها أربع وعشرين سنة وهم يقاتلون مع بني زيان»[3].

واستمرار الحرب بينهم و بين بني زيان دفعتهم أيضا إلى الرحلة من جديد إلى الجهة الشرقية ولعل السبب في ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى شدة التنافس

---

1 – العشماوي: كتاب الإعتبار و التعريف بآل النبي المختار، مخطوط بزاوية الشيخ السويسي بغليزان، ورقة20.

2– عين الصفراء: إحدى دوائر النعامة من أهم المدن التي تقع بين الواحات الصحراوية وإقليم التل و هي الآن عاصمة لإحدى دوائر ولاية العشماوي، نفس المصدر، ورقة 18.

3 - وادي المبطوح يقع بالقرب من مدينة سيق لا يزال سكانه يعتقدون بأنهم من بقايا الأسرة الزيانية، انظر العشماوي، المصدر السابق، ورقة 160.

بينهم وبين أمراء الدولة المتأخرين، إلا أن وصولهم إلى وادي المبطوح[1] واستقرارهم به أثر في وضعيتهم الاجتماعية فتحولوا عن الرحلة ومزاولة تربية المواشي، مقتصرين على الزراعة لخصوبة الأراضي التي استقروا بـها وفي هذا الصدد يذكر الكاتب أنهم بعد أن غلبوا على أمرهم ركبوا علـى خيولهم وهربوا بأمتعتهم وعبيدهم وأولادهم وعيالهم وكل من كان معهـم وصاروا يجدون السير حتى وصلوا وادي المبطوح، واستقروا فيه ثم بعـد ذلـك تفرقوا فـي الأوطان»[2].

لم يوضح لنا الكاتب أسباب انتقال البعض منهم من وادي المبطوح نحـو مناطق أخرى، لكن يبدو لنا أن ذلك كان نتيجة للصراع الذي حدث بينهم حول استغلال الأراضي التي حلوا بها.

فأولاد قائد بن يعلا انتقلوا إلى جبل زواوة[3] والبعض الآخر نحو الواحات الصحراوية، كما اتجه أولاد سالم إلى جبل جرجرة وأولاد عبد الحليم إلى تافلالت أولاد الحاج فضلوا قرية تملاحت، ولم يبق بوادي المبطوح غير أولاد دافل. ومن بين بطون بني عبد الوادي وأفخاذهم بني حمو الذين استقروا غرب مدينة تنس إلى جوار بني رابح ومنهم فرقة حطت رحالها بجبال بني سنوسن يقال لهم أولاد محمد بجبال بني يزناسن بين مضارب بني دريد وآخرون إلى جوار بني عامر بإزاء الدواب وهؤلاء في مجموعهم نسبوا إلى أبي حمو موسى الأول.

1- العشماوي: المصدر السابق، ورقة 17.

2- لعل المقصود به جبل الزان الذي يعرف الآن بجبل كفادوا و توجد في منطقة القبائل الكبرى إحدى القرى تحمل اسم يغمراسن مؤسس الدولة الزيانية.

3- جبال بني سنوسن و بني يزناسن نسبة إلى هذه القبائل التي اتخذت تلك الجبال مستقرا بالقرب من الحدود الجزائرية المغربية أي بين مدينة المغنية و وجدة.

يضاف إلى هؤلاء فرقة من بني عبد الوادي استقرت في مسك الغنائم «مستغانم» يقال لهم أولاد عفيف وأخرى في غريس عرفوا بأولاد محمد بن يحيي وأولاد عيسى وبجبل ترارة أولاد إبراهيم وأولاد سيدهم، كما انتقل أولاد محمد بن زيان إلى جبل العمور.

- **بنو تويجن:**

هذا فيما يتعلق بقبيلة بني عبد الوادي، أما توجين فكانت قوتهم لا تقل عن بني عبد الوادي، ومواطنهم بوادي شلف وقبلة جبل ونشريس من أرض السرسو وهو المسمى لهذا العهد بنهر واصل و استقرارهم بهذه الجهة كان على حساب بني وجديجن[1] ومطماطة[2]، وبعض مضارب مغراوة[3] الذين سبق لهم السيطرة على بسائط متيجة[4] وجبل ونشريس بعد ضعف الدولة الموحدية، إلا أن عبد القوي بن عطية التوجيني نازعهم عليها و أرغمهم على تركه فخل مكانه بنو تغرين و بنو منكوش من بني توجين ثم تغلبوا على منداس واستقر بها أحياء من بني مدن أما بنو يدللتن فاستقروا بقلعة بني سلامة، كما نزل بنو يزناسن بالأراضي الواقعة شرق ونشريس، لكن هناك صراع حدث بين بطون بني توجين كانت الغلبة فيه لبني عطية وبني تغرين و أولاد عزيز بن يعقوب الذين يعرفون بالحشم فسيطروا على أغلب تلول تلك الناحية بعد

1- نسبة إلى حمو موسى الأول الذي شيد قصر بتلك الناحية و لا تزال إحدى مدن ولاية غليزان تحمل اسم عمي موسى نسبة لأبي حمو موسى..

2- عن جديجن، انظر ابن خلدون، العبر، مجلد 7، ص:11-102..

3- نفسه، مجلد7 ص:50-57..

4- نفسه، مجلد7 ص:50-57.

إزاحة مغراوة[1] عن المدية والونشريس وتافركنت واستأثروا لملكها وملك الأوطان الواقعة غربها مثل منداس والجعبات وتاغزورت.

أما وضعيتهم الاجتماعية فلم تتغير وهذا ما جعل ابن خلدون يعلق عليهم بقوله:«صار لهم ملك بدوي لم يفارقوا فيه سكن الخيام والابتعاد عن النجعة وإيلاف الرحلتين ينتهون في مشاتيهم إلى مصاب الزاب في المصائف يعودون إلى بلادهم هذه من التل[2].

ومن بين الذين حددوا لنا مضارب بني توجين أبو راس الناصري بقـولـه: «توجد بعض بطون بني توجين ضمن نواحي نهر واصل ثم صاروا من قبل بنـي راشد إلى جبل دواك وبلغ عدد جنودهم ثلاثة آلاف فارس منهم بنو تغرين وبنو عزيز لكن الزعامة لبني تغرين خلال القرن التاسع والعاشر الهجريين[3] وأرضهم بإزاء الونشريس والسكان في تلك النواحي يطلقون عليهم اسم الأجواد»[4].

إن تحركات بني توجين مرتبطة بالأوضاع السياسية التي عرفهـا المغـرب الأوسط منذ القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي وفي تلـك الفتـرة كان قسم من بني توجـين مـا بـين قلعـة سعيـدة[5] في الغـرب

1- الصراع بين بني توجين و مغراوة ظهر لأول مرة بعد فشل ثورة بنو عانية في القضاء على الدولة الموحدية، لمزيد من المعلومات عن الأحداث التي عرفها المغرب الأوسط في الثلث الأول من القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، انظر ابن خلدون، العبر، مجلد7، ص:133-134-134. .

2- ابن خلدون، العبر، مجلد7، ص:318-333.

3 - أبو راس، الحلل، ورقة 102.

4 - أبوراس، المصدر السابق، ورقة 49.

5 - قلعة سعيدة : تعتبر الآن من بين المدن الحديثة فتوسع عمرانها بعد الاستقلال 1962 و هي عاصمة لإحدى ولايات الدولة الجزائرية.

إلى المدية[1] بالشرق.

وعندما قامت الدولة الزيانية أثرت على بني توجين فاستولوا على عامة أوطانهم وفوضوا بني يزناسن وبني يدللتن لحكمهم لتحالفهم مع بني عبد الوادي بينما فضل المعارضون لهم الاعتصام بجبل ونشريس.

كما اغتنموا سوء أوضاع الدولة الزيانية لصالحهم فتحالفوا مع القوى الخارجية التي كانت تطمح في السيطرة عليها و من بين هؤلاء بنو مرين الذين حاصروا تلمسان سنة737هـ،1337م خلال هذا الحصار استوثق ملك محمد بن عطية فتغلب على مضارب صنهاجة بجبل المدية وأخرج الثعالبة من جبل تيطري إلى متيجة ثم استولوا على المدية وأنزل بها أولاد عزيز بن يعقوب وجعلها موطنا لهم.

أما بنو صالح المقربين من محمد بن عطية، فقد اختلفوا معه مما دفع بهم إلى التوجه نحو أراضي الدولة الحفصية فاستقروا بضواحي قسنطينة إقطاعا لهم من قبل بني حفص.

كما أن استمرار الحروب بين الدولة الزيانية والقوى المعادية لها أثر على بني توجين وهو ما جعل محمد بن الخطيب[2] يعلق عليهم بقوله: «كانت السيادة في قبائل بني توجين لبني عطية[3] ثم صاروا من القبائل الغارمة

---

1 – ابن الخطيب القرشي التلمساني القبائل العربية مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم3182 ورقة 14.

2– وما يقال عليها ينطق على المدية التي سبق لبلكين بن زيري اختطافها إلى جانب جزائرفي مزغنة ومليانة، لمزيد من المعلومات عنها انظر عبد الرحمان الجيلالي، المدن الثلاثة عن حصار تلمسان الكبير، انظر ابن خلدون، العبر، مجلد7، ص:196. جبل تيطري من أهم الجبال القريبة من المدية لذا عرفت المدية بعاصمة ولاية التيطري.

3– عن بني عطية و دورهم في منطقة الونشريس، انظر الصاغ، زهر البستان، ورقة 118.

ومن بطونهم بني زندار وبني قمار ومنهم فرقة كبيرة بأرضيهم اليوم بإزاء جبل بني راشد تلاشى أمرهم واضمحل حزبهم مثل الأمم الذين من قبلهم وبقيت منهم أوزاع متفرقون في الأقطار ويقال أن بني شعيب منهم والشوشرة وأولاد موسى في العطاف وفرقة بجبل أوراس».

- بنـــو راشـــد:

هذا فيما يتعلق ببني توجين، أما بنو راشد فينسبون إلى جبل عمور الذي عرف بجبل بني راشد، اغتنموا أوضاع المغرب الأوسط في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الموحدية، فتوجهوا نحو المناطق الشمالية لأهميتها من الناحية الاقتصادية وخاصة وفرة الماء والكلأ[1]، فأغاروا على المنطقة التي تندرج ضمن مضارب مديونة بين وادي مينا[2] ووادي سيق، فتغلبوا عليها واختطّوا بها القلعة التي عرفت بقلعة بني راشد، كما استولوا على مضارب قبيلـــة بـــني يفرن وصنهاجة.

- مغـــــراوة:

أما مغراوة فقد ملكوا حوض شلف وجميع مدنه، كمليانة وتنس وبرشك وشرشال كما استولوا على سهل متيجة ولم يتوقفوا عند هذا الحد بل امتدت مضاربهم إلى جبل ونشريس فاستولوا عليه قبل وصول بني توجين.

وكونوا بهذه المضارب إمارة شملت مليانة وشرشال وبرشك وتنس ومازونة، ومستغانم، ثم أعلنوا الحرب على بني زيان مما جعل هؤلاء يشنون الغارات المتواصلة على مضاربهم منذ عهد يغمراسن بن زيان.

1- أبو راس المصدر السابق، ورقة 74.

2- وادي سيق يمر بالقرب من مدينة سيق.

ومعارضتهم لبني زيان جعلهم يتحالفون مع الحفصيين في البداية ثم مع بني مرين، مما ساهم في ضعفهم وانقسامهم على أنفسهم فضعفت عصبيتهم مما دفع بالبعض منهم إلى التوجه نحو الواحات الصحراوية حيث توجد آثار لهم بقصور وادي بني كومي[1] «تاغيت» يعرف بقصر بني واروا[2] نسبة لأحد بطون مغراوة ولا نعرف تاريخ انتقالهم لهذه الناحية وبناء هذا القصر، لكن يبدو أن ذلك كان في أواخر القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي بعد الضعف الذي أصاب المغراويين نتيجة لحروبهم مع بني زيان من جهة والقبائل العربية من جهة أخرى.

ومن بين الذين تخلوا عن مضاربهم من بطون مغراوة، بنو بختة الذين فضلوا الاستقرار بالضواحي المجاورة لتلسمان وبالتحديد وادي يسر، ومنهم بنو الكوط في الزاب وجبل راشد ولهم هناك قصور كثيرة ومنهم بنو وراو شلف ومراكش والسوس وبإزاء ملوية وقبيلة فوق ماسون بأرض الجعبات ومنهم سنجاس وقبيلة خدو ببجاية وريغة بالزاب إلا أن أشهر قبائلهم هي التي توجد عند مصب نهر شلف في البحر المتوسط.

ومن مغراوة الكناسرة وأهل فرس في غريس وأهل الكرط وفرقة يمينا وبني راشد من الشرق وأخرى بيسر وفرقة بأولاد خالد تركوا وتناموا[3].

1- عن قصور بني كومي، انظر الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 2، ص130.

2- وعني بني واروا، ، انظر ابن خلدون، العبر، مجلد7،ص: 276.

3- أبوراس الناصري ، المصدر السابق ، ورقة 40.

- مطماطة:

يضاف إلى قبيلة مغراوة مطماطة[1] التي تعتبر من أبرز القبائل التي لعبت دورا بارزا خلال القرن الثالث والرابع الهجريين، التاسع والعاشر الميلاديين.

من بين بطونهم بني يلسن الذين استقروا بالونشريس هاجروا مع الزناتيين خلال القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي وتمركزوا بالخصوص بناحية منداس وبالقرب من بلدية عمي موسى حاليا بجوار مكناسة.

كما توجد بقايا منهم بالجبل المقابل لتيهرت والذي عرف خلال هذه الفترة بجبل كركرة، دخل البعض منهم في صراع مع مغراوة وعندما فشلوا في الحفاظ على مضاربهم انتقلوا إلى الجبال المطلة على سهل متيجة ثم خضعوا في نهاية الأمر إلى القبائل العربية وأصبحوا يدفعون ضرائبهم لأولاد يعقوب بن يوسف والعطاف الذين استحوذوا على التلول والجبال المجاورة لجبل دواك[2].

كما نزل البعض منهم نواحي البطحاء أي ما يعرف اليوم بالأراضي المجاورة لغليزان[3]، لكن الحروب التي عاشتها الدولة الزيانية أثـرّت على المطماطين مما دفعهم إلى الإنتقال عن مضاربهم وتوزعهم بين القبائل ويجعل أبو راس من بين بطونهم أولاد إدريس الأحرار بوادي سيرات.

---

1 – عقد الجمان ورقة 9-10.

2 – ابن خلدون، العبر، مجلد6، ص:102.

3 – غليزان عاصمة لإحدى ولايات الدولة الجزائرية و اسمها أمازيغي معناه تل الدباب، انظر القرشي القبائل العربية، ورقة 126.

- هــــــوارة:

أما هوارة[1] فتعتبر من أكبر القبائل البربرية التي كان لها تأثير على الأوضاع السياسية في المغرب الاسلامي منذ الفتوحات الاسلامية وقد استقر بعض بطونها بالمغرب الأوسط ومنها زكارة التي ينسب إليها جبل زكار بدائرة مليانة.

وخلال القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي أسس شيخ هــوارة[2] محمد بن إسحاق قلعة هوارة التي عرفت فيما بعد بقلعة بني راشد.

وقبل استقرارهم في تلك الناحية كانت أراضيهم تابعة لقبيلة بني يلومي[3] وبني ومانوا ثم انتقل حكمهم إلى آل حيون الذين لعبوا دورا بارزا في المرحلة الأولى من عهد الدولة الزيانية وعلى الخصوص في عهد السلطان أبي تاشفين الأول الذي تقرب منهم وعين شيوخهم في الوظائف ومن أبرز هؤلاء يعقوب بن يوسف[4] وخلال فترة موضوع البحث عرفت هوارة هي الأخرى هجرة داخلية وخارجية ومن المهاجرين، بنو علان الذين كانوا أهل الرئاســة فــي الجزائر خلال العصر الذهبي للدولة الزيانية، فهي في النصف الأول مــن القــرن 10هــ/ 16.

لم نجد لهم ذكر ولعل السبب في ذلك أنهم انصهروا ضمن سكان مدينة الجزائر ولم يدخلوا في أي نشاط سياسي مما جعل المصادر تغفل عن ذكرهم.

---

1 - عن هوارة، انظر ابن خلدون، العبر، مجلد

2 - عن هوارة، انظر ابن خلدون، العبر، مجلد

3- عن بني يلومي و بني ومانوا، انظر ابن خلدون، العبر، مجلد7، ص:114.

4- ابن خلدون يحيى، بغية الرواد، ج1، ص216، التنسي، المصدر السابق، ص139-144.

أما الذين حافظوا على مضاربهم فهم أهل الجبل المطل على البطحاء وفيه مسراة وغيرها من بطونهم أهل جبل عباش وأوماهة وتيلوانت وقد هاجرت فرقة منهم الى مستغانم تحت ضغط قبيلة السويد، كانوا قبل ذلك بالبطحاء.

ومن بين تلك القبائل التي استقرت بأراضي الدولة الزيانية خلال هذه الفترة بنو مرين الذين أسسوا لهم دولة بالمغرب الأقصى[1] وادخلوهم أيضا في صراع فيما بينهم مما أدى إلى إنهيار دولتهم وتأسيس الدولة الوطاسية[2] على أنقاضها دفع ببعض بطون بنى مرين إلى الانتقال نحو المغرب الأوسط واستقروا في البداية بتلمسان والبعض منهم على ضفاف وادي يسر مجاورين الحشم وهم الذين عرفوا بأولاد سيدي محمد الشارف الملقب بالأدغم كما انتقل البعض منهم الى مضارب بنى عامر.

- بنو يلومي وبنو ومانوا:

ومن بين القبائل البربرية التي تعرضت الى ترك مضاربها بنو يلومـــي وبنو مانوا اللتان كانت مضاربهما بإقليم بني راشد[3] حاليا أي بمعسكر ونواحيها وسبب خروجهم هو ضعف عصبتهم وهو ما يؤكده القرشي[4] بقوله: وأمـــا بـــنو يلومان وبنووامنو منهم فرقة في ونوغة وأخرى في البرجية يضاف إلى القبائل السابقة نجد قبائل أخرى حدث تحركها داخل حدود الدولة كالانتقال

1- تأسست الدولة الزيانية سنة614 هـــ،1226، لمزيد من المعلومات عنها انظر ابن خلدون، العبر، مجلد7 ص:352-361.

2- عن بني وطاس، انظر السلاوي، المصدر السابق، ج4 ، ص:157

3- بنو راشد من القبائل الزناتية لمزيد من المعلومات عنهم، انظر ابن خلدون، العبر، مجلد7، ص:315-318.

4- ابن الخطيب القرشي، المصدر السابق، ورقة 18

من الجهة الشرقية نحو الناحية الغربية وخاصة الحدود الفاصلة الآن بين الجزائر والمملكة المغربية من بين تلك القبائل ضريسة وزناتة.

فالأولى كانت مستقرة بين تنس ووادي شلف ثم تعرضت لضغوط من قبل قبائل الناحية الأقوى منها لأهمية المنطقة من الناحية الاقتصادية، فوفرة المياه وخصوبة الأرض جعل القبائل تتصارع على هذه المنطقة فبعد المغراويين جاء دور الهلاليين، فاستقروا بها.

لم نعرف تاريخ خروج ضريسة من المنطقة، لكن يبدو لي أنه مر بعدة مراحل قبل تأسيس الدولة واستمر إلى نهايتها وسلكوا الطريق الساحلي إلى أن وصلوا إلى وادي ملوية وعنده فضلوا جبال بطيوة ومضيق تازة.

يضاف إلى هؤلاء قبائل أخرى تركت مضاربها نتيجة لضعفها ومن بينها جماعات مدغرة[1] ومطماطة[2] ومغيلة ورواغة الذين اختاروا بدورهم ساحل طريقة عند مصب وادي الملوية مما يقابل مضارب بني يزناسن. وهناك هجرة من جنوب المغرب الأقصى وبالتحديد من مضارب قبيلة مدغرة الموجودة بسجلماسة وهم أولاد سيدي بوعنان الذين تركوا مضاربهم في بداية القرن العاشر الهجري، السادس الميلادي فاستقر مولاي الشريف بتلمسان وانتقل وبعض أبنائه انتقلوا إلى أم العسكر(معسكر) ومن بين القبائل التي لها تأثير على الوضعية السياسية خلال هذه فترة موضوع

1- مدغرة : قبيلة بربرية، لمزيد من المعلومات عنها انظر ابن خلدون، العبر، مجلد.

2- ابن خلدون: العبر، مجلد، ص: عن بيطري، انظر ابن خلدون، العبر، مجلد.

البحـــث الحشـــم[1] الذين اعتبرهم المؤلف بأنهم جزء ومن قبيلة بني راشد سموا بذلك في أواسط القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي. ومن بين بطون الحشم ما يلي:

- أولاد سيـــدي دحـــو

يعتبرون من أهم البطون التي تنسب إلى الحشم وقد علق عليهم الطيب المختار بقوله « أصح القبائل نسبا وأعظمها في القديم جاها ولعل ذلك كان فـــي عهد الدولة الزيانية وعلى الخصوص في مرحلتها الأخيرة حيث نجـــد الحشم قد تحالفوا مع الأتراك ضد الأسبان وهو ما يؤكده المؤلـــف بقـــولـــه: « ونجدهم زيادة والتزام عند ملوك الأتراك ومن دخل من أهل المطالب والجبليات لا يتعرض له ».

ولكن ما يعاب على النص أنه لم يحدد لنا تاريخ ارتباط الحشم بالأتراك، لكن يبدو من خلال الوثائق الإسبانية أنه تم خلال المرحلة الأولى من التوسع التركي على حساب الدولة الزيانية ولعل ذلك تم بدفع من قبل الملياني الذي كان بالقلعة خلال مرور عروج بها متوجها نحو تلمسان ولعلهم لم يكونوا على علاقة حسنة مع الزيانيين.

1- أن لفظ الحشم مأخوذ من الحشمة بالكسر وهي الحياء و من الحشمة بالحركة وهو الغضب، أنظر الطيب بن المختار القول الأعم في بيان أنساب الحشم، مخطوط بمستغانم، عند الطيب، ورقة1، ومن أكد هذا التعريف صاحب كتاب المزوار والتنوير في ذكر آل النبي البشير، المصدر السابق، ورقة2. وعن تاريخ وصولهم إلى غريس يقول في شأنه أبو راس الناصري في شرحه بغوتية أبي مهدي أن دخول الحشم كان أاخر المائة التاسعة.

- **أولاد محمد بن يحيى**

ومن بين البطون الذين ينسبون إلى الحشم أولاد سيدي محمد بن يحيى مقرئ الجن ويعرفون الآن بفروجه وانحسرت الرايات عند سيدي بن فريحة[1].

- **مهاجة**

ومن بين البطون مهاجة التي سكنت المنطقة منذ القدم وعلى الخصوص في العهد الزياني وتتصل بالدولة الإدريسية التي حكمت منطقة المغرب الأوسط بواسطة الأسر العلوية التي كونت لها إمارة في بعض المدن مثل مليانة وسوق حمزة ومن بين البطون أيضا:

- **أولاد أحمد الورغي**[2]

لا يزالون يعرفون في الوقت الحالي بنفس الاسم ولهم علاقة بالأتراك ولعل ذلك تم قبل نهاية الدولة الزيانية حيث أوكلت لهم الوظائف المخزنية لصالح الأتراك. ومن بين هؤلاء:

- **أولاد العبد**[3]

ومن أبرز الشخصيات التي تنسب إلى هذا البطن، أبو زيد كان مشهورا بالشجاعة معروفا بالرماية خلال فترة الصراع بين الأتراك والأسبان على أراض الدولة الزيانية ويظهر أنه ترك غريس واستقر في مضارب المحال قريب من وادي مينا.

1- الطيب، من المختار، المصدر السابق، ورقة 5.

2- نفسه ورقة 6.

3 - نفسه ورقة 6.

ومن هؤلاء أولاد عبد القادر[1]: وهم من أقدم البطون التي استقرت في الناحية لأن المؤلف يرجعهم إلى فتنة موسى بن أبي العافية لأن هؤلاء حسب ما أورد هذا الكاتب ليسوا من البربر بل من الأدارسة وعلى الخصوص أسرة آل حمدون الذين حكموا في عهد ملوك الطوائف الجزء الجنوبي من الأندلس وشمال المغرب الأقصى وهو ما جعل صاحب النص يقول في شأنهم "واصل سلفهم من الأندلس" ومما يؤكد هذا القول أن حياتهم الثقافية والاجتماعية بقيت متأثرة بالحضارة الأندلسية وفي هذا الصدد[2] يقول "وهم لهذا العهد ما خرجوا على طريقة أهل الأندلس من تعاطي الشعر والتأنق في الكلام وارتكاب أبواب الفصاحة والتوغل في رفاهية الملبس والمركب والمأكل والمشرب وهم من البطون المقربين من الأتراك ». وهو ما يستفاد من قولـــه: « وملوك الأتراك يرفعون حوائجهم ويتكلمون في مصالحهم"[3].

ومن بين الذين ينسبون إلى الحشم بن دوخة ولهذه القبيلة ارتباط بأولاد سيدي دحو وعلى الخصوص ما يتعلق بالجانب الثقافي.

ومن بين بطون الحشم الذين لعبوا دورا في الأحداث أولاد أحمد الـــذين يقطنون ناحية تسالة[4] إلى جانب بني عامر وهم أقدم منهم في المنطقـــة لأنهـــم تواجدوا بها قبل توافد بني عامر على تلك الناحية، كـــذلك نجـــد أن اســـتقرار القبائل العربية في منطقة الحشم قد جعلهم يتأثرون ويؤثرون وهو ما يوضـــحه صاحب النص بقوله: أن العرب لمـــا اختلطـــوا بـــالبربر واســـتوزروا لهـــم

1 – نفسه ورقة 8.

2 – الطيب بن مختار، المصدر السابق، ورقة 3.

3 – نفس المصدر، ورقة 3.

4 – نفسه، ورقة 4.

وشاركوهم في رطانتهم وعجميتهم ونشأ أولادهم مع أولادهم ففقد لسانهم المصري الذي وقع به الإعجاز ونزل به القرآن وتبدلت وجوه أعرابه وأفضوا للعجم ومالوا إليها بالطبع[1].

ولما كانت ألفاظه صحيحة من حيث الوضع استحقوا أن يسموا عربا واستحقوا أن يوصفوا بالعجمية من حيث تغيير الأعراب.

نستخلص من النص ما يلي:

أ/ أنه قبل هذه المرحلة كانت المنطقة مسكونة من بني راشد، لكن بعد ضعف الدولة الزيانية و بني راشد سهل مهمة قبائل بني هلال في الاستقرار بجوارها، أو بداخل بطونها بعد إبعاد بني راشد إلى نواحي شلف[2].

ب/ أن الوجود الهلالي بالناحية أثر على أحوال القبائل الاجتماعية والثقافية بإنتشار اللغة العربية في مضارب بني راشد وتأثر العرب بالبربرية مما كان له تأثير على فصاحتهم التي كانت لهم في شبه الجزيرة العربية القبائل العربية.

يبدو أنه من قبيل المبالغة التاريخية أن يقال أنّه لا وجود للقبائل العربية في المغرب الأوسط قبل وصول بني هلال سوى المتواجدين بمنطقة تيهرت الذين انتقلوا إليها مع عبد الرحمان بن رستم ومن كان قبل ذلك من قبائل عربية استقرت بالقيروان وتونس خلال الفتوحات الاسلامية ثم انتقلت بعد ذلك إلى بلاد المغرب الأوسط وانتشرت في عدة جبهات منه فقد ذكر اليا الأسر العلوية التي استقرت مابين سوق حمزة البويرة حتى الحدود الجزائرية المغربية حاليا.

---

1 - العشماوي المزوار و التنوير في ذكر آل النبي، البشير، ورقة 3.

2 - الطيب، من المختار، المصدر السابق ، ورقة 7.

ودخول العلويين إلى المغرب الأوسط كان بقدوم إدريس الأول من المشرق إلى المغرب الأقصى وزاد بعد وفاة إدريس الثاني 828/213 حيث خلفه ابـــنه محمد الذي قام بتوزيع أراضي الدولة على ثمانية من إخوانه من السوس الأقصى إلى تلمسان ووهران بالمغرب الأوسط.

ويقول أبو ضيف [خلف هؤلاء وأتباعهم ومواليهم قـــد توجهـــوا معهـــم إلى الأماكن التي استقروا بها مما كان له أثره في نشر الاسلام في هذه المناطق وتعريبها.

إلا أن نصيب المغرب الأوسط وإن كان غير محدود من هذه القبائل العربـــية إلا أنه يمكن التعرف إليه من خلال التعرف على الأفواج التـــي التحقت بالأدارسة.

ففي نهاية عام805/189 وفد على إدريس الثاني من افريقية والأندلس خمس مائة فارس من زعماء القبائل ينتمون إلى قيس والازدج ومذهج والصدف وغيرها كانوا ساخطين على الأغالبة بافريقية والأمويين بالأندلس وكان وفودهم على إدريس كسبا له خصوصا إذا أدركنا أن شعور إدريس الثاني وهو في الوسط البربري الذي أحاط به دفع دفعه إلى استغلال وجـــود هؤلاء العرب، على أن هذه الهجرات لم تتوقف من الشرق والقيـــروان والأندلس.

واذا كانت العلاقة بين القاطنين والعرب قامت أساسا على عدم التفاهـــم إلا أنه كانت تتأرجح بين الخضوع والثورة في كثير من الأحيان وذلك أن التأييد للفاطميين في معظمه كان بربريا ربما لأغراض سياسية أو لحب البربر.

كالشأن دائما لغير العرب من المسلمين أنهم عاطفيون فيما يتصل بآل البيت، وقد صور لنا هذا الوفاء بين العرب والفاطميين المعز لدين الله الفاطمي حين عزم إلى الإنتقال الى مصر استقدم جعفر بن علي بن حمدون وعرض عليه استخلافه نائبا عنه في افريقية فاشترط عليه لقبول ذلك شروطا فقال له [تترك معي أحد أولادك وإخوتك يقيمون في القصر وأنا أدبر لا تسألني عن شي من الأموال إنما أجنيه يكون بأداء ما أنفقه وإذا أردت أمرا فعلته دون أن ننتظر ورود أمرك فيه لبعد ما بين مصر والمغرب ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره لي فغضب المعز لذلك وقال يا جعفر عزلتني عن عملي وأردت أن تجعل لي فيه شريكا يبدون أمري واستبدت بالأموال والأعمال دوني فقد أخطأت ثم استدعى يوسف بلكين بن زيري فقبل الأمر.

- أهم القبائل العربية :

هذا فيما يتعلق بالفترة التي سبقت مجيء الهلاليين، أمّا هم فقد وفدوا إلى المغرب الاسلامي بتوجيه من قبل الفاطميين في مصر وقد هاجروا من الصعيد خاصة وهجرتهم الأولى كانت من جزيرة العرب وسيناء عامة.

كانوا أخلاطا من القبائل العربية غلب اسم بنو هلال عليه وإن كان بنو سليم أقوى من هذه القبائل وبذلك يبدو لنا ان توجه هذه القبائل نحو المغرب لم يكن مقصودا منه ضرب لمعز بن باديس ونشر العربية في المغرب الاسلامي فحسب وإنما قصد ضرب القحطانيين في المغرب الاسلامي لأن بني هلال وبني سليم كانت العداوة بينهم وبين الأزد مشهورة لمجاورتهم إياهم في حيث تناحر هلال وسليم على مر أيام ولعبوا دورا هز الدولة الاسلامية فيما بعد هزا عنيفا وفرض بعض نظمها وتقاليدها.

ومن بين القبائل الهلالية التي استقرت بالمغرب الأوسط زغبه فيقول عنها أبو ضيف [إن زغبه ورياح انضمت الى بني هلال وبني سليم وهما قبيلتان من العرب كانتا تقيمان على حدود مصر الغربية في إقليم برقة وكانت بينهما حرب وعداوة والقلقشندي يرى أن زغبه من بني هلال بني عامر من العدنانية.

أما المعقل فهم بطن من مدجح من القحطانية وهو ربيعه بن الحرث بن كعب بن خالد بن مدجن، فاستقرت زغبه بطرابلس وقابس ثم تحالفوا مع الموحدين وقاموا معهم في مواجهة ثورة ابن غانية.

- وأهم بطون زغبه:

*** قبائل بني عامر:**

نسبة إلى عامر بن زغبه بن سعيد بن ربيعه بن نهيك بن صعصعة أحد بطون هوزان بن منصور بن عكرمة بن زيد بن حفصة من قيس غيلان أرضهم بجبل غزوان عند الطائف.

- البطن الأول :

بنو عامر وهم من بطون قبيلة زغبة العربية وقد ارتبطوا مع بني يزيد بروابط مشتركة وقاتلوا معهم في حروبهم وقد استقر بهم المقام في أراضي التل حيث أقطعهم يغمراسن الأراضي المحيطة بتلمسان كما استوطنوا الجزء الشرقي من أراضي الدولة فاستقروا بنهر واصل القريب من جبال الونشريس إلاّ أنهم كانوا في فصل الخريف يتوجهون إلى أراضي بني ميزاب وفي نهاية القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي تولوا جباية الضرائب على السهول التي تقع مابين مرتفعات تسالة والظهرة كما سيطروا على زيدور قرب عين تموشنت ومملالة وسفوح سبخة وهران وبعض المناطق من سهل سيق كما

توسعوا في سهول وهران التي كانت مسكونة من قبل ازداجة ومرتفعات تسالة التي تندرج ضمن مملكات بني راشد.

وقد أشار الحسن الوزان إلى بني عامر بقوله أنهم يتوجهون نحو المناطق الصحراوية وأنهم يعملون ضمن الجيش الزياني وقد عددهم بستة آلاف فارس، ومن بطون بني عامر اليعقوبية نسبة إلى يعقوب بن عامر من زغبة:

- أولاد مطرف ويقال لهم المطارفة نسبة لمطرف بن شافع بن عامر بن زغبه
- أولاد صالح ويقال لهم الصوالحية نسبة لصالح بن شافع بن عامر بن زغبه
- أولاد بالغ نسبة لبالغ بن شافع بن عامر بن زغبه

- **البطـــن الثـــاني :**

بنو يعقوب الذين تنسب إليهم أرض اليعقوبية وبطونهم خمسة:

ذوي منيع ويقال لهم أولاد منيع نسبة لجدهم منيع بن عامر.

الكرايش نسبة لجدهم رداد بن كريش بن عباد بن منيع بن يعقوب بن عامـــر بن زغبه.

أولاد رداد ويقال لهم الردايدية نسبة لجدهم رداد بن كريش بن عباد بن منيع بن يعقوب بن عامر بن زغبه.

أولاد عطاف ويقال لهم العطاطفة نسبة إلى جدهم عطاف بن رداد بن كريش بن عباد.

أولاد هلال ويقال لهم الهلالي ونسبة لجدهم هلال بن عطاف بن رداد بن كريش.

أولاد غانم نسبة لجدهم غانم بن هلال بن عطاف بن رداد.

أولاد سليم نسبة لجدهم سليم بن داود بن هلال بن عطاف.

أولاد سعيد ويقال لهم السعايدة نسبة لجدهم سعيد بن داود بن هلال بن عطاف بن رداد بن كريش.

أولاد سليم ويقال لهم السلامية نسبة لجدهم سليم بن داوود بن هلال بن عطاف.

أولاد سآسى نسبة الى جدهم سآسى بن سليم بن داوود بن هلال بن عطاف.

أولاد سعيد الصغير نسبة إلى جدهم سعيد الصغير بن عثمان بن سعيد بن داود بن عطاف.

أولاد هجر ويقال لهم الهجائر نسبة لجدهم هجر بن غانم بن هلال بن عطاف.

البطن الثالث بنو حميد وبطونهم ستة وستون بطنا مختلفة وهم.

أولاد عبيد نسبة لجدهم حميد بن عامر بن رغبة.

ذوي عيسى نسبة لجدهم عيسى بن حميد بن عامر بن زغبه.

الدواقة نسبة إلى جدهم دوقة بن عبيد بن حميد بن عامر بن زغبه.

العقالة نسبة لجدهم عقلة بن عبيد بن حميد بن عامر بن زغبه.

الصعادلة نسبة لجدهم صعدلة بن عبيد بن حميد بن عامر بن زغبة.

السجاجدة نسبة لجدهم سجادة بن عبيد بن حميد بن عامر بن زغبة.

أولاد حمزة نسبة الى جدهم محرز بن حمزة بن عبيد بن حميد بن عامر بن زغبة.

أولاد عجزة نسبة لجدهم عجزة بن حمزة بن عبيد بن حمير بن عامر بن زغبة.

المعاليف نسبة لجدهم معلاف بن محرز بن حمزة بن عبيد بن حميد بن عامر بن زغبة.

الحجز نسبة لجدهم حجاز بن عبيد بن حميد بن عامر بن زغبة.

أولاد جحش نسبة لجدهم جحش بن حجاز بن عبيد بن حميد بن عامر بن زغبة.

الولادة نسبة لجدهم ولاد بن محمد بن حجوش.

الشدايدية نسبة لجدهم شداد بن محمد بن حجوش.

المساعدة نسبة لجدهم مسعود بن شداد.

أولاد أعمر ويقال لهم العمامرة نسبة لجدهم أعمر بن زيان بن مسعود.

وأولاده حامد نسبة لجدهم حامد بن حجوش.

وأولاده رياب نسبة لجدهم رياب بن حامد بن حجوش وأولاده مقران نسبة لجدهم مقران بن رياب بن حامد بن حجوش وأولاده عبد الله الكبير نسبة لجدهم عبد الله الكبير بن رياب بن حامد.

الوناندة نسبة لجدهم وانود بن عبد الله الكبير بن رياب بن حامد

أولاد سلطان ويقال لهم السلاطنة نسبة إلى جدهم سلطان بن ونود بن عبد الله الكبير بن رباب .

العثمانة نسبة لجدهم عثمان الثاني بن سلطان بن ونود

أولاد علي نسبة لجدهم علي الكبير ين عثمان بن سلطان بن ونود بن عبد الله الكبير.

أولاد سعيد نسبة الى جدهم سعيد بن رباب بن حامد.

أولاد مسعود نسبة لجدهم مسعود بن رباب بن حامد.

أولاد عريف ويقال لهم العرايفية نسبة لجدهم عريف بن سعيد ابن رباب بن حامد.

أولاد ميمون نسبة لجدهم الميمون بن عريف بن سعيد بن رباب بن حامد

أولاد العباس الكبير نسبة الى جدهم العباس الكبير بن ميمون بن عريف بن سعيد.

المحايد نسبة لجدهم حداد ويقال له محداد بن عريف بن سعيد بن رباب بن حامد.

أولاد عروف ويقال لهم المعارف نسبة لجدهم معروف ابن سعيد بن رباب بن حامد .

أولاد يعقوب الكبير نسبة لجدهم يعقوب بن معروف بن سعيد بن رباب بن حامد.

اولاد معرف نسبة لجدهم امعرف بن يعقوب بن معرف بن سعيد بن رباب بن حامد.

أولاد عسكر ويقال لهم العسكرية نسبة لجدهم عسكر بن امعرف بن يعقوب بن معروف.

أولاد عبد الصغير نسبة الى جدهم عبد الله الصغير بن عسكر بن امعرف.

أولاد زيان نسبة لجدهم زيان بن يعقوب بن معروف بن سعيد.

أولاد عريف الصغير نسبة لجدهم عريف الصغير بن زيان بن يعقوب بن معروف .

أولاد يحيى نسبة لجدهم يحيى بن يعقوب بن معروف .

أولاد عريف التالي نسبة لجدهم عريف بن يحي بن يعقوب بن معروف.

أولاد إبراهيم نسبة لجدهم ابراهيم بن يعقوب بن معروف بن سعيد.

أولاد سليم نسبة لجدهم سليم بن ابراهيم بن يعقوب بن معروف بن سعيد.

أولاد اعمر نسبة لجدهم عمر بن ابراهيم بن يعقوب بن مروف بن سعيد بن رباب .

أولاد علي الصغير نسبة لجدهم علي الصغير بن اعمر بن ابراهيم بن يعقوب

أولاد عامر ويقال لهم العوامر.

وبنو عامر هم الذين تنتسب اليهم القبيلة نسبة لجدهم عامر بن ابراهيم بن يعقوب بن معروف بن سعيد بن رباب.

أولاد خالد نسبة لجدهم خالد بن عامر بن ابراهيم وخالد مات في الجزائر طريدا من أبي حمو موسى بن يوسف الزياني.

أولاد سليم الأوسط نسبة لجدهم سليم بن عامر بن ابراهيم بن يعقوب .

أولاد شعيب ويقال لهم الشعايبية نسبة إلى جدهم شعيب بن عامر بن ابراهيم بن يعقوب .

وشعيب هذا هو الذي قتله أخوه خالد الطريد للرياسة فلم يدركها وكان شعيب هذا من النصحاء للسلطان أبي حمو موسى الثاني .

أولاد زكرياء نسبة لجدهم زكرياء بن عامر بن ابراهيم بن يعقوب.

أولاد موسى ويقال لهم المواسية نسبة لجدهم موسى بن عامر بن ابراهيم بن يعقوب .

أولاد العباس نسبة لجدهم العباس الصغير بن موسى بن عامر بن ابراهيم والعباس هذا هو الذي قتله أبو تاشفين الثاني بنواحي السرسو في الحرب التي وقعت بينه وبين بني عامر سنة سبع وسبعين وسبعمائة وبعث برأسه لحضرة والده أبي حمو موسى الثاني في تلمسان .

قيزة ويقال لهم أيضا جيدزة نسبة لجدهم قيزة بن عامر بن ابراهيم .

أولاد معروف الصغير نسبة لجدهم معروف الصغير بن عامر بن أبراهيم بن يعقوب.

أولاد ردان ويقال لهم الردادنة نسبة لجدهم ردان بن معروف بن عامر.

أولاد ماضي نسبة لجدهم ماضي بن ردان بن معروف بن عامر بن ابراهيم بن يعقوب.

وهم قبيلة عظيمة ذات أعراش بنواحي قسنطينة وليس ماضي هذا هو الذي تنسب إليه العين المعروفة بعين ماضي وإنما هي منسوبة لماضي بن مغرب من بني كبير إحدى بطون كرفة بن الاثبج الهلالي .

أولاد سقير ويقال لهم السقر ويقال لأولاده السقارنة نسبة لجدهم سقير بن عامر بن ابراهيم بن يعقوب بن معروف ومات سقير سنة إحدى وستين وسبعمائة واختلف في كيفية موته على ثلاثة أقوال فقيل أنه غزا بجيشه على زاوية سيدي البحري وهو أبو سيف بتارقة فأخذ وانصرف وكان أبو يوسف غائبا ولما قدم سمع بذلك فتبعه إلى أن لحقه بأبي حنش فقتله هناك وقبره به، وقيل أنه لقي نفسه في معركة بين بني عامر في وطواط على الغنائم فقتل وقيل أنه لما لقي نفس في تلك الفتنة ليكلف الناس عضه رجل من قومه في بطنه غلظا ولم يعرف، فجرح بتلك العضة ومات ثم أمر أبو حمو موسى بتجهيزه، فغسل وكفن من أكفان الملوك وجعله في هودج وسار به إلى العباد فدفن هناك.

وكان بين سقير وابن عمه علي بن اعمر من أولاد علي بن ابن اعمر منافسة شديدة على الرئاسة ولما مات استقل علي برئاسة بني عامر

أولاد عبد الله التالي نسبة لجدهم عبد الله التالي بن سقير بن عامر

أولاد ملوك نسبة لجدهم ملوك بن سقير بن عامر وعبد الله وملوك هذان قتلهما في الحرب أبو تاشفين بن أبي حمو موسى الثاني بنواحي السرسو وبعث برأسهما إلى تلمسان سنة سبع وسبعين وسبعمائة.

أولاد المسعود نسبة لجدهم المسعود بن سقير بن عامر بن ابراهيم.

الونازرة نسبة لجدهم ونزار ابن عبد الله بن صقير بن عامر بن ابراهيم.

واصل أرض بني عامر بجبل غزوان عند الطائف خلال عهد الدولة العباسية.

حميان قبيلة عظيمة نسبة لجدهم حميان بن عقبة بن يزيد بن عيسى ابن زغبة. الهلالي كانت لهم الأتاوات على أراضي بني حسن والاهوص وحمزة وقبل قيام الدولة الموحدية كانت رئاستهم لأولاد لاحق ثم صارت لأولاد امعافا ثم صارت في بيت سعد بن مالك وهم يزعمون انهم من ذرية عبد الرحمن بن أبي بكر .

ومسكن هؤلاء من ملاتة في أرض الحفرة وما ولاها وأكثرهم بقي بالقفر إلى الآن وهؤلاء أتوا مع بني عامر وانتقلوا بانتقالهم الى ضواحي تلمسان وكانت لهم رغبة شديدة في التنصر.

وعندما قام الاسبان بتحصين وهران ببناء قلعة مرجاجو، كان أول من أتى لهم بالماء حميان وكان عدد هذه القبيلة ثلاثين دوارا فهم قبيل كبير ولهم بسالة عظيمة ومكيدة في الحروب ويقال أن شيخهم هو الذي دبر على الاسبان بناء مرجاجو تحصينا للمدينة ولما أعجبهم رأيه خشوا من فتكه بهم قالوا المدبر لنا مدبر علينا فنووا الفتك به وسكتوا وشرعوا في بناء القلعة وحفروا بالقرب من أساسها بئر عميق فألقوه فيه خفية وردموا عليه .

قبيلة قيزة، وهم فرقة من بني عامر من أولاد عامر بن ابراهيم نسبة لجدهم قيزة بن عامر وكان مسكنهم بنواحي تارقة بتلك الجبال وبهم سمي جبل يقال له جبل قيزة ولما لحق بهم اخواتهم الونارة انتقلوا لملاتة فسكنوا بضواحي تامزوغة ووادي الغسول وطاء وجبلا وكانوا أهل بأس شديد وعددهم نحو الثلاثة عشر دوار وكانت لهم رياسة عظيمة مع الاسبانيين.

أولاد عبد الله وهم فرقة من بني عامر نسبة لجدهم عبد الله بن سقير بن عامر بن ابراهيم وكان مسكنهم بوادي الثلاثاء من ملاتة ولهم عدد كبير يبلغون نحو الستين دوارا ولهم جولان عظيم في الأرض وبطش شديد ومكر

عتيد فكانوا ينتهون للمطمر الأحمر بوادي ميناء وكان لليهود عليهم من الصولة العظيمة التي وسموهم بها سمة الخسف والذل ما لا يصدقه انسان.

أولاد علي القبيلة المشهورة وهم فرقة من بني عامر ومسكنهم ببلاد مخوخ اللوماني صاحب الخيمة المشهورة الثنية في الحرب الواقعة بين بني لومي وبني مادوا في أوائل المائة الخامسة وليس هو ما خوخ الشريف وهم فرقة كبيرة يناهزون السبعين دوار.

وأولاد علي لهم بأس وأناقة وكانوا أهل عداء شديد للإسبان حتى غزوا بهم المرة بعد الأخرى الكرط وغيره وكان فيهم جبار عنيد ظالم فارس شجاع يقـال له رابح بن صولة قيل من صبيح وقيل من أولاد علي نسبة لجده صولـة بـن يعقوب وأولاده يقال لهم الصوالة أشد بأس على المسلمين ونكاية للمؤمنين وإعانة للاسبان فكم لهم من غارة بالليل والنهار الى أن قتله الحشم بعدما كف بصره وكان لأولاد علي ما يفوق المائة فارس من الأعيان حتى خيل بني عامر كانت تناهز عشرة آلاف فارس فضلا على المشاة.

أولاد عبد الله بن سقير بن عامر ويقال لهم الونزرة نسبة لجدهم نـزار بـن عبد الله بن سقير وهم فرقة ذات بأس شديد فهم نحو الستة دواوير وأصل مسكنهم بوادي سنان بنواحي عين تموشنت من مزارع أولاد خليفة الخارجين من أولاد الزائر ثم انتقلوا لنواحي تارقة فسكنوا بجبالها مع إخوتهم قيزة العامريين.

بنو يزيد[1] وقد تحالفوا في البداية مع الدولة الموحدية التي أقطعتهم بلاد حمزة البويرة وبني حسن من أراضي بجاية فاستقروا هنالك وكونوا حصنا

1- المصدر السابق3 ص1030 انظر أيضا أبو ضيف المرجع السابق ص163

منيعا لحماية الدولة الموحدية أمام كتامة[1] وزواوة[2] كما تطلعوا بمسؤولية حماية الأراضي المحيطة ببجاية لصالح الموحدين[3].

وعندما تأسست الدولة الزيانية ومدت نفوذها إلى المغرب الأوسط اضطر يغمراسن الى نقل حميان وهم فوج من بني يزيد إلى المنطقة المجاورة لتلمسان[4] فتنقل معهم بنو يزيد واستقروا بالأراضي التي تقع غرب أراضي بني يزيد أي جبال تيطري نواحي المدية وجنوبا المناطق التي يسكنها الشعانبة.

بنو مالك الذين كانوا أحلافا مع العطاف والديلم وبني بادين من زناتة وقد ربطتهم علاقة طيبة ببني عبد الوادي قبل تأسيس دولتهم وقد عرف عن بني مالك فيما بعد طاعتهم وولائهم للدولة[5] السويد[6] ينتسبون الى مالك بن زغبة وقد كانوا حلفاء العطاف والد يالم والبربر من بني واسين قبل تأسيس الدولة الزيانية والمرينية وعلى الخصوص في الفترة التي سيطروا فيها بني عبد الوادي على تلمسان وضواحيها[7].

1- عن كتامة وهي قبيلة أمازيغية انظر العبر ج6 ص301 ؛ ابن حوقل صورة الأرض ص93 القلقشندي نهاية الأدب في معرفة أنساب العرب القاهرة تحقيق الأبياري ص405 انظر أيضا قبال المرجع السابق ص97 ؛106

2- عن زواوة وهي فرع من كتامة انظر العبر ج6 ص262 ؛308؛ أبو ضبف المرجع السابق ص236

3- ابن خلدون العبر ج 6 ص 308

4- نفسه ج 6 ص 188

5- نفسه ج 6 ص90

6- تتألف قبيلة سويد من فليتة وشبابة والهبرة ومجاهر وجوثة والحساسنة لمزيد من المعلومات عنها انظر ابن خلدون العبرج6 ص95 ؛96

7- منهم أولاد عبد القوي بن حمدان وكانوا في عهد يغمراسن بن زيان تحت رئاسة أولاد عيسى بن عبد القوي لمزيد من المعلومات عنهم انظر ابن خلدون العبر ج6 ص 95 ؛96.

وقد اشتهر عرب السويد بمناصرتهم وولائهم للدولة الزيانية دون سائر بطون زغبة، مما جعل يغمراسن مؤسس الدولة الزيانية يتقرب من رؤسائهم ومشايخهم وخص منهم أولاد عيسى بن عبد القوي وأقام أحد أبنائه وهــو المهدي رئيسا على القبيلة كما قرب منه يوسف بن مهدي وأخاه عمر [1] وقــد أكرمهم باقتطاع البطحاء [2] وأسند لهم تلمسان وما جاورها عند خروجه إلــى الحرب وعلى الخصوص عمر بن مهدي.

وعندما تحالف السويد مع بنــي مريــن خــلال فتــرة حكـم السلطــان أبي عنان الذي أقطع شيخهم ونزمار بن عريف جزءا كبــيرا مــن أراضي بني توجين مثل السرسو والأراضي المجاورة له.

وفي نهاية القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي أصبح هؤلاء يسيطرون على كل الناحية التي كانت تابعة لبني توجين والمدن التي تقــع ضمن مضاربهم كما استولوا على خليج أرزيو والشط الشــرقــي ومجمــوع سهول سيدي بلعباس وفي القرن السابع الهجــري الثالــث عشر الميلادي استولوا أيضا على قلعة بني سلامة وقد كانت خاضعــة لهم عند زيارة ابن خلدون لها واستقراره بها فترة من الزمــن [3].

1- البطحاء تقع في سهل مينا وغير بعيدة عن قلعة بني راشد وكانت تلك الأراضي تابعة لقبيلة مغراوة ابن خلدون ج6 ص95؛96

2- ابن خلدون العبر ج 6 ص 96

3- الميلي المرجع السابق ج ص 159

يضاف الى هذه البطون السابقة عكرمة[1] والديلم[2] الذين ينحدرون من زغبة والجبهات التي كانوا يتمركزون بها، رويـنه جنـوب الونشـريس فـي الأراضي التي تقع الى يسار الطريق الذي يتجه من برج بـني هنـدل الـى تيهرت[3].

بالإضافة الى قبيلة عكرمة ،العطاف الذين لا تزال أثارهم بادية الى العـيان إلى يومنا هذا فمدينة العطاف إحدى دوائر ولاية عين دفلى تحمل اسم هـذه القبيلة العربية.

ويعود تاريخ استقرارهم بالمنطقة إلى القرن الثامن الهجري العاشر الميلادي وقبل هذه الفترة كانوا متواجدين بمليانة والمناطق الواقعة إلى الشمال منها خاصة جبل دراج[4].

هذا فيما يتعلق بزغبه أما رياح فقد استقروا بالسهول العليا الشرقية وأقاموا علاقات مع الزيانيين كبني بادين ولما فشل بنو عبد الوادي أمام المرنيين طلبوا النجدة منهم فاستقروا بجبل اشير[5] وملكوه.

1- ابن خلدون العبر ج 6 ص 100

2- نفسه ج 6 ص 89

3- الديلم كانوا متمركزين بالأراضي القريبة من كاف الرواد الذي يقع على طريق ثنية الأحد يقول باسي كانوا يستقرون في المنطقة الواقعة جنوبي ثنية الأحد

4- ابن خلدون العبر ج 6 ص 103

5 نقصه ج 6 ص 103

ومن بين القبائل العربية التي تقطن أراضي الدولة الزيانية المعقل[1] وكان عند دخول الهلاليين إلى المغرب الإسلامي قد توجهوا نحو المنـــاطق الصحراوية على الخصوص الجنوبية منها وتحالفوا مع الزيانيين ثم المرينيين الذين أدوا لهم يمين الولاء والطاعة لذوي منصور[2] وذوي عبيد الله[3] لما كانت مواقعهم متصلة ببني عبد الوادي وبصفة خاصة عرب المنبآت من ذوي منصور حسب ما أورده ابن خلدون [الذي قال عنهم أنهم كانوا حلفاء وشيعة ليغمراسن وقومه الثعالبة فهم بطن من عرب المعقل استقروا في البداية بجبل تيطري وبعد سيطرة القبائل الزناتية على الونشريس ابعدوا الى متيجة وعندما تمكن المرينيون من العطاف ومليكش استولى الثعالبة على مضارب صنهاجة بعد أن دب الضعف في هذه الأخيرة.

1- أشير مدينة حصينة أسسها زيري بن مناد الصنهاجي سنة937،324 عنها انظر ابن حوقل صورة الأرض ص85؛ البكري المصدر الساب ص169؛ ابن عذاري البيان المغرب ج1 ص283

2- 8عن المعقل انظر ابن خلدون العبر ج 6 ص 88

ذوي منصور بطونهم أربعة هم أولاد الحسي وأولاد أبي الحسن والعمارنة وأولاد عمران والمنبات وأولاد منبات لمزيد من المعلومات عنهم انظر ابن خلدون العبر ج 6 ص 131

ابن خلدون العبر ج 6 ص 124 ؛ أبو ضيف المرجع السابق ص 163

كان الثعالبة وحصين في عدد رعايا بني توجين يؤدون لهم المغارم ويساهمون بجنودهم في حروبهم ثم انتقلوا إلى جوار بني مليكش الصنهاجيين بسهل متيجة إلى أن سيطر بني مرين على المغرب الأوسط وقبضوا على مليكش فضعف هؤلاء مما جعل الثعالبة يسيطرون على سهل متيجة لمزيد من المعلومات على هذه الحوادث انظر ابن خلدون العبر ج 6 ص 126 ؛ الميلي المرجع السابق ج 2 ص 159

تعرف هذه القصور بمنطقة توات وأهمها تمنطيت انظر الحسن الوزان المصدر السابق ص 125

ابن بطوطة الرحلة ص 969

ابن خلدون العبر ج 6 ص 124

3- نفسه ج 6 ص 124

ومن بطون المعقل أيضا ذوي عبيد الله الذين كانوا مجاورين لبني عامر من زغبة وقد استقروا بين تلمسان ووجدة إلى مصب نهر الملوية بالقرب من البحر المتوسط وقاموا بالرحلة الى قصور توات وتوغلوا إلى أبعد من ذلك حيث وصلوا الى تيكرارين .

أما في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي فقد كان ذوي عبيد الله متواجدين في مدن الملوية والمناطق الساحلية حيث كانوا يجمعون الضرائب من قبيلة بني يزناسن وطرارة حتى حوض تافنا وسهول أنجاد وجبال تلمسان.

ومن بين بطون ذوي عبيد الله الحداج وتوجد مضاربهم على الحدود الجزائرية المغربية وبالتحديد جنوب غرب وجدة والدراج يتمركزون في الجنوب الشرقي لتلمسان وهي نفس المنطقة التي كانوا يقيمون بها خلال عهد الدولة الزيانية

وقد تحالف ذوي عبيد الله مع بني عامر وهم بدورهم كانوا يأخذون الضرائب على مدينة وجدة وندرومة كما استولوا على المناطق التي كانت تابعة لولهاصة وبني يزناسن وهم أبناء العمومة بالنسبة لبني يزناسن وهي إحدى بطون كومية وقد اتصل هؤلاء بيغمراسن وكان من بينهم موظفون في الدولة الزيانية مثل عيسى ابن موسى الذي ولاه مهمة الطواف بالليل على الحرس وتقسيم الأقوات على المقاتلين خلال الحصار المريني وتوجد مضاربهم بالمناطق الواقعة شرق حوض الملوية[1]

---

1 ابن خلدون العبر ج 7 ص 207

- **العلاقات بين القبائل العربية والدولة الزيانية :**

كانت هذه العلاقات تتراوح بين سلبا وايجابا في اطار المصلحة المشتركة وكان الهدف منها تأمين سلامة الدولة وردع أعدائها فقد لعبت هذه القبائل دور مهم في مد نفوذ الدولة وإبراز دور القبائل العربية في هذا الميدان وخاصة السويد وبني عامر.

فيما يتعلق بقبيلة السويد فنلاحظ أن علاقاتها خلال عهد يغمرسن بن زيان 633،1235/681 1282 تبدلت من الصفاء إلى العداء بسبب سوء التفاهم بينه وبين عمر بن مهدي بن طراد عرب السويد من المناطق التي أقطعهم إياها فانتقلوا الى جوار بني توجين الذين كانوا أعداء الدولة، ثم هادنوهم وتصاهروا معهم[1] .

أما أبو تاشفين الأول717،1317/737،1337 فحاول التقرب من سويد فلجأ الى شيخهم وزعين، قبيلتهم عريف بن يحيى الذي ربطته به علاقة سابقة نشأت منذ الصغر إلا أنه ما لبث أن انقلب عليه ويرجع ذلك إلى إتهام شيخ السويد بالتشبهه بالملوك في بعض تصرفاته والتي كانت مقصورة على أمراء الدولة الزيانية[2] .

إلا أن هذا التشبه لم يكن سببا مباشرا في هذا الانقلاب الفجائي وربما عاد ذلك إلى الصراعات التي كان يتخبط فيها البلاط الزياني مما أدى إلى مقتل أبي حمو موسى الاول1318/718 وتصفية أسرة آل الملاح ومما يؤيد وجهة النظر السابقة أن هلال الكاطالوني قد تآمر ضد عريف السويدي

1- نفسه ج 6 ص 97
2- نفسه ج 6 ص 99

من بـــني مرين سنة1320/720 انخرط تحت لوائهم وخلص لخدمته ونتيجـــة لذلك فإنّ هؤلاء قد تقربوا من بني عامر واحلوهم محلهم في خدمة الدولة ممـــا أجج نار العداوة بين سويد والدولة الزيانية[1].

وقد حاول السلطان أبو حمو موسى الثاني أحداث الصراع داخل قبيلة السويد لإضعافها عندما وافق على تعيين ميمون بن سعيد بن عثمان رئيسا للقبيلة[2] وأن رد الفعل من قبل أبي بكر ومحمد بن عريف كان سريعا حيث لحقا بقومهما ودبرا مؤامرة مقتل ميمون بعدها آلت رئاسة القبيلة إليهما[3].

وفي أوائل سنة1369،770[4] قدم محمد بن عريف على أبي حمو موسى الثاني فاستقبله بحفاوة وإحسان وأرسل مع الوزير عمران بن موسى اللحـــاق بأبي بكر لاستفاء الشرط الذي التزم به والمتمثل في إخراج أبـــي زيـــان مـــن مضارب سويد ولكن أبو بكر بن عريف لم يكن يثق في أبي حمو وهذه الأمثلة توضح العلاقة بين سويد والدولة الزيانية.

أما بنو عامر فقد وقفوا موقفا يدل على مدى تعصبهم، فعنـــدما سيطـــر بنو مرين على تلمسان سنة1298،698 تحالف معهم بنو عامر لذلك رجعـــوا وتركوا مضاربهم عند انسحاب بني مرين بعـــد مقتـــل أبـــي يعقـــوب يوسف1307،717 وعاشوا بأطراف افريقية غيـــر خاضعين للسلطان المرينـــي وبقوا مؤيدين لبني عبد الوادي.

1- نفسه ج7 ص219 يحيى بن خلدون بغية الرواد ج1 ص214؛ 215.
2- ابن خلدون العبر ج6 ص78 ؛ انظر أبو ضيف المرجع السابق ص125.
3- يحيى بن لدون بغية الرواد ج1 ص219.
4- نفسه ج2 ص274.

وعند عودة أبوحموموسى الثاني لتلمسان1359/760 كساهم جميعا على كثرتهم وقد قدرهم يحيى بن خلدون بثمانية آلاف فارس وقدم لشيوخهم الخيول بسروجها والأسلحة والجوائز كما أغدق عليهم من الأموال الشيء الكثير ولكن هؤلاء سرعان ما غيروا موقفهم من الدولة وخاصة عندما حاول سلاطين بني زيان التدخل في شؤون قبيلة بني عامر[1].

- **علاقة القبائل بعضها ببعض :**

أما عن علاقة هذه القبائل بعضها ببعض فقد نتج عنها استمرار الصراع القبلي كما حدث بين السويد وبني عامر وكان من بين نتائج الصراع انعدام الأمن لسببين:

اولا: علاقة الدولة بالبدو الرحل لأن الامتيازات التي منحتها الدولة لهذه القبائل جعلتها خطرا عليها

ثانيا: انتقال القبائل العربية إلى المناطق الشمالية ذات الخصوبة أدى إلى خلق نوع من الصراع في هذه المنطقة.

وإذا كنت ظاهرة الصراع قديمة في المغرب الأوسط إلا أنها في تلك الفترة أخذت بعدا جديدا وعمقا وكان أكبر بعد وقد كان لهذا الصراع ضعفا في الدولة وهو ما يؤكده المازوني بقوله فقد أصبحت يد السلطان لا تنال الخارجين على الأمن بل ضعفت عن مقاومتهم وردعهم وإنما أخذ يداويهم بالهدايا والانعام.

1- الميلي المرجع السابق ج2 ص163
كحالة القبائل العربية ج1 ص137

ويصف ابن خلدون الحالة التي وصلت إليها الدولة فيقول: [مازالت كما وصفناها مرارا العرب هم أبناء السهل وسلطة بني عبد الوادي لا تمتد اليهم بتاتا.

ويضيف ابن خلدون وافريقية والمغرب لما جاء إليها بنو سليم وبنو هلال منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها في ثلاثة مائة من السنين لحق بها وعادت مبانيها خرابا ما بين السودان الغربي والبحر الرومي[1].

ولعل ابن خلدون قد تأثر بمن سابقوه من الرحالة والمؤرخين المغاربة، على أن الميلي[2] يرى أن ما لحق بالمغرب من أمور يرجع إلى القيادات الصنهاجية التي لم تحسن السياسة وأنّ ما قاله ابن خلدون مبالغة في تقدير تلك الأضرار من جانبي المؤرخين المغاربة وأنّهم حملوا مسؤولياتها للهلاليين لأنّها كتبت من طرف دول بربرية ولم يكن للهلاليين حكومة تهتم بالدعاية السياسية لهم[3].

وتلقف الخيط جماعة من المستشرقين واستغلوا هذه الوضعية مما جعل كاريت يصف حركة انتقال العرب إلى المغرب الاسلامي في عهد الفاتحين المسلمين بأنها كانت كالإعصار الذي يقتلع الأشجار ويهدم المنازل وإن مع هذا في عهد الهلاليين فإن وصف العرب الفاتحين بذلك هو نوع من التجلي على الحقائق التاريخية[4].

1- نفسه ج 1 ورقة 15

2- ابن خلدون المقدمة ص 150 2الادريسي صفة المغرب ص 93 ؛103؛ 109؛ لمؤلف مجهول الاستبصار تحقيق أحمد مخار العبادي ص 154 ابن بطوطة تحفة الناظر دار صادر بيروت 1963 ج 1 ص 6 ؛9 التجاني رحلة التيجاني المطبعة الرسمية تونس 1958 ص 59

3- الميلي تاريخ الجزائر ج 2 ص 153

4- أبو ضيف المرجع السابق ص

كما أننا لا نطمئن الى ما يسوقه هؤلاء المستشرقين حول أثر الهلاليين ووصفهم بأنهم كانوا كالحريق الهائل يبتلع الأشجار والمساكن ويتركها رمادا تذروه الرياح على أن بعض المؤرخين أمثال جرمان عياش أنصف هؤلاء العرب الهلاليين بقوله [إن بعض المؤرخين الذين اعتمدوا على ما كتبه ابن خلدون عن عرب بني هلال وبني سليم أسرفوا في تعليل تفسير الأحداث وتطور الأحوال بالمغرب بفساد العرب المستمر منذ القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي وحتى القرن الحالي فليس من المعقول أن تسبب بعض القبائل القليلة العدد في انحطاط قطر عظيم مثل افريقية والمغرب الأوسط والأقصى وانحلاله وتخريبه لمدة عشرة قرون كاملة.

ليست تلك القبائل هي السبب الأساسي لما حدث ونأخذ هنا بكلام ابن خلدون حين يتعرض إلى الاضطرابات التي عرفتها افريقية وبلدان المغرب الأوسط والأقصى ، فابن الأثير يقول عن ثورة صاحب الحمار فإن القبائل التي كانت تأتيه كانت تأتي من أجل النهب والسلب وعندما لم تجد ما تنهبه وتسلبه توقفت عن المجيء اليه.

ويقول ابن خلدون عن نتائج ثورة ابن غانية أن هؤلاء أزالوا من متيجة أكثر من ثلاثين مصر، هذا بالنسبة لمتيجة ما بالك في بقية المناطق الأخرى.

ويقول عن بلكين بن زيري إتجه غرب المغرب الأوسط وأفرغه من سكانه وكاد أن يزيل زناتة من الوجود.

كما يلاحظ أيضا أن دور العرب خلال هذه الفترة مرتبط بالظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية السائدة آنذاك.

والتاريخ أكد لنا أن العرب كانوا يميلون إرتياد المراعي والمياه وأن معاشهم كان في الإبل وأنها أكثر طعنا وأبعد في القفر وهي لا تعتمد في حياتها على التلول ونباتها وشجرها فقط بل قوام حياتها مراعي الشجر في القفر وهو نفس ما لجأت اليه قبائل زناتة ومعنى ذلك أن هؤلاء البدو لم تكن لهم حاجة في المناطق الساحلية ولا مدنها إلاّ أن حركة الأحداث السياسية لهذه الدولة أو تلك من دول المغرب الاسلامي ومنها الدولة الزيانية هي التي كانت ترى في فروسية القبائل العربية درعها الواقي.

فإذا أضفنا الى ذلك أن وجود هؤلاء البدو في أراضي بني زيان كان لهم دورا بارزا في حركة التعريب وهو ما يؤكده شارل أندري جوليان فيقول [إن الاستعراب في نواحي الجزائر كلها ولكنه في إقليم وهران أعم منه في أي موضع آخر.

ولقد ساعد تجاور البربر العرب وعلى الخصوص القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي أن يستبدل البربر لغتهم باللغة العربية].

ولعل التقارب والامتزاج بين العرب والبربر كان أساسه قوة العقيدة الاسلامية التي وجـدت بين العناصر العربية والبربرية وهو ما أكـده جاك بيرك حيث قـال [أصبح الكلام بالعربية هو صفة من صفة المسلم].

فاستقرار السويد في المناطق التي كانت تابعة لبني توجين كان من بين نتائجه تخلي سكان تلك المنطقة عن اللهجة الامازيغية وانتشار اللغة العربية وينطبق هذا على الأراضي التي استولى عليها بنو عامر والثعالبة وذوي عبيد الله والمعقل وهو ما جعل شارل أندري جوليان يعلق على ذلك بقوله أن عرب المغرب ليسوا في الغالب سوى قبائل زناتية وأن ذلك ليس جديد على هؤلاء

العرب فقد كانت البادية هي المدرسة الأولى التي تعلم فيها أبناء المدن في جزيرة العرب قبل الاسلام الفصاحة من ذلك لكن حسب أحد المؤرخين الجزائريين أن تلك الفصاحة فقدتها القبائل العربية في الجزائر نتيجة للاختلاط بينها وبين القبائل البربرية.

- **ثانيا: القبائل العربية:**

هذا فيما يتعلق بالقبائل البربرية الزناتية، أما القبائل العربية فقد اغتنموا ضعف بني توجين ومغراوة وبني راشد نتيجة للحروب التي عرفتها الجهة الغربية من القطر الجزائري أو ما كان يعرف بأراضي الدولة الزيانية و هذا سهل مهمة القبائل الهلالية للسيطرة على مضاربهم و فرض إرادتها على من بقي منهم و هو ما يبرزه السليماني بقوله: "سكنت قبائل زناتة تحت سيطرة العرب بعد ما كانت في مجالاتها من التلول والآكام وبما تأتي أيام المصيف في كل عام لأخذ المغارم والأتاوات بطرق معلومة وشروط في عهد الموحدين مرسومة، حتى نزلوا التلول والسواحل وملؤوها بالخيام والرواحل واستوطنوا المدن والعواصم واستبدلوا وحش الغلاة بالسوائم".

هذا النص الذي أورده السليماني يمكن أن نستنتج منه ما يلي:

أ/ أن القبائل الزناتية التي اغتنمت الضعف الذي عرفته الدولة الموحدية نتيجة لثورة بني غانية ومعركة العقاب في الأندلس سمح لها بالسيطرة على السهول الممتدة ما بين وادي ملوية إلى جزائر بني مزغنة ودخلت فيما بينها في صراع خلال القرن الثامن الهجري والتاسع الموافق للقرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين فأدى إلى ضعفها وسهل مهمة القبائل العربية في استغلالها.

ب/ أن تلك القبائل العربية خلال عهد الدولة الموحدية كانت تعتمد في حياتها الاجتماعية على حرفة الانتقال بين الواحات الصحراوية والتلول وخلالها تقوم بعملية المبادلات التجارية مع تلك المناطق ثم تشارك في جمع المحاصيل الزراعية.

لكن عندما حدث الضعف في قبائل زناتة ودولها دفع القبائل العربية إلى تغيير نمط معيشتها ففضلت الاستقرار بتلك المناطق التلية والساحلية بعد أن تحصلت عليها نتيجة للإقطاعات التي منحتها إياها الدولة المرينية والزيانية ولم يتوقف بها الأمر عند هذا الحد فقط ،بل نجد البعض من بطون بني هلال قد استقروا بداخل المدن كتلمسان وغيرها من المدن التابعة للدولة، وتوقفوا عن الترحال بين التلول والواحات الصحراوية كوادي الساورة وإقليم توات.

يربط السليماني بين ضعف قبائل زناتة و قوة بني هلال لتخلي الزناتيين عن الحروب وفي هذا الصدد يقول أيضا : ألفت قبائل زناتة اللهو والراحة واستبدلوا مزاولة الغارات بالكسب والفلاحة.

فهذا النص يوضح لنا أسباب ضعف القبائل الزناتية زيادة على الغارات التي كانت قد ألفتها من قبل عندما كانت قبائل رحل متنقلة، لكن عندما زاولت النشاط الفلاحي اندفعت للإستقرار والتوقف عن الغارات للحصول على ما تحتاج إليه في معيشتها.

هذا فيما يتعلق بالفريق الأول من القبائل العربية الذين فضلوا الإقامة على الرحلة بين التلول والواحات الصحراوية. لكن الفريق الثاني نافسوا القبائل البربرية وزاولوا مثلهم النشاط الفلاحي المتمثل في تربية المواشي وزراعة

الأراضي، هذا العمل هو الذي تسبب في الصراع بين القبائل العربية والبربرية الذي أشار إليه مرارا المازوني من خلال كتابه الدرر المكنونة في نوازل مازونة عند تعرضه إلى الغارات التي كانت تشن من قبل بني عامر[1] وسويد[2] الذين استقروا بمضارب الزناتيين وأرغموهم على ترك مضاربهم والاعتصام بالمناطق الجبلية مثل جبل ونشريس[3] وجبل بني ورنيد وجبل مطرارة ومطغرة وبني بوسعيد وبني سنوسن وما بقي في السهول فرضت عليهم الضرائب وفـــي هذا الصدد يذكر السليماني "واحتلوا شعوب زناتة في سهولها وجبالها وأوديتها وشواطئها وأرغموها على الاستكانة إليهم والدخول في حملتهم حتـــى لم يبق للزناتيين أعز وصار خبرهم حديث السمر".

- تغييـــر مضـــارب القبـــائل:

وعن تحول مراكز القبائل البربرية لصالح القبائل العربية نذكر أن الخريطة السكانية للدولة الزيانية أدخلت عليها تغييرات جذرية تمثلت فيمايلي:

- حـــوض الشلـــف:

منطقة حوض شلف كانت من قبل خاضعة لبني توجين ومغراوة الذين كانوا يسيطرون على المنطقة الممتدة من مدينة المدية إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط حيث شمل نفوذهم تلك السهول الخصبة المتمثلة في حوض شلف والسرسو وغريس وغيرها من الأراضي التي تتميز بالجودة في الانتاج، فتم توزيعها بين هذه القبائل فالسويد استولوا على تلك الأراضي بينما بقايا

1- عن بني عامر بن زغبة ، انظر ابن خلدون ، العبر ، مجلد 6 ، ص:85.
2- وعن سويد، انظر ابن خلدون، العبر، مجلد6، ص:95.
3- جبال الونشريس تقع ضمن ولاية شلف و هي من أبرز جبال سلسلة الأطلس التلي،انظر حليمي جغرافية، الجزائر ص:216
أبوراس: عجائب الأسفار ، ورقة 57.

مغوارة فضلوا المناطق الجبلية وعلى الخصوص الجبال المجاورة لساحل البحر المتوسط الممتدة من تيبازة إلى مستغانم[1] حافظوا على اللهجة الزناتية بينما الذين بقوا بالسهول الخصبة تأثروا بالقبائل العربية فتخلوا عن لهجتهم وتمسكوا باللغة العربية. وما يقال عن هؤلاء ينطبق على بني توجين الذين استبد بهم حصين بن زغبة فسيطروا على الأراضي المجاورة للمدية أو ما كان يعرف بتيطري والثعالبة بسهول متيجة بعد إبعاد مليكش[2].

- النواحـــي المجـــاورة لتلمســـان:

هذا فيما يتعلق بالأراضي الشرقية من عاصمة الدولة أما النواحي المجـــاورة لها فقد تعرضت هي الأخرى إلى تأثير من قبل القبائل العربية وهـــذا منـــذ تأسيس الدولة، لكن في مرحلة قوتها حافظت على التوازن بين عرب زغبة الذين استدعوا من قبل يغمراسن والقبائل الزناتية وعلى رأس هؤلاء بنو عبد الوادي وكومية الذين لعبوا دورا في أعز قوة الدولة، لكن عندما ضعفت خضعوا لبني عامر وفي هذا الصدد يقول السليماني[3] استبد بنو عامر بهذه النواحي.

وإلى الجنوب من هذه المناطق استقر بنو يزيد[4] من قبيلة حميان الهلالية، وعلى الخصوص في المنطقة الممتدة ما بين منابع وادي صا غربا إلى بجاية حيث موطن رياح و سليم من بني هلال.

1- أبوراس: عجائب الأسفار، ورقة 58.

2- ابن خلدون، العبر، مجلد6 ، ص:90 ، انظر الميلي، المرجع السابق، ج2 ، ص:163.

3- قلعة هوارة نسبة إلى هذه القبيلة و تعرف أيضا بقلعة بني راشد نسبة إلى بني راشد التي انتقلوا إليها من جبل عمور الذي يعرف بجبل بني راشد.

4- عن المعقل، انظر الحسن الوزان، المصدر السابق، ص:13

لكن هذا التوسع الهلالي في هذه المناطق لم يقض على ما بقي من القبائل البربرية فقد استمر تواجد الزناتيين في غريس حيث تحول اسمهم إلى الحشم في الناحية الممتدة ما بين جبال أو سلاسن جنوبا إلى قلعة هوارة[1] وبني شقران شمالا ومن قلعة سعيدة وموانئ الصحراء إلى بسيط سيق ووادي الحمام غربا إلا أن هؤلاء تأثروا بالهلاليين فتعربوا.

- **الجهـــة الغـــربيـــة:**

أما الجهة الغربية فقد تاثرت بالمد الهلالي فالأراضي الموجودة بين تلمسان ووادي صا خضعت لعرب المعقل[2] ذوي عبيد الله الهداج والخراج من النبات ويطلق على جميعهم عرب الأحلاف.

وقد امتد نفوذهم إلى المدن المتواجدة بالناحية كوجدة و ندرومة وهنين فأصبحوا يضيقون عليهم وفرضوا إرادتهم على سكان جبال بني يزناسن.

- **القبـــائـــل العـــربية:**

- **أولا:**

من أبرز القبائل الهلالية، بنو عامر الذين لعبوا دورا هاما مما جعلهم يلجأون إليها في حالة الهجوم على مضاربهم من قبل القبائل المعادية للإسبان.

وشدتهم على إخوانهم المسلمين لا تقل عن شافع أما القبائل البربرية فمـــن أبرزهم قبيلة كرشتل[3] انتقلت هذه القبيلة من مـــضاربها إلـــى أرض متـــوعرة بساحل البحر، فوجدوا بتلك الناحية إحدى بطون بني زيـــان الـــذين ضـــعفت

1- السليماني، المصدر السابق، ج3 ، ورقة

2- ابن خلدون، العبر، مجلد 6 ، ص:301.

3- المشرفي، بهجة الناظر، في إطار الداخلي تحت ولاية الإسبانيين مخطوط

شوكتهم بضعف الدولة الزيانية فأجلوهم من تلك الناحية وحلوا محلهم و شيدوا مداشرهم[1]. وعندما استولى الإسبان على وهران تحالفوا معهم وكلفوا بالتجسس لصالحهم مما جعل المؤرخون يطلقون عليهم المغاطيس أي تغطيس[2] الناس ويحكى أنهم غطسوا إمامهم الذي كان يصلي بهم فباعوه للإسبان غفلة منه.

أما الطريقة التي كانوا يتبعونها فتتمثل فيما يلي:

أولا: أنهم يأتون بدوابهم إلى الدواوير كبائعين للعطرية ومنهم مناقطة من الجلود الفلالية، فإن وجدوا خيرا جلبوه للنصارى وإذا رأو فرصة في الصغير أو الكبير أخذوه وجلبوه على دوابهم ومشوا به ليلا فيبعونه للإسبان[3] ».

- **بطونهم:** من أبرز بطونهم:

* **أولاد عبد الله:** كانت مناربهم بوادي الثلاثاء من ملاتة يتميزون بالرحلة وهو ما جعل المشرفي يعلق عليهم بقوله: « لهم جولات عظيمة بالأرض». كما عرفوا بتعاونهم مع الإسبان وخضوعهم لهم حيث كانوا يدفعون لهم الضرائب[4].

* **أولاد علي:** لا تختلف سياستهم عن بقية القبائل المجاورة لتلك المراكز وكان دورهم يتمثل على الخصوص في حركة الجوسسة عكس البطون الأخرى التي شاركت بقوتها في الجيش الإسباني وقد علق عليهم المشرفي فقال فكان منهم من تطلع على عورات الإسلام والأخبار بهم الكفرة ولهم على المسلمين كما

1- نفسه ورقة 15

2- المرازي: سعد السعود، ج1، ص123

3- المشرفي، نفس المصدر، ورقة 16.

4- قلعة هوارة نسبة إلى هذه القبيلة و تعرف أيضا بقلعة بني راشد نسبة إلى بني راشد التي انتقلوا إليها من جبل عمور الذي يعرف بجبل بني راشد.

كان بينهم المنحشون والمغطســـون والرقاقصة وسائر ما فيه الضر بالمسلمين والنفع للإسبانيين"[1].

وقد تمكنا في آخر زيارة لنا لإسبانيا من الإطلاع على أربع وثائق تتعلق بحركة الجوسسة التي كانت تقوم بها تلك القبائل لصالح الإسبان ولم يرد في الوثائق السالفة الذكر اسم الشخص ما عدا ذكر القبيلة التي ينتسب إليها.

*** حميـــان:**

يضاف إلى بني عامر قبيلة حميان[2] التي توجد مضاربها بأرض الحفرة وما ولاها وعددها يزيد على ثلاثين دوارا كانوا يقدمون النصائح للإسبان وهو ما دفع المشرفي أن يعلق عليهم بقوله « أن شيخ حميان[3] هو الذي دبر على الإسبان بناء حصن مرجاجو ولكنهم قتلوه ووضعوا جثته في أساس بناء الحصن.

*** بنو شـــافع:**

ومن بين القبائل بنو شافع[4] الذين كانت مضاربهم بالعين البيضاء وسهل ملاتة وجبال سيدي سعيد، عرفوا خلال هذه المدة بالشدة مما جعل الإسبان يتقربون منهم ويعتمدون عليهم في مواجهة القبائل المعارضة لهم وقد عـــلق عليهم المشرفي بقوله: أهل نجدة وبأس شديد وقتال عنيد تقوت بهم الجيوش الإسبانية.

1- عن المعقل، انظر الحسن الوزان، المصدر السابق، ص:13. نفسه، ص:26

2- المزاري المصدر السابقص23 ابن خلدون، العبر، ج6، أبوراس، عجائب الأسفار.

3- الزياني ، دليل الحيران ، ص 146 .

4- أبوراس، المصدر السابق ، ورقة 147.

* قيــزة:[1]

وقد ورد ذكره في بعض المصادر باسم حيذرة نسبوا إلى بني عامر ومساكنهم بوادي تارقة لكن عندما التحق بهم الونازة تركوا مضاربهم إلــى ملاتة فاستوطنوا نواحي تمزغرت ووادي العسول:

من أهم الخدمات التي قدمها هؤلاء لصالح أعداء الدولة الزيانية ماَيلي:

أ/ عملية الجوسسة، إذ كانوا ينقلون معلومات عن تلك القبائل الموالية للزيانيين أو العثمانيين لصالح المراكز الإسبانية وهو ما جعل المشرفي يقول «فكانوا عيونهم البصيرة »[2].

ب/ استعمالهم في شن الغارات على تلك القبائل وفي هذا الصدد يقول المشرفي اعتدوا بهم وأكثروا من شن الغارات على الأقربين والأبعدين، كما أن النواحي المتمركزين بها قريبة من الأبراج المحيطة بوهران مما جعلهم يلجأون إليها في حالة الهجوم على مضاربهم من قبل القبائل المعادية للإسبان.

أما أبوراس فقد علق على التقارب بين الإسبان وبني عامر فقال لما تغلب الإسبان على مدينة وهران واتخذوها دار قرار واطمأنت بهم الــدار ورغــب العرب في عرضه الفاني فانحاز إليه كل قيود على نفسه مثل كيسة وحميــان وبنو عامر من كل ضعيف الإيمان ولما صاروا هم شيعة قويت بهــم شــوكة الإسبان وكانوا عيونه على المسلمين يشق بهم الغارة على الأبعــدين فيقــتحم حللهم ودورهم ويدوس عامرهم ومعمورهم مثل الحشم وبني راشد ونحوهم من بعد وطنه يؤدون الإتاوة وأخرى يظهرون العداوة.

1- نفسه ، ورقة 149.

2- المشرفي، المصدر السابق ، ورقة 13 .

الذي يستفاد من نص أبي راس ما يلي:

أ/ أن التقارب الذي حدث بين القبائل القريبة من وهران والإسبان مرتبط بالجانب المادي، إذ كان الإسبان يغدقون على هؤلاء الأموال مقابل الخدمة التي تقدم لهم عن أعدائهم.

ب/ استعمالهم في الحروب ضد القبائل المعارضة لهم وقد استغلوا في ذلك الصراع القبلي الذي عرفته الدولة الزيانية بين القبائل العربية والبربرية فكانوا يغيرون على الحشم وبني راشد الموالين لهم كالأتراك وأحيانا الدولة الزيانية.

- ثانيا: القبائل البربرية:

إضافة إلى القبائل العربية التي سبقت الإشارة إليها وكانت مضاربها بالقرب من مراكز الإسبان الذين تحالفوا معهم فإن هناك قبائل بربرية قامت بالدور نفسه ومن بين هؤلاء:

كرشتل[1]: هذه القبيلة انتقلت مضاربها إلى أرض متوعرة بساحل البحر ووجدوا بتلك الناحية إحدى بطون بني زيان الذين ضعفت شوكتهم بضعف الدولة الزيانية فأجلوهم من تلك الناحية وحلوا محلهم وشيدوا مداشرهم[2].

- ثانيا: الجاليات الأجنبية

تتألف الجاليات الأجنبية في أراضي الدولة الزيانية من مجموعة من العناصر المختلفة من حيث الدين والثقافة فالعنصر الأندلسي المهاجر من

1- عرف العرب الذين تعاملوا مع الإسبان بعرب دمليون و هم أولاد عبد الله سموا بذلك لأنهم كانوا يطلبون منهم العدد الكثير فيقول أحدهم للنصارى دمليون بمعنى أيها الرومي أعطونا عشرة ملايين أبى عدد كثير فيه عشرة ألف دينار، انظر عبد القادر المشرفي بهجة الناظر ورقة 16 ا..

2- حساني، الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للدولة الزيانية رسالة دكتوراة،الحلقة الثالثة، الجزائر 1986، ص:66-95.

الأندلس والعنصر اليهودي الذي وفد مع المهاجرين المسلمين والتقى بزملائـــه المستقرين بهذه المنطقة من قبل والعنصر الثالث هم النصارى المجلوبين، إمـــا كعبيدا وجنود مرتزقة أو تجار[1].

- **الأنـــدلسيـــون:**

يعتبر العنصر الأندلسي من أهم العناصر مما كان يشغله في الجانب الفكري والتأثير الإقتصادي والإجتماعي[2].

أما الهجرة الأندلسية فقد بدأت مع بداية ضعف المسلمين في الأندلس، وتوسع النصارى على حساب المراكز الإسلامية مثل قرطبة التي سقطـــت ســـنة633هـــ،1235م وبالنسبة ســـنة636هـــ 1238م ومرسيـــة 666هـــ، 1266م مما جعل سكان تلك المدن يتوجهون إلى غرناطـــة أو مـــدن دول المغرب الإسلامي كتلمسان.

وهناك مجموعة من الأندلسيين قدموا من غرب الأندلس نحو أراضي الدولة الزيانية بعد سقوط إشبيلية سنة 646هـــ،1248م وخلال الصراع بين دولة بني ناصر ومملكة أراغون وغيرها من دول شبه جزيرة إيبيريا بإسبانيا المجاورة لبني ناصر ،نجد عددا من الأندلسيين توجهوا نحو أراضي الدولة الزيانية وأغلبهم استقروا بمدنها كوهران ومدينة تلمسان البعض الاخر فضل الهجرة إلى مضارب القبائل كبنى راشد الذين كانوا معارضين الاحتلال الاسباني، مما جعل الاندلسين يقودون معهم المقاومة ضد العدو المشترك، بيسا

1- ابن خلدون، العبر، مجلد7، ص:174، ابن خلدون،يحيى، بغية الرواد،ج1، ص:206، بوعياد، جوانب من حياة المغرب، ص:66.

2- حساني الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للدولة الزيانية ، ورقة 71.

البعض، يبدو أنه فضل الانتقال إلى الجزائر بعد تأسيس الدولة الجزائرية الحديثة نظرا للمكانة التي أصبح عليها الأندلسين في هذه الدولة المسلمة فقد وجدنا في كتب التراجم أن بعض أفراد الجالية الأندلسية كانوا مستقرين بمضارب الحشم في أم العسكر محافظين على عاداتهم وتقاليدهم وعلى الخصوص الرفاهية في الطعام واللباس وفي هذا الصدد يذكر العربي المشرفي في كتابه الياقوتة الوهاجة الأندلسيين الذين هجروا من الأندلس واستقروا بريف الدولة الزيانية فقال: «شرفاء الأندلس فرقهم ،حمدون وبنو حمدون وبنو مرون وبنو سلطان وبنو القاسم وبنو أبي بكر وبنو عبد الرحمن وبنو محمد بن عمر الشريف وهذه الفرق المذكورة انتقلت فروعهم إلى الثغور المقابلة بالأندلس فمنهم من انتقل إلى القـــيروان وتونس واحوازها ومنهم من انتقل إلى الساحل الريفي وإلى جبل الكواكب وجبال ترارة وتهامة بإزاء تلمسان ومولين منهم الثغور حال نزولهم بها وامتدت فروع بني حمود إلى الساحل الوهراني والمستغانمي وإلى ازريو وبنو سلطان استواطنوا الجزائر وتفرعوا في ساحلها وهم أحفاد أبي العباس ويقال لهم شرفاء الترك" كما وجد البعض منهم في مجاجة[1] حيث لعبوا دورا مشرفا في نسيج الكتب وقد وجدنا خلال زيارتنا لمدينة معسكر والزوايا المجاورة لها بعض النسخ نسخها أفراد من الجالية الأندلسية أحدهم ينتسب إلى عائلة العالم الجليل ابن عاشر الأندلسي.

كما ذكرت كتب التراجم بعض علماء الأندلس الذين استقروا في مازونة ومستغانم ووهران وتلمسان ونستعرض لهذا بالتفصيل في موضوع الجالية

1- مجاجة التى تقع الآن ضمن ولاية شلف كانت تعتبر من أهم المراكز الثقافية في المنطقة خلال هذه الفترة ويتجلى ذلك من العلماء الذين نسبوا إليها أو تخرجوا منها السليماني، المصدر السابق ج3، ورقة103.

الأندلسية أما الذين دخلوا تلمسان، فتقربوا من سلاطينها وهو مـا جعـل السليماني يعلق على ذلك بقوله لما تولى أبو عبد الله عبد الواحد استظهر علـى أمره بطانه من جالية الأندليس فرجوا به في مضايق الحضارة والانغماس في النعم حتى صرف الأموال في شهواته.

أما المرحلة الثالثة فكانت في نهاية القرن9هـ،15م بعد سقوط غرناطة وقـد عاصر ذلك تولى تلمسان الأمير أبوالعباس أحمد بن أبي زيان فاستقبـل المهاجرين الأندلسين الذين نزل البعض منهم في تلمسان والجزائر وبجايـة وندرومة وهنين وغيرها من أراضي الدولة الزيانية[1].

أما من قصد منهم تلمسان فانقسموا حسب المكانة الاجتماعية فالعلماء وأهل بيوتات الأندلس نزلوا بداخل المدينة ،وأما بقيتهم فأنزلهم بوادي لوريت خارجها فاتخذوا قرى لسكناهم واظهروا هناك من صنائعهم ومتاجرهم ما كان بالنفع على البلاد وأهلها وميلوا تلك الشعاب بالبستاين المتنوعة الثمار وأنواع الرياحين والأزهار واتصلت مساكنهم بذلك الوادي الى نهر الصفيصف فأقامـوا به عمارة بقيت أثارهم بتلك الشعاب العميقة ذات الأدراج والحياة المترفة، وامتدت مساكنهم الى جبل يدو حيث زاوية الشيخ أحمد بن الحـاج بـن محمـد بن على المناوي المتوفي سنة 930هـ.

فهؤلاء المهاجرون الذين استقروا بوادي الوريت لم يكونوا عالة على المجتمع الزياني بل زاول كل واحد مهنته وفضل الحصول على قوته وجهده مما دفع بهم إلى بناء مسكانهم ولا تزال أثار تلك المساكن ماثلة للعيان على ضفاف وادي الوريت، لكن الحروب التى عرفتها الدولة الزيانية خلال

1- السليماني ، المصدر السابق ، ج3 ، ورقة 104.

القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي دفع ببعضهم إلى الدخول. لصالح الدولة الجزائرية وتخليهم عن التبعية للتاج الإسباني.

أولا/ العبيد: إن استعمال هؤلاء قد اختلف بين عصر القوة وعصر الإنهيار فالأول كانت الدولة الزيانية في أعز قوتها وتملك قوة استطاعت من خلالها المحافظة على سيادتهما وقمع أعدائها وهذا ماجعلها توسع من عناصر قوتها فأدخلت العنصر المسيحي للاستفادة منه وهذا في رأي يعتبر من نقاط الضعف لأن هؤلاء كانوا مرتبطين بدولهما أكثر من ارتباطهم بالدولة الزيانية[1].

أما في مرحلة الانهيار فقل عدد الجند و تقلصت مساحة الدولة وازداد الصراع بين أفراد الأسرة الحاكمة، كما أن احتلال الاسبان لكل من وهران والمرسي الكبير جعلهم يفضلون أن يكون عمل هذه العناصر داخل الجيش الاسباني بدل الجيش الزياني لعدم استقرار مولاة أمراء بني زيان لصالح التـــاج الاسباني.

ثانيا/ التجار: فيما يتعلق بالتجار فخلال العصر الذهبي للدولة الزيانية كانوا ينتسبون لمجموعة من الدول المسيحية التى تقوم بالمبادلات التجارية مع الدولة الزيانية ولكل دولة قنصل ينظر العلاقة بين تجارها و الدولة الزيانية، لكن بعد ضعف الدولة الزيانية وسقوط وهران والمرسى الكبير أثّر على هؤلاء التجـــار فانعدم الأمن، مما جعلهم يتعرضون للتصفية الجـــسدية كمـــا حـــدث لتجـــار القيصرية بتلمسان الذين هاجم عليهم سكان تلمسان بمجرد وصـــول الطلائـــع الأولى لمهاجري وهران بعد سقوطها بيد الاسبان ســـنة 915هـــ، 1509م وزاد نفوذهم بعد احتلالهم لها ولكن الاسبان بعد فترة زمنية قـــصيرة انتبهـــوا

---

[1] الجامعي،فتح مدينة وهران،مخطوط بالمكتبة الوطنية ، رقم 2521 ، ورقة 9 .

نخطورتهم فابعدوا عن وهران وعلى الخصوص الحصن الذي يعرف بحصن اليهود[1].

الجالية اليهودية:

ومن بين الذين تعرضوا لتوزيع اليهود، الحسن[2] الوزان الذي ذكرلنا بأن عدد من اليهود قد نزلوا بعد فرارهم من الأندلس وصقلية في الجرارة وتوات وكانت الأولى في مفترق الطرق حيث كانوا يرافقون القوافل التجارية المنطلقة من الجزائر وتلمسان نحو السودان الغربي. كما وجدت جالية يهودية في كل من بسكرة وتقرت لها علاقة بإخوانهم في المدن التابعة للدولة الزيانية كمدينة الجزائر التى كانت بها مدرسة لتعليم التوراة. اغتنم اليهود ضعف امراء الدولة الزيانية فتسربوا الى داخل المدينة تلمسان وأقاموا لهم حيا مجاورا للمنشور وقريبا من الحي التجاري القيصرية التى يبدو أن مجموعة كبيرة من مخازنها ودكاكينها كانت للجالية اليهودية، إلاّ أنها عانت من الفوضى التى عرفتها مدينة تلمسان حيث نهبت ممتلكاتها مرارا.

لم يقتصر ازدياد النفوذ على تلمسان بل شمل أيضا قلعة بنى راشد حيث كانوا يحتكرون النشاط التجاري ويقطنون خارج أسوار القلعة وكانوا متواجدين بها خلال الحملة التى قادها عروج ضد تلمسان. فذكر الصباغ بعض الحرف التى كانت تزاول من قبلهم زيادة على التجارة صناعة الصابون.

1- de Faurce: (Ch) l'Espagne Catalane et le Maghreb PP 136-137

- نفسه، ج3 ، ورقة 106 (3) يبدو ان تواجد هؤلاء سبق قيام الدولة الزيانية بل يعود الى عهد المرابطين فالقوه العسكرية المرابطية التى واجهت الموحدين كانت بقيادة احد المسيحيين، انظر، ابن عذاري البيان، ج5 ، ص136 .

2- الحسن الوزان، المصدر السابق، ص9 .

يضاف إلى القلعة مدينة وهران التى وجدوا بها. وقد عرفت وهران كغيرها من مدن بني زيان تواجد هؤلاء اليهود بعضهم من يهود المغرب بينما البعض الآخر قدموا إليها من الخارج ويتجلى لنا ذلك من خلال ألقابهم التي نشرتها الوثائق الإسبانية منها نغورة وطورينو وتونستو وزميروا العائلة الأخيرة لها أقارب بارمبور وأسفي واليهود الأندلسيين أغلبهم هاجروا الى أراضي الدولة الزيانية من الأندلس حسب المراحل التى تعرضنا لهـا بالنسبة للاندلسين، فكانوا يرافقون هؤلاء الى دول المغرب الاسلامي لموقف الاسبان منهم، لأنهم اتهموا بتعاونهم مع المسلمين خلال الفتوحات الاسلامية للأندلس، لكنهم يختلفون عن الأندلسيين بالاستغلال الذي يأبى المسلم أن يشارك فيه في كثير من الأحيان مثل تجارة الرقيق (النخاسة) التي كانت فـي عصر قوة الدولة الزيانية مقتصرة على الزنوج القادمين من افريقية، لكن في مرحلة ضعف الدولة امتدت إلى سكان الدولة من الغرب والبربر فكانوا يتاجرون فيهم وعلى الخصوص الذين يقعون أسرى بيد الجيوش الاسبانية. كما شاركوا في المعاملات الربوية التى تستعمل الطوائف الاجتماعية وما اكثرها في المرحلة الأخيرة من حياة الدرلة الزيانـيـة، لأن نفوذهم وانتشارهم قد ازداد على ما كان عليه في عصر قوتها، حيث كانت الأغلبية منهم متواجدة في مفترق الطرق التجارية. ومن أهم تلـك الأماكن التى تواجد فيها هؤلاء، درعة التى تعتبر من أهم الأسواق التجارية التى يتوافد عليها تجار الدولة الزيانية، ولذلك سوق سجلماسه وان يهودهـا كانوا على علاقة مع إخوانهم بتلمسان.

ثالثـــا/ العبيـــد: فيما يتعلق بالعبيد نجد هناك نوعين:

- **الأول:** الذين وصلوا إلى أراضى الدولة الزيانية نتيجة للمبادلات التجارية بين الدول الأوروبية والدولة الزيانية، وقد كان عددهم كبيرا خلال العصر الذهبيي للدولة الزيانية وقد استعمل البعض في الأنشطة الصناعية كـما حدث في عهد السلطان أبى حمو موسى الثاني.

- **ثانيـــا:** الأسرى زاد هؤلاء بعد سقوط الأندلس نتيجة لحركة الجهاد البحري التى كان يقوم بها سكان مدن الدولة الزيانية بمساعدة الجالية الأندلسية. ومن بين المدن التى يتوجد بها هؤلاء، وهران والمرسى الكبير قـبل احتلالهما ثم تلمسان، حيث نصت المعاهدات التى أبرمت بين الدولة الزيانية والاسبان على اطلاق سراح هؤلاء.

- **ثالثا: الطبقات الاجتماعية:**

عرف المجتمع الزياني كغيره من المجتمعات الاسلامية المعاصـــرة لـــه الطبقية نتيجة للظروف السياسية والإقتصاية والثقافية فحســـب مـــا أورده ابـــن خلدون[1] أن وضع الطبقات مراتب، فيها طبقة بعد أخرى حتى ينتهي فـــي العلو إلى الملوك الذين ليس فوقهم يد عالية وفي أسفل إلى من لايملك ضرا ولا نفعا بين أبناء جنسه وبين ذلك طبقات متعددة. كما أن هذه الطبقات تختلف بين سكان المدن والقرى من حيث عددها ونوعيتها بين القرى وعاصمة الدولة وبقية مدنها، ومما يلاحظ على هذا التفاوت الطبقي في المجتمع أنه كان تفـــاوتا مزدوجا، كما كان هناك تفاوتا رأسيا بين الطبقات في داخل الإقليم الواحـــد، كان هناك تفاوت أفقيٍ بي الأقاليم وبعضها البعض وهو ما يفسره

1- ابن خلدون: العبر، المقدمة، ص647.

ابن خلدون بقوله: "واعتبر ذلك في المغرب مثلا فاس مع غيرها من أمصاره الأخرى مثل بجاية وتلمسان تجد بينهم بونا كبيرا على الجملة ثم على الخصوصيات، فحال القاضي في فاس اوسع من حال القاضى في تلمسان وهكذا كل مع صنف أهله، وكان أيضا حال تلمسان مع وهران والجزائر، وحال وهران والجزائر مع مادونهما إلى أن تنتهي إلى المداشر". فالنص الــذي أورده ابن خلدون.

يوضح لنا أن مكانة المدينة من الناحية الاقتصادية والاجتماعية لها تأثير في طبقاتها الاجتماعية من حيث التحضر حيث بعض المدن لايزال يغلب عليها الطابع البدوي وهذا يمكن أن يقال عن تلمسان عندما تأسست الدولة الزيانية طبعتها في المرحلة الأولى أي الطابع البدوي، لأن قبيلة بنى عبد الوادي قبيلة بدوية تعتمد الرحلة عكس فاس التى كانت عاصمة للأدارسة ولم تفقد مكانتها في عهد المرابطين والموحدين كما أن الثروة لها دور في أحداث الرفاهية بالمدن وبذلك تظهر داخل هذه المدن القصور والدور الفاخرة، ويقل التحضر كلما انتقلنا من المدن الكبرى فالصغرى، ثم المداشر. لكن يبدو هــذا النــص لا يتناسب ما وصل اليه المحتمع الزياني في هذه الفترة موضوع البحث يذكر الحسن الوزان بأن ما يملكه شيوخ القبائل في خيامهم من وسائل الترفيه يفوق ما كان بحاضرة الدولة الزيانية التى تعرضت مرار إلى النهب والسلب نتيجة للحروب المستمرة وكثرة المواجهة بين أمرائها من اجل الحكم. لذلك نجد هناك اختلافا بين عصور الدولة الزيانية فعهد السلطان أبي حمو موسى[1] يعتبــر مــن أرقى عصور هذه الدولة بعد قسم هذا السلطان المجتمــع فــي عهــده

1- التناسي نظم الدر و العقبان ص107 و109.

إلى أربع طبقات اجتماعية هم الشرفاء والفقهاء وشيوخ القبائل وأمناء الحـرف وأما بقية السكان فنظر اليهم نظرة أرستقراطية، فهـو لم يشـر إليهـم عنـد تعرضـه إلى أعوان السلطان وجلسائه فيقول يا بني وأما جلساؤك فلتجالس العلماء والفقهاء والأشراف ذوي الاذهان الثاقبة. أما الحسن الوزان فهو يتفـق مع أبى حمو[1] في العدد ويختلف معه في النوع، حيث قسم المجتمع الزياني إلى أربع طبقات الصناع والتجار والطلبة والجيش.

يبدو من حيث الترتيب أن تقسيم ابن خلدون أضبط، لأنه شمل أغلبية أراضي دول المغرب الاسلامي وفرق بين أقاليمه وبين طبقات كل إقليم.

- **طبقـة الحكـام:**

الأسرة الحاكمة: انحصرت السلطة في دولة بنى عبد الوادي في بيت الزياني[2] وقد كانت زعامة القبيلة في بنى طاع الله وعلى الخصوص بني محمد بن زكدا وذلك لقبولهم مبدأ التوريث في تولى عرش البلاد ومن هنا أصبح هـذا البيت يتمتع بمكانة السيادة والرئاسة في المجتمع الزياني.

وبطبيعة الحال كان انتماء بني طاع الله إلى بنى عبد الوادي سبيلا إلى علو بقية بطون بنى عبد الوادي ومن هؤلاء آل مكن[3] وبنو زردال[4] وهم أول من يبايع السلطان يغمراسن بعد وفاة السلطان زيان ويشكاون قادة الجيش الزياني ويتولون المناصب الحساسة في الدولة كولاة لأقاليمها. ومثل السلطان أعلى سلطة في البلاد فهو على رأس المثلث الهرمي لرجال الدولة جمعا كما يمثل

1- حسان الوزان رقم2 وصف إفريقيا.

2- ابن خلدون بغية الرواد الجزء الأول ص 102 وما بعدها.

3- التنسي نظم الدر والعقبان صفحة 109.

4- التنسي مصدر السابق ص109.

السلطة المركزية من الناحية الإدارية فهو الذي يعين العمال على الأقاليم المختلفة وبالتالى فهم يخضعون له مباشرة.

هذا فيما يتعلق بالفترة التى سبقت القرن 10هـ، 16م، أما بالنسبة للمرحلة الأخيرة لحياة الدولة، فنجد تغييرات طرأت على هذه الطبقة وتتمثل فيما يلي:

أولا: ضعف العصبية القبلية بانعدام تأثير شيوخ بنى عبد الوادي في تسيير دواليب الدولة فقد كانوا من قبل هم أول من يبايع سلاطينها وبذلك يتدخلون في اختيار الأمراء لكن في هذه المرحلة لم يكن لهم أي دور يذكر بل أصبح شيوخ بني عامر وبنى راشد هم الذين يعيّنون ويعزلون هؤلاء الأمراء. يضاف إلى القوتين المتصارعتين، الأتراك والاسبان الذين يتدخلون هم في العزل والتعين وبذلك فقد هؤلاء الأمراء ما كان الأمراء الدولة الزيانية في عصرهم الذهبي من فرض سيادة الدولة على كل أقاليمها. لكن في هذا العصر السيادة للاسبان في مراكزهم فحاكم وهران يلقب بالحاكم العام لوهران والمرسى الكبير وإمارة تنس تلمسان.

ثانيا: إن الوظائف التى كان يتولاها أبناء أمراء الدولة مثل ماحدث في عهد السلطان أبى حمو موسى الثاني أضبحت لكبار شيوخ القبائل الذين ينوبون سلاطينها في تلك الأقاليم ويحبون جبايتها لمصالحهم مما أثر على خزينة الدولة الزيانية.

ثالثا: البطانة التي حددها السلطان أبو حمو لابنه أبي تاشفين الثاني في كتابه واسطة السلوك والتى تتمثل في كبار موظفي الدولة وفي هذا الصدد

يقول: « يا بني ينبغي لك أن تدبر في وزرائك وجلسائك وكتابك وفقهائك وقضائك وأعوانك وعمالك وقوادك وأجنادك»[1].

فاختيار هؤلاء لا يتم بالمحاباة فقط، فالوزير الذي يكون على رأس موظفي الدولة لابد أن يكون من أخيار قومه وكبير عشيرته لا يحتاج لما عندك من أموال، فهذه الشروط لم يتقيد بها أبو حمو نفسه نتيجة لأوضاع الدولة في عصره. أما الشخصية الثانية فتتمثل في الفقيه[2] الذي يرافق السلطان عندما يباشر عمله وخاصة خلال عقده لمجلس المظالم الذي يتم كل يوم الجمعة بعد الصلاة حينها تعرض القضايا التي لم يتمكن قاضي الجماعة من النظر فيها، فتحول للأمير. لذا يشترط زيادة على منصب القاضي نجد صاحب الشرطة[3] الذي ينفذ أحكام الأمير والقاضي، ويشترط في اختياره أن يكون ذا دراية وكفاية.

وهناك قادة عسكريون، حدد أبو حمو شروط اختيارهم بقوله: « فتختار من انجاد جندك يكونون صادقين في محنك راضين بعهدك لايصيبون الرعية بمكروه ولا دابة بل يسدون الثغور ويحوطون البلاد ويمنعونها من كل باغ وعاد ».

أما مرمول فيحدد موظفي الدولة الزيانية بقوله: مستشار الملك الذى كان يحمل الخاتم و يدير شؤون الحكم إلى جانب الأمير[4].

1- عن هذ التعين ودور شيوخ بنى عبد الوادي، انظر يحي بن خلدون، ج2، ص236

2- انظر، تغير سياسة كبار موظفي الدولة وعلى الخصوص المزوار كالمنصور بن غانم الراشيدي الذي كان يوالى الاتراكرو الاسبان أحيانا أخرى فهو مع الاقوى، انظر الملاحق تجد رسائل للمنصور يعلن فيها موالاته للاسبان.

3- الحسن الوزان وصف افريقية ص 441

4- مرمول، وصف إفريقية، ج 2، ص:303.

الخازن[1] العام مكلف بجمع موارد بيت المال والأشغال وهو الذي يعين موظفي الضريبة الجمركية في موانئ الدولة، ثم يتجه لتلك الموانئ لقبض تلك الأموال ومن بين موظفي الدولة المزوار الذي كان كاتبا للملك وقائدا عاما بجند الجنود ويؤدي لهم الأجور ويعطيهم عند الإنقضاء يعتبر هذا الموظف من أكبر موظفي الدولة، وله علاقة بالقوة المتصارعة لذلك نجد مجموعة من القبائل أرسلها المزوار للإسبان وهناك شيوخ القبائل الذين عرفهم مرمول وحدد صلاحيتهم فقال عنها النبلاء المحاربون فيعتزون كثيرا مما لهم من رجاحة وشجاعة لأنهم هم الذين يرافقون الملك لذلك فإن لهم عدة إمتيازات وعطاءات مع رواتب حسنة تمكنهم من أن يعيشوا عيشة راقية. يقيم الملك بين العمال وهم القواد جميع رعاياه ومدنه كولايات يوليهم المناصب الرئيسية في قطره وبلاطه ذلك هو النظام الذي كان متبعا من قبل ملوك خلال مرحلة الضعف، كان التعيين يتم بواسطة شيوخ القبائل الذين لهم تأثير في تسيير دواليب الحكم مثل بنى عامر وبنى راشد.

فالذي يستخلص من النص، أن هناك فئة كانت هي التي تتحكم في شؤون الدولة منها قادة الجيش والموظفين بالأقاليم التي بقيت تابعة للدولة الزيانية وأغلب هؤلاء من شيوخ القبائل الذين كانوا موالين لها وقد تعرضت الوثائق الإسبانية لبعضهم منها عائلة ابن غانم التي تولى أفرادها منصب المزوار خلال هذه الفترة موضوع البحث كما أوردت شخصيات أخرى في رسائل أمراء الدولة الزيانية وحكام وهران كالكوديتي.

1- نفسه، ج 2، ص:303.

- الطبقـــة الثـــانية:

هذه الطبقة جعلتها في المرتبة الثانية بناء على تقييم الحسن الوازن لما لها من الإمكانيات المتوفرة لديهم فالتجار يعتبرهم الحسن الوزان[1] أفضل من تجار دول الغرب الإسلامي الأخرى من حيث أخلاقهم و المداخيل التي يتوفرون عليها نتيجة للمبادلات التجارية التي يقومون بها في السودان الغربي، وتشكلت بتلمسان عائلات تهتم بالنشاط التجاري ومن بينها، عائلة المقري التي احتكرت تجارة السودان الغربي في العصر الذهبي للدولة الزيانية وعائلة النجار والمرازقة.

أما الحرفيون فكانوا يتحصلون على مداخيل هامة لأن الصناعة التلمسانية بجودتها وهو ما جعل الإقبال عليها من قبل سكان المغرب الاسلامي والسودان الغربي وقد زاد الرقي بعد الهجرة الأندلسية لتلمسان حيث شيد هؤلاء ورشات على ضفاف الوريط وأقاموا صناعات مختلفة[2] ثم إن رجال العلم على إختلاف فروعه كانوا يتمتعون بمنزلة اجتماعية مرموقة و على الخصوص في عصر الدولة الذهبي حيث تولوا مناصب حساسة في الدولة مثل عائلة العقباني[3] التي تولى أفرادها مناصب وعلى الخصوص منصب القضاء واستمر ذلك في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة حيث ورد ذكر أحد أفرادها كان ضمن الوفد الذي أمضـــى معـــاهدة 917 هـــ-1512م مع الإسبان خلال عهد السلطان أبي حمو موسى الثالث.

1- مرمول، المصدر السابق، ج2،ص507

2- إبن القاضي، ذرة الحجال ج2 ، ص:367.

3- الحسن الوزان، المصدر السابق ، ص:397.

ثم عائلة العبادي الذين كانوا موظفين في الدولة الزيانية واستمـــر دور هــذه العائلة حتى الهجوم السعدي على تلمسان فتركت العائلة تلمسان والتجأت إلـــى فاس مما يؤكد أن تلك العائلة كانت قد تعاونت مع السعديين مما جعلها تتحصل على وظائف في فاس[1] .

لكن بعض هذه العائلات رفضت التعامل مع أمراء الدولة فاضطهدت ممـــا جعلها تهاجر إلى الأمصار الاسلامية الأخرى وأحسن مثال على ذلـــك الونشريسي[2] ومحمد بن عبد الكريم[3] المغيلي وحتى السنوسي[4] على الرغـــم مـــن بقائه في تلمسان رفض التعامل مع أمرائها.

وكان أمراء هذه الدولة في الماضي يتقربون من هؤلاء العلماء ويحضرون مجالسهم العلمية .وقد حدث هذا في عهد كل من يغمراسن بـــن زيـــان وأبـــي تاشفين الأول وأبي حمو موسى الثاني، مما جعل العلماء يتوافدون على الأمراء الزيانيين يعرضون عليهم إنتاجهم العلمي والأدبي طمعا فـــي نيـــل مكافـــأتهم وكريم عطائهم وقد أشار إلى ذلك الرحالة المصري عبد الباسط ابن خليل فقال أنه تقدم بقصيدة في ليلة المولد النبوي الشريف وقد أعفي من الــضريبة التـــي كان عليه تقديمها عن السلع التي كان يتاجر بها، حدث هذا في عهد المتوكـــل[5]

1- عن هذه العائلة انظر ابن مريم البستان،ص104،ابن عساكر دوحة الناشر، ص:119.

2- ابن مريم البستان، ص:53.

3- نفس المصدر، ص:53.

4- السليماني، المصدر السابق، ص:397.

5- المقري، نفح الطيب، ج3، ص:111، انظر أيضا عطاء الله دهينة العلاقات التجارية بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي و دور تلمسان في هذا الميدان مقال بمجلة الأصالة ع 24 1975، ص:103. الملالي، مناقب السنوسي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ورقة 26.

الذي عرف عصره كبار علماء تلمسان لكن عندما نرجع إلى القرن 10هـ16م نجد أمراء هذه الفترة لا يهمهم من الأمر إلا مصالحهم الذاتية فالشيء الذي يشغلهم ليس الجانب الفكري فقط ،بل كيفية الوصول إلى السلطة وهو نفس الخطأ الذي وقع فيه المجتمع الجزائري بعد الاستقلال مما كان له تأثير على الناحية الثقافية.

- الأشراف:

يجعل السلطان أبو حمو موسى الثاني الأشراف في المرتبة الأولى وفي هذا الصدد يقول: « يكون الشرفاء عندك أرفع الناس في الرتب لأنهم أشرفهم في الحسب وأعلاهم في النسب » ويتجلى من هذا النص أن للأشراف أثر كبير في المجتمع الزياني خلال هذه الفترة موضوع البحث.

إن أول هجرة لأسرة آل الرسول(ص) حدثت في القرن الثاني الهجري، الثامن الميلادي حيث استقر أبناء إدريس بن عبد الله و إخوانه محمد النفس الزكية وسليمان بالمغرب الأوسط والأدنى[1] وكل العائلات الشرقية تنتسب لهؤلاء، ففي تلمسان كان الناس يفضلون مسجد أجادير[2] على غيره من المساجد لأنه شيد من طرف الأدارسة.

ولكن في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الزيانية قد قلت العناية بهم مما جعل الونشريسي يتأسف، وعلى الرغم من ذلك فإن هؤلاء الأشراف كانت لهم قوة وسطوة في النفوس ولم يكن الأمر مقتصرا على المساعدة المادية فقط،

1- اليعقوبي، البلدان ص13.

2- مسجد أجادير يعتبر أول مسجد أسس بمدينة أجادير من قبل إدريس الثاني، و قد أقام له يغمراسن الصومعة لاتزال ماثلة للعيان لحد الآن. انظر ابن خلدون يحي، بغية الرواد، ج1، ص123.

بل كانوا يكافؤونهم بأمور إدارية، منها أن السلطان أبي تاشفين الأول قد كلّف أبا علي حسن بن يحيى الحسيني بحمل الرسالة إلى السلطان المريني أبي الحسن[1]، كما كانوا يكلفونهم بالتدريس، فأول مدرس بالمدرسة اليعقوبية[2] التي شيدها أبو حمو موسى الثاني هو الشريف الحسني، كما كان هؤلاء يحتلون المرتبة الأولى بالنسبة لترتيب أعوان السلطان.

من بين الذين استقروا في تلمسان أولاد عنان الذين توزعوا، فأولاد حمد بتلمسان، بعض إخوانهم لجأوا إلى مضارب بني عامر عند القلعة القريبة من وادي يسر عرفوا بأولاد محمد الزفاف، كما لجأ إخوانهم إلى مضارب مغراوة ممايلي مدينة مازونة عرفوا بأولاد عدة، ومنهم فرقة في قبائل بني مظهر يقال لهم أولاد زيان، ولعلهم ينسبون إلى بني زيان لأن مؤرخي الدولة الزيانية وعلى رأسهم عبد الجليل التنسي يجعل بني زيان من أبناء إدريس، توزعوا على القبائل بعد سقوط دولة الأدارسة، وإن ارتباطهم ببني عبد الوادي يكون بالمجاورة ومنهم فرقة في أرض بني راشد يقال لهم أولاد القطب الواضح سيدي الشريف.

أما أولاد سيدي عبد الوهاب وهم أهل درع البستان بإزاء الصوامع في بلاد السويد وفرقة أخرى في تلمسان، ولعل أغلبهم كانوا مستقرين بها ثم تركوها إلى الريف لظروف المدينة من جهة وعناية شيوخ القبائل بالأشراف من جهة

1- التنسي نظم الدر والعقيان ص12 Abdel Basit B.Khalil, : Deux Récits de voyages inédit en Afrique du Nord par R.Brunschwig 1936. P 176.

2- توجد هذه المدرسة بباب إيلان لمزيد من المعلومات عنها انظر التناسي مصدر السابق ص179.

أخرى فكانوا يعفون من دفع الضرائب المفروضة على السكان ومن الذين استقروا في تلمسان أولاد سيدي إبراهيم بن يحى توزعوا بدورهم إلى فرق أولاد أحمد في مدينة تلمسان وأولاد سيدهم انتقلوا إلى جبل ترارة في مضارب قبائل بني أمنير وأولاد سيدي أحمد في ترارة وهم أبناء عمومة الذين بمدينة تلمسان لا نعرف متى خروجوا من عاصمة الدولة الزيانية لأن المؤلف اكتفى بذكر هذه الأسر ومكان تواجدها دون التعرض لدورها في الحياة السياسية.

والبعض من هؤلاء وجدوا بأرياف الدولة الزيانية ثم انتقلوا لعاصمتها كأولاد عمران بن محمد منهم عمران الصغير الذي انتقل إلى غريس الشرقي و خلف أربعة أولاد منهم عامر الذي فضل الانتقال إلى تلمسان للقاء العالم الجليل محمد بن يوسف السنوسي[1] فزوجه من ابنته ومكث فترة من الزمن بالمدينة ولم يبارحها إلا بعد وفاة زوجته فخرج منها نحو أراضي بني يعقوب إزاء الجعافرة ويبدو أن أولاده لم يعجبهم الاستقرار لدى بني يعقوب لارتباطهم في بعض الحالات بالإسبان والحروب التي كانت تتعرض لها تلك النواحي في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الزيانية ففضل البعض التوجه نحو الواحات الصحراوية القريبة من جبل عمور فيما فضل الآخرون الانتقال نحو وادي ملوية، وهكذا نجد بأن السكان في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الزيانية تميزاوا بكثرة الحركة داخل الدولة و خارجها.

ومن بين العائلات الشريفة التي استقرت بمدينة تلمسان أولاد ه بن زيان وقد انتقل بعضهم إلى جبل بني يزناسن[2] ناحية الجوف.

1- المازوني، المصدر السابق، ج2.

2- عن محمد بن يوسف السنوسي انظر ابن مريم البستان، ص:129، ابن عسكر دوحة الناشر، ص:121.

- **الفقهـــاء:**

من بين الذين تناولوا هذه الطبقة السلطان أبو حمو موسى الثاني فقال عـــن الفقهاء أما الفقهاء فإنهم مصابيح الدين وبهم تقام الشرائع وتسد الدرائع وتعتصم بهم من الأهوال والبدع ويعتزبهم الإسلام ويرتفع»[1] أما الفقهاء والعلماء والمدرسون فقد قالوا في عصر الدولة الزيانية تكريما عظيما كان مبعثه تلك الحركة الفكرية، وتتضح لنا مكانة هؤلاء الفقهاء والعلماء في عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني[2] الذي أوصى ولي عهده باتخاذ فقيه يحصن به نفسه فيستشيره، فيما أشكل عليه من أحكام الشرع وما يقتضيه الحال من الحلال والحرام لأن صلاح الدنيا متوقف على العـــمل الصالح من أجل الآخرة وقـــد كان هؤلاء مستشارين للسلاطين في أغلب الحالات كما كانوا موظفين فـــي الدولة ومن أبرزهم في العصر الذهبي للدولة، الفقيه عبدون الحباك، صاحـــب أبي زيان وكان له خبرة في الميادين المالية والإدارية بالإضافة إلى العلـــوم الفقهية.

والعبادي[3] والعقباني[4] اللذان كان لهم دور في عهد السلطان أبي عبد الله الملقب بأبي قلمون في المعاهدة التي أبرمت بينه وبين إسبانيا في سنة917هـــ،

1- عن جبال بني يزناسن، انظر حليمي، المرجع السابق، ص:106

2- أبو حمو موسى الثاني، واسطة السلوك، ورقة 16

عن آل الحباك، أنظر الونشريسي، المعيار، ج 6 ، ص:523

3- وكان السلاطين في عصرهم الذهبي يغدقون أموالا عليهم و لهم جرايات ثانية و مرتبات شهرية على قدرهم مع الكسرة الجارية في السابع من المولد النبوي الشريف و في عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني زادت العناية بالاشراف، و قد نص في وصيته لإبنه أبي تاشفين الثاني أن يكون من بين جلسائه الأشراف. أبو حمو موسى الثاني واسطة السلوك مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم 18 ، ورقة 12.

4- ابن خلدون يحي ، بغية الرواد ، ج1 ، ص 115-117

912م، وبذلك يكون نفوذ بعض العائلات العلمية قد امتد من عصر الدولة الذهبي إلى فترة انحطاطها كعائلة العقباني وهي عائلة أندلسية لعبت دور في الحركة الثقافية وتولي بعض أفرادها وظائف هامة في الدولة.

وقد أغدق أمراء الدولة أموالا على العلماء الوافدين على تلمسان والمستقرين بها. فهذا يغمراسن بن زيان قد استقبل أبا الحسن[1] التنسي وأغــدق عليه فعل ذلك أبو حمو موسى الأول مع أبناء الإمام[2] وأبو تاشفين مـــع أبي عمران المشدالي[3]، وكذلك أبو حمــو موســى الثانـــي مع يحيـــى ابن خلدون الذي ولاه ديوان الإنشاء[4]. وخلال مرحلة انحطاطها توافد على أراض الدولة الزيانية الرحالة المصري عبد الباسط خليل فأغدق عليه المتوكل الأموال، وقد اعترف هو بنفسه فقال: إنه تقدم بقصيدة في ليلة المولد النبــوي الشريف ولقد أعفي من الضريبة التي كان عليه تقديمها عن السلع التي كـــان يتاجر بها»[5]، ولعله تلقى مكافأة أخرى لم يشر إليها خلال فترة مكوثـــه بمدينـــة تلمسان وولاياتها فقد زار أيضا وهران.

---

1 المدرسة اليعقوبية هي المدرسة الثالثة التي أسسها ملوك بني عبد الوادي في عهد السلطان بني حمو موسى الثاني لمزيد من المعلومات عنها انظر ابن خلدون يحي ، بغية الرواد ، ج 2 103. التنسي، المصدر السابق ، ص179.

2- العمشاوي ، المصدر السابق ، ورقة 89.

3- نفسه ، ورقة 37.

4- مازونة عاصمة لإحدى دوائر ولاية غليزان أسسها المغراويون في القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي. لمزيد من المعلومات عنها انظر المازوني، الدرر المكنونة، ج2، ورقة76

5- عبد الباسط خليل ص123

- **المتصـــوفة:**

إن ظهور الحركة الصوفية يعود إلى الفترة التي سبقت قيام هــذه الدولـــة وخاصة في العهد الموحدي الذي تميّز ببروز أكبر المتصوفين فـــي الأنـــدلس والمغرب ونذكر – من بين هؤلاء– أبا مدين شعيب[1] وأبا الحسن التنسي وقــد أخذت هذه الحركة بفضل هؤلاء المتصوفة وتلاميذهم تتغلغل بـــين الأوســـاط الشعبية فإذا رجعنا إلى كتب الوافيات لابن قنفذ وأحمد بابا التمبكتي صـــاحب نيل الابتهاج وابن مريم صاحب البــستان[2] نجــدها حافلـــة بتـــراجم هـــؤلاء المتصوفة، ومن أبرزها خلال عهد الدولة الزيانية محمد بن عمـــر الهـــواري المتوفى سنة 843هـــ-1439م[3] والحسن بـــن مخلـــوف الـــشهير بأبركـــان المتوفـــى سنة857هـــ-1453م وقد سماه التنسي الولي الزاهد والقطب الغوث شيـــخ الـــزهـــاد وقـــدوة العبـــاد ابراهيم التازي نزيل وهـــران والمتـــــوفى سنة 866هـــ-1462م.

ويتميز عهد الدولة الزيانية بتغلب الفكر الصوفي على الحياة الفكرية وعلى أكثر مظاهر الحياة في البلاد حيث نجد في كتب التراجم صفحات حافلة بالأحاديث عن كراماتهم ومناقبهم واستجابة دعوتهم وزهدهم في الحياة ولذلك كان عامة الناس وخاصة في أواخر عهد بني زيان يقبلون إقبالا كبيرا علـــى هؤلاء الأولياء وحتى سلاطين الدولة كانوا يستقبلون المتصوفين ويقضون حاجاتهم.

1- عن سيدي بو مدين انظر يحيى بن خلدون بغية الرواد ج1 ص128؛ العبدري الرحلة ص16 ابن بطوطة الرحلة ص17 الحسن الوزان وصف افريقية ص392

2- عن عبد الله بن مشيش انظر ابن مريم البستان ص 256 ابراهيم حركات الصلات الفكرية بين تلمسان والجزائر مقال بملة الاصالة ع26 ،1975 صص183؛ 184.

3- ابن قنفذ القسنطيني الوافيات تحقيق عادل نويهض ص208احمد بابا التمبكتي نيل الابتهاج ص173ابن مريم البستان ص350 نظم الدرو العقبان ص136

ومن هؤلاء ابراهيم بن علي الخياط الذي كان رجلا صالحا يعيش من الخياطة وكان كثير الدخول على أمير المؤمنين يغمراسن بن زيان لقضاء حوائج الناس وربما دخل عليه في اليوم الواحد سبعين مرة[1].

لعل اهتمام يغمراسن بهؤلاء الأولياء يعود بالدرجة الأولى إلى مكانتهم في المجتمع الزياني حيث كثر الإقبال عليهم من جل سكان الدولة وكان يغمراسن يتوجّه إلى مدينة أغادير لزيارة سيدي محمد بن عبد الله في داره إلتماسا إلى دعائه.

أما أبو تاشفين الأول فوافق استقبال هؤلاء المرابطين لأغراض سياسية حيث اتصل بالذين كانوا يتمركزون في نواحي بسكرة لحثهم على محاربة الدولة الحفصية واستمر هذا إلى نهاية الدولة.

- القضاة:

أما القضاة فإنهم يمثلون طبقة اجتماعية واحدة وهم على درجات أعلاها قاضي الجماعة ورئيس المظالم وغالبا ما يكون هو الحاكم أومن ينوب عنه في هذا الأمر ويدخل في هذه الطبقة المفتي والمحتسب وصاحب الشرطة لعلاقتهما بنظام القضاة.

وقد حصر الأب برجيس j . Berges j أصناف القضاة بدولة بني زيان في قاضي الجماعة وقاضي الخضرة وهو بمثابة الموثق والمعدل بالنسبة إلى أشخاص المنتمين لقصر السلطان ثم قاضي العسكر[2] وهو الذي يرافق

1- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ج1 ص2.

2- عن العبادي، انظر ابن عساكر، المصدر السابق، ص118. من بين الذين تولوا قضاء العسكر المقري الجد في عهد السلطان أب الحسن المريني، لمزيد من المعلومات عنه انظر المقري، المصدر السابق، ج1، ص565.

الجيش في جميع تنقلاته وتقتصر أعماله على المحاربين وقاضي الجماعة لدى الدولة الزيانية من المصطلحات التي توصلنا إليها من خلال ترجمة يحيى بن خلدون[1] لأبي عثمان سعيد العقباني الذي تولى قضاء الجماعة بتلمسان فقاضي الجماعة في مدينة تلمسان عاصمة الدولة الزيانية كان يختار لهذا المنصب في العصر الذهبي للدولة الزيانية كبار علمائها وقد تولى هذه الوظيفة أبو الفضل قاسم العقباني الذي يعتبر من أكبر علماء عصره واليزناسي الذي كان قاضيا في مدينة الجزائر ثم نقل إلى تلمسان وهما من المجتهدين نسب إليهما المازوني[2] والونشريسي[3] مجموعة من النوازل تمس الأحكام الشرعية.

أما في المدن الأخرى فإن سلاطين الدولة الذين يقومون بتعيين هؤلاء القضاة بعد استشارة قاضي الجماعة لأنه من أكبر قضاة الدولة.

ومن بين المدن التي ورد ذكرها في المصادر التي استطعنا الاطلاع عليها في مدينة تنس التي تولى بها القضاء أبو زكريا[4] يحيى المغيلي صاحب كتاب (الدرر المكنونة في نوازل مازونة)، ووهران التي تولى القضاء بها عالم

1- عائلة العقباني هي عائلة أندلسية لعب أفرادها دورا هاما في الحياة الفكرية في عهد الدولة الزيانية، لمزيد من المعلومات عن هذه العائلة انظر ابن خلدون يحيى، بغية الرواد، ج1، ص:123، ابن مريم البستان، ص:155.
ابن خلدون يحيى، بغية الرواد، ج 1، ص:123، الونشريسي، المعيار.

2- ابن خلدون، العبر، مجلد7، ص181، يحي بن خلدون، بغية الرواد،ج1، ص42، التنسي، المصدر السابق، ص 126. المازوني ، الدرر المكنونة ج2 ص 260.

3- ابن خلدون يحي، بغية الرواد،ج1 ص214،212،الونشريسي،المعيار في إثني عشر جزءا، تحقيق حجمي، دار الغرب.

4- المازوني ، المصدر السابق، ج 1 ، ورقة1-7. نفسه،ج1، ص216. 4، العقباني ، تحفة الناظر ، ص162-163.
عن اليزناسي الذي تولى القضاء في عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني بمدينة الجزائر ثم نقل لتلمسان أورد له المازوني مجموعة من النوازل ، انظر الدرر المكنونة ، الجزء الأول و الثاني.

أندلسي وهو الغرناطي لأن بعض المهاجرين الأندلسيين بعد يضاف إلى القاضي المفتي وهي وظيفة لها علاقة بالعبادات والمعاملات والأصل فيها قـــول الله تعالى: « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون» والأصل فـــي المفـــتي أن يكون مجتهدا إجتهادا مطلقا.

يضاف إلى وهران قلعة بني راشد التي اعتبرت من بين أقاليم الدولة الزيانية وقد ورد ذكر بعض القضاة الذين تولوا بها القضاء الصباغ.

وكذلك مدينة الجزائر قبل قيام إمارة سالم بن التومي فقد تولى القضاء بها اليزناسي قبل نقله لتلمسان. هذا فيما يتعلق بالأمصار أو المدن فإن بعض أرياف الدولة تولى الأحكام بها القضاة الذين عينوا من قبل شيوخ القبائل الذين كان لهم شبه استقلال عن الدولة الزيانية.

والأصل في الفتوى أن تكون مرسلة كما ورد في مجموعة فتاوي ابن رشد والمازوني والونشريسي، فمن الأفضل للعالم أن لا يفتي حتى يرى نفسه أهلا ويراه الناس أهلا لها على ما حكى الإمام مالك[1].

- الأثـــر السلبي على القضاء:

هذا ما يتعلق بعصر الدولة الذهبي أما فترة انحطاطها فقد تأثرت وظيفة القضاء والفتوى وغيرها من الوظائف الشرعية وهذا لم يكن مقتصرا على الدولة الزيانية فقط بل شمل أغلب دول المغرب الاسلامي. فكان إسناد الوظائف الشرعية كالإمامة في الصلاة والقضاء على العوام والجهال الذيـــن

1- توجد مجموعة من الفتوى أوردها المازوني في كتابه الدرر المكنونة في نوازل مازونة تتعلق بأمور القضاء في عصر أبيه وعصره وهو عهد الدولة الزيانية فكان هذا العالم الجليل من بين قضاة الدولة انظر الدرر المكنونة ج1 ورقة 166

لا يحسنون شروط الإمامة ولا يعرفون الأحكام فيما تصح به وتبطل وربما وجد فيهم من لا يقوم بالقراءة. ولم يقتصر الأمر على الإمامة فقط بل شمل أيضا الفتوى فكان يتعطاها الجهال، وهذا الأمر قد انتشر في هذه الفترة وفسدت بسببه الأديان والأبدان وذلك لما ضاع العلم وقل القائمون عليه وهو ما يؤكده الونشريسي[1] بقوله تقديم الجهال على العلماء في تولية المناصب الشرعية من القضاء والفتوى والشهادة والتوثيق والخطابة والحسبة والأمانة في الأسواق والنظر على الأوقاف وأموال الأيتام والقيام بالموارث والجاه ممن لايصلح لها ولا حول ولا قوة إلا بالله، وبذلك أصبح الناس يشتكون في أحكامهم وعلى الخصوص خارج عاصمة الدولة تلمسان وهو ما جعل ابن مرزوق[2] يعلق على ذلك فيقول: « أن قضاة الامصار في زماننا لهم أن يقيموا الحدود في القصاص وغيره إنما توليهم القضاء إنما هو من قبل السلطان وكذلك أن ولاهم صاحب الوطن الذي فوض له السلطان توليه القضاة.

نستنتج من نص ابن مرزوق أن قضاة المناطق لم يكن تعنيهم من السلطان كما هو الحال بالنسبة إلى عاصمة الدولة الزيانية. بل من قادة الأوطان مثـــلا «وطن بني راشد » ولهم الحق في إقامة الحدود في أماكن إقامتهم إلا أن تعيين هؤلاء من قادة الأوطان الذين هم شيوخ القبائل في هذه الفترة جعلهم يخضعون لاستبدادهم و يسكتون عنهم لأنه لا يمكن لهم الاتصال بأمراء الدولة، وقــد أشار الصباغ إلى قاضي قلعة بني راشد الذي فرض عليه قائدها خطية فلجأ إلى أحمد بن يوسف الملياني طالبا منه التدخل لصالحه ولم يتصل بالأمير الزياني لأن هذا الأخير لا يمكن له أن يقف إلى جانب القاضي ضد قائد وطن

1- أورد الونشريسي في كتابه المعيار مجموعة من النوازل تتعلق بهذا الموضوع.

2- المازوني الدرر المكنونة في نوازل مازونة ج1 ورقة176.

بني راشد الذي هو بدوره شيخ بني راشد وإن تأثير هؤلاء كبيرا على الدولة الزيانية في عصر الانحطاط[1].

وأما فيما يتعلق بالرواتب التي كان يتقاضاها القاضي في العصر الذهبي هي من خزينة الدولة في شكل أموال أوعقارات أراضي تقطع للقاضي يتصرف فيها خلال توليه القضاء وهي كافية. ومن بين المستفيدين من هذه الاقطاعات العقباني[2] الذين تولى بعضهم القضاء بتلمسان، لكن خلال مرحلة ضعف الدولة الزيانية قلت مداخيلها بعدم سيطرتها على النشاط التجاري وجبي الضرائب من القبائل الموالية للدولة التي أصبحت تتجه لجيوب شيوخ القبائل لذا اعتمد على ضرائب المكوس التي تقدم من التجار الذين يتوافدون على مدن الدولة وهي غير شرعية. ومن بين الذين تعرضوا لها المازوني[3] الذي تولى قضاء تنس وراسل شيخه أبا الفضل العقياني بالراتب الذي كان يتقاضاه من قائد تنس يحصل عليه من أموال المكوس لذا رأى بأنه لا يمكن له أخذه ولكن سيوزعه على الفقراء والمساكين بعد قبضه لأنه لو تركه فإنه سيعود لقائد تنس.

- الرعية والأحـــوال الإقتصادية على الطبقـــات الإجتمـــاعية:

تعرض السلطان الزياني والرعية عند تناوله لطبقة المجتمع الزياني فقال عنها وإما العامة والدهماء فتقبل بهم طريقة واحدة يقفون عندها ولا يتعدون حدها وتجربهم على مايعودوا من السير الحميدة والموالاة المجيدة ثم لا تتركهم لأغراضهم الدفاعية وعقولهم التي هي عن الصواب شاردة».

1- الصباغ، البستان في ذكر مناقب زمام الاخيار سيدي أحمد بن يوسف الملياني مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم 1708 ورقة 66.

2- عن الإمام مالك بن أنس انظر ابن مخلوف ، شجرة النور الزكية ، دار الكتاب ، ص:27.

3- الونشريسي، المعيار، ج2، ص:127

يتضح من هذا أن أمراء بني زيان في عصرهم الذهبي أو في العصور الموالية خاصة فترة البحث أنهم نظروا إلى هذه الطبقة نظرة استفراضية على الرغم من أنها تشكل النسبة الكبيرة من أفراد المجتمع وهذا الأمر لم يكن مقتصرا على السلطان أبي حمو موسى الثاني بل حتى مؤرخوا دول الغرب الإسلامي لم يتعرضوا لهذه الطبقة الإجتماعية، والوثائق الإسبانية التي أرخت لنهاية بني زيان إكتفت بالتعرض لشيوخ القبائل، وما خدمه من خدمات لصالحهم لذا يجد الباحث صعوبات كبيرة في التعرف على أحوالها المالية.

يبدو لي بأن أحوالها في العصر الذهبي كانت أفضل مما أصبحت عليه خلال فترة موضوع البحث لأن الدولة كانت تقف إلى جانبها زمن الشدة وفي هذا الصدد يقول أبو حمو موسى الثاني لا تعدل في مغارمهم عند الغرمات وتوصي بالتحفظ عليهم للولاة وإن كان زمن فتنة ثائرة وفساد في البلاد ومشاهرة فتقبل على الرعية جهد في الاستطاعة وتظهر عليهم فضلك»[1].

يبدو أن الوصية التي أوصى بها السلطان ابنه لم تطبق سواء في زمن الاستقرار أو الإضطرابات فالضرائب كانت جائرة سواء من قبل سلاطين الدولة أو من شيوخ القبائل واستبداد الولاة زاد عن حده خاصة بين فترة موضوع البحث لأن الدولة كانت في أشد الحاجة للأموال لدفعها لأطراف الصراع.

وأن الذين دفعوا فترة الفوضى والإضطرابات التي عرفتها أراضي الدولة الزيانية في النصف الأول من القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي».

1- أبو حمو موسى الزياني واسطة السلوك، مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم 1374.
المازوني، المصدر السابق ، ج 2، ورقة 67

وفيما يخص الضوائق الإقتصادية فإنه خلال العصر الذهبي للدولة كانت هذه الأخيرة تتدخل لصالحهم وقد حدث ذلك خلال عصر السلطان أبو حمو موسى الثاني وقد ذكر في كتابه واسطة السلوك وإن كان زمن فترفق به في المخامن والمجاني وتحسن لضعفائهم المحتاجين ومآثرهم فما اخزنته زمن الرخاء فتعمر أسواقهم بما أخزنته من الطعام » إن زمن القحط يقل الإنتاج وترتفع أسعار المواد الغذائية فيحول دون الحصول عليها من قبل هذه الطبقة فتشتد المجاعة وتنتشر الأمراض لقلة التغذية وقد حدث كل ذلك خلال فترة موضوع البحث. للطبقات الاجتماعية في البوادي.

هذا التقسيم الذي سبق أن أوردناه يتفق مع طبيعة التقسيم الطبقي في مجتمع الدولة وبخاصة العاصمة تلمسان.

أما بالنسبة للبادية فالوضع مختلف تماما حيث أننا نلاحظ على هذا المجتمع البدوي الشكل القبلي الذي لايختلف زمانيا من عصر ماقبل الاسلام عنه في عصرنا وما بعده حتى عهد الدولة الزيانية حيث يلاحظ أن البداوة[1] في المغرب الأوسط وجهت أشبه ما يكون ردة أونكسة فقد كانت هناك محاولات لتوطين هؤلاء ولكن الظروف التي سبقت سقوط الدول الكبرى كالمرابطين والموحدين خلقت نوعا من الإرتداد إلى البداوة ساعد على قيام دول كانت قبائل رحل توحدت في الفترة موضوع البحث على شكل ثلاث دول تنتسب للقبائل البدوية مثل بني عبد الوادي وبني مرين[2].

1- عن البداوة في بلاد المغرب الاسلامي انظر ابن خلدون المقدمة ص 120 وكتاب العبر الجزء السادس والسابع تعرض فيهما إلى البداوة.

2- ابن خلدون العبر ج7 ص129 انظر أحمد مختار العبادي دراسات في تاريخ المغرب ص 197

وإذا كان هذا التحديد لم يكن يأخذ خطا ثابتا وإنما ظل السبب فيه الحــرب والفتن وتحالف بعض هذه القبائل مع بعض الدول ثم أوجدت هــذه الوضــعية السيئة لبعضها نظرا لضعف المستوى العسكري لكل دولة من هذه الدول نفوذ كبير لبعض هذه القبائل حتى وصل الحال إلى تأييد قبيلة مــن قبائــل أو عــدم تأييدها كان يقيم دولة من هذه الدول أو يسقطها ومــن هنــا نــود أنــه مــن الضروري دراسة وضعية القبائل والترف على نواحي تقــسيمها الاجتمــاعي حتى نعرف جوانب القوة والضعف في تكوينها فمن الثابت المتعارف عليه من بين المؤرخين المحدثين أن هناك تشابها بين البربر والعــرب ومــن ذلــك أن بعض القبائل البربرية كانت تعيش على تربية المواشي كالعرب ويكون تقــسيم هذه القبائل على طائفتين: قبائل مقيمة وأخرى طاعنة.

أما المقيمة فكانت تسكن فيما يشبه القرى وأما الطاعنة فكانت تسكن الخيام ومنها من تنقل خيامها مرة عديدة في السنة لكي يستغلوا أراضي نائية ويرى قيــــوا أن خير وسيلة لتقسيم الأعراب البدو أن توزعهم إلى طائفتين، عرب يقل نزوعهم إلى الطعن وعرب رحل هؤلاء هم البدو وأما برنار ولاكروا فيقسمانهم إلى الأقسام التالية:

- **أولا** :الرعاة الذين لا يطعنون إلاّ قليلا جدا وهؤلاء يتجولون في التــــل فــي أوقات من السنة طلبا لمراعي جديدة.

- **ثانيا** :الرعاة الذين لهم مشاتي ومصائف مختلفة ولا يبتعــد أحدهمــا عــن الآخر إلا قليلا وبعض هؤلاء الرعاة يقضون الشتاء في الجنوب وبعضهم شمال أطلس الصحراء.

- **ثالثا:** الرعاة الخلص وهم يقضون الشتاء في الصحراء حتى إذا ما حلّ الربيع تركوا مضاربهم في الجنوب سعيا وراء الكلاء والماء بين قبائل التل التي تتيح لهم حق ورودها. وتعرف هذه الهجرة بالرحلة وهذا التقسيم الأفقي يتفق مع ما أورده ابن خلدون حيث يقول عند تعرضه لبني توجين أقاموا ملكا بدويا لم يفارقوا فيه الطعن والخيام و البسائط[1].

على أن بني عبد الوادي بدأوا في انتقالهم الحضري من البادية إلى الحضر بنفس النمط التي أسست فيه الأسر الحاكمة من سكان المغرب حيث نجدهم يتدرجون من البداوة إلى الحضارة وفى ذلك يقول ابن خلدون عندما يخرجون إلى ماشيتهم بالصحراء يتركون أتباعهم بالتلول لزرع أرضهم و ازراع فدنهم وجباية الخراج من أتباعهم[2].

أما فيما يتعلق بالرحلة داخل الإقليم يذكر ابن خلدون عن بنـــي يزناســـن من توجين أنهم كانوا يجوبون جانبي نهر واصل من أعالـــي وادي الشلف، هـــذا من ناحية التقسيم الأفقي للبدو.

وأما التقسيم الرأسي من أعلى إلى أسفل فإنه يقـــع فـــي قمـــة الهـــرم شيخ القبيلـــة وهـــو في نفس المستوى الرأسي مع أهـــل العشيرة ثم يأتـــي فـــي الدرجة الثانية أرباب السيوف ثم المشتغلين بالزراعة وهم مستقرون والمشتغلون بالرعي وهـــم رحل[3].

1- دائرة المعارف الاسلامية ج 2 ص 394.
2- العبر ج7 ص 326.
3- نفسه ج7 ص 159.

أما شيوخ القبائل فقد أسندت لهم الدولة بعض الوظائف الإدارية مثل ولاية الأقاليم وجباية الأعشار فاستطاعوا بذلك أن يكونوا لأنفسهم جاها وثروة، بالإضافة إلى الاقطاعات الكبيرة[1] وتقربهم إلى مجلس السلطان ومنادمته في خلوته والتجرء عليه والإساءة إليه في بعض الأحيان ذلك أن البدوي يتعشق الحرية ويأبى الخضوع للأنظمة المحدثة، وقد لعب عرب سويد دورا بارزا في تنظم الحكم والإدارة في دولة بني زيان وبني مرين ومن ذلك، أن أبي تاشفين ابن موسى بن عثمان بن يغمراسن اتخذ عريف بن يحيى وزيرا كما استخدم شيوخ القبائل والعشائر سفراء كما أنهم حافظوا على وضعيتهم القبلية من حيث تقاليد حسن الجوار التي كانت مرعية من قبل حكام ذلك الزمان من ذلك ماروواه ابن خلدون أنه لجأ إلى جوار القبائل العربية عندما اشتد عليه الخطر وقد طلب من وزمار بن عريف انقاذ ابن الخطيب من الموت ومعنى ذلك أن شيوخ القبائل والعشائر كانت لهم منزلة لدى سلاطين الدولة الزيانية وقد وصف يحيى ابن خلدون عند دخوله مجلس السلطان أبو حمو موسى الثاني مكانة هؤلاء الشيوخ فقال [وأتينا قصر الخليفة المنير فجلس أمير المؤمنين في رحبة داره الكبرى بمنزل شرفه، تحف به الاسرة الاعلون من قومه وعرب معقله وعامريته وأعيان الطبقات من أهل حضرته[2].

أما الطبقة الثانية فهي طبقة العسكريين والمحاربين من الفرسان، وقد ساعد على وجود هذه الطبقة قيام صراعات بين دول المغرب من جهة والقبائل من جهة أخرى[3] ومحاولة كل طرف أن يتوسع على حساب الطرف

1- نفسه ج 7 ص 339

2- يحيى بن خلدون بغية الرواد ج 2 ص 130

3- عبد الحميد يونس الهلالية ص 88

الآخر، وساعد على ذلك الروح القبلية والخصائص العقلية والنفسبة لأفرادها، فهم يتوسعون ويختصمون مع الطبيعة لا يحلون في موضع حتى ينقلهم لموضع آخر وتصطدم جماعتهم بعضها مع بعض من ناحية واختلاف على الرئاسة من ناحية أخرى والأمثلة على ذلك كثيرة منها أنه خلال فتنة قامت بين عرب بني عامر في أحيائهم خرجت فيها فرسانهم للمواجهة والمنافسة[1].

ويدخل في هذه الطبقة، الشعراء الذين يتغنون بأمجاد القبيلة وهذا اتجاه عربي حيث نرى الشعراء ملازمين لمواكب الفرسان يحثونهم على القتال وقد تأثرت بذلك القبائل الزناتية وحدت حدو القبائل العربية كما أنهم كانوا يشتركون في المعارك الحربية التي تخوضها الدولة محافظين على شارتهم القبلية وولايتهم المميزة لهم وهذه الأولوية والشارات ربما عادت إلى أصول تاريخية من ذلك، مايقال عن احتفاظ بني كعب من سليم براية جدهم التي حاربوا بها في ظل جيوش النبي(ص) في شبه الجزيرة العربية[2].

أما أسلحتهم فقد تلاءمت مع ظروف حياتهم فكانت من النوع الخفيف مع مهارة في امتطاء صهوات الخيل وظهور الإبل وفي مقدمة أسلحتهم السيف فهو وسيلتهم للدفاع عن النفس والمبارزة والقتال عن قريب.

وقد عرف المغرب الاسلامي من أنواع السيوف السيف المستقيم الشائع استخدامه في العالم الاسلامي إلى حوالي القرن السابع الهيجري الثالث عشر الميلادي تقريبا .ثم بدأ يحل محله السيف المقوس في النصل الواحد وقد تأثر العرب بأسلحة البربر مثل طاكوبة وهو سيف مستقيم النصل ذو وجه واحد

1- ابن خلدون المصدر السابق ج 6 ص 108.

2- نفسه ج 6 ص 73.

ويتسع عند منتصفه ثم يقل عرضه وينتهي بطرف مدبدب حاد[1].

ومن أسلحتهم الرمح[2] للفر والغارة والرمي عن بعد، وقد أجدوا في استخدامه على ظهور الجياد وعندهم عدة أشكال لرأس الرمح يسمونها المربوعات والطويلة يطلقون عليها الطوال وأما ألسنتها فمختلفة. ومن الأسلحة المستعملة الخنجر وهو السكين الكبير له مقبض من العاج[3] ومنها الدروع يلبس في الحرب وتتألف الدروع الكاملة من الجوشن وهو الذي يقي الصدر، والبضة أو الخودة وهي الأجزاء التي تقي الرأس.

اما مرتبات هؤلاء فقد تحدث عنها ابن صاحب الصلاة فيقول: [لكل فارس عشرون دينار وللأشياخ العرب لكل واحد مائة دينار وسائر عساكر العرب عشرون دينار لكل فارس[4] بالاضافة إلى ما تقدمه الدولة لهؤلاء من عدة وخيول وسلاح. وهذا بقي العمل به في عهد الدولة الزيانية[5].

وأما الطبقة الثالثة والأخيرة ،فهي طبقة الرعاة والفلاحين وفي ذلك يقول عبد الحميد يونس[6] عن البدو[كان أول اهتمامهم بالأنعام وقد نجحوا في التدخل الصناعي في توليد وتكثيره والاهتمام بالأنواع الأصلية منه وقد كان ارتباط العرب البدو بالإبل والخيل وقد طبقوا على حيواننهم ما ألفوه في مجتمعهم

1- عبد الرحمان زاكي السلاح في الاسلام ص 33 ؛39 ؛44.

2- الالوسي بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب ص230.

3- أبو ضيف المرجع السابق ص301.

4- عبد الرحمان زاكي المرجع السابق ص21.

5- نفسه ص26.

6- ابن صاحب الصلاة المن بالإمامة ص290.

مــن العصبية الأبوية وأخذوا من القواعد البيولوجية بالاحتفاظ بسلامة أنسابه على أن الخيل أصبحت وضعيتها في المجتمع الزياني بفضل القبائل العربية نفس الوضعية[1] التبدي كانت عليها في شبه الجزيرة العربية فهي وسيلة تهدف إلى الدفاع على النفس وهي تصحبهم أينما ذهبوا حتى أصبحت هذه العلاقة الحيوية بين الفرسان والخيل يضرب بها المثل في التعاطف والتآلف، وما يقال على العرب ينطبق على المجتمع الزناتي ومعنى ذلك أنّ تربية الخيول اهتم بها الفرسان من كلا الجانبين.[2]

أما الإبل والبقر والغنم فقد اهتم بها الرعاة وإن كان اهتمام الفرس بالخيل يبدأ بعد مرحلة تربيته عند هؤلاء الرعاة وحسب التدرج الطبيعي في مدارج الرقي الاجتماعي.

انتقل بعض هؤلاء الرعاة من مرحلة التنقل والرحلة إلى مرحلة الاستقرار فجمعوا بين تربية الأنعام وزراعة الأرض ومعنى ذلك الانتقال من وضعيـــة المجتمع من الإقطاع إلى طبقة الرأسمالية وقد بدأت هذه الطبقة تظهر فـــي مجتمعات المغرب منذ عصر الدويـــلات وإمـــارة الرستميين بتيهـــرت وبني مدرار بسجلماسة واستمرت هذه الوضعية حتى وصلت القبائل العربية من بني هلال وسليم وغيرهم فآثروا هذا النشاط وظـــل امتاز العرب على البربر. والذي يعنينا هو نشاط القبائل المعاصرة الدولة الزيانية من بني هلال وسليم وبقية القبائل البربرية.

1- ابن عذاري البيان ج4 ص85.

2- الهلالية. ص88.

- **الأمـــراض الاجتمـــاعية:**

بالرغم من عدم استتباب الأمن خلال المراحل التي مـــرت بهـــا الدولـــة الزيانية وطغيان الحركة الصوفية، فإن حياة السكان لم تكن كلها حيـــاة زهـــد وتقشف ولعل السبب في ذلك يرجع إلى موقع تلمسان وغيرها من مدن الدولة مما جعلها من أكبر المراكز التجارية يتوافد عليها التجار من مختلف الدول مما أدى إلى تكوين طبقة غنية لم تكن تتقيد بالمبادئ التي نشرتها الحركة الصوفية وفقهاء المالكية التي تحرم على المسلم عدم إرتداء الملابس المطرزة بالـــذهب والفضة وكذلك عدم استعمال قوائم السيوف واللوم المحلى بالذهب،وربما عـــاد الترف إلى ما تمتعت به تلمسان عاصمة الدولة، حيث كانت تتوفر على مناظر خلابة لضواحيها وبساتينها وشلالاتها المتدفقة ومتنزهاتها التي ورد ذكرها في المصادر التاريخية والأدبية مثل وادي الصفيصف وكديـــة العـــشاق وغـــدير الجوزاء[1][2+]، فالمتنزهات الآنفة الذكر تهيء الجو للـــسكان للالتفـــات للمـــرح والترفيه على احتياجات السكان.

نلاحظ من خلال دراستنا لموضوع السكن في الدولة الزيانية قلة الوثـــائق سواء في ذلك المادية والأدبية لقلة ما كتب عن العمران وخططـــه بـــالمغرب خاصة العمارة المدنية بالإضافة أن الأدب لم يكن قد توصل إلى حد وصـــف المرافق العامة والخاصة وصفا دقيقا فيما عدا بعض الاشارات التي وردت في خلال ما كتبه المؤرخون المعاصرون مثل ابن خلدون والرحالة المـــشارقـــة

1- انظر رسالة المنصور ابن غانم لحاكم وهران الكوديتي، أرشيف سيمنكاس مجموعة الشؤون العسكرية، الملف رقم6، ورقة37.

2- انظر الباب الأول الفصل.

والأندلسيين والمغاربة، ذكر ابن خلدون اختلاف المساكن في المدن فهي تختلف باختلاف المستوى الاجتماعي فالطبقة الغنية تتخذ القصور المشتملة على الدور والبيوت والغرف الكبرى لكثرة الأولاد والحاشية والعبيد والمداخيـــل التي كانت تحصل عليها هذه الطبقات الاجتماعية في مدن الدولة الزيانية أثرت على المساكن والملابس والمأكولات فحسب العبذري[1] الـــذي زار تلمسان خلال القرن السابع الهيجري الثالث عشر الميلادي ذكـــر أن مساكنها عالية تحتوي على مجموعة من الطوابق، وسطوحها مغطاة بالقرميد. وهذا الوصف خاص بالطبقة الغنية.

اما الطبقة الفقيرة فقد كانت بيوتها مغطاة بالطبين أوالكلاء [الديس] وهـــذا النوع يعبر عن الدور البسيطة التي يطلق عليها اسم القربي في بلاد المغرب الاسلامي ويكون مغطاة بالنباتات الجافة كالديس والحلفاء ومن بين الذين تعرضوا للمنازل، ابن مريم[2] فيقول عن تلك المساكن أنها مزودة باصطبلات الخيل وهي منفصلة عن المساكن وبالقرب منها بيوت مخصصة للضيوف.

أما الحسن الوزان[3] فيشير إلى منازل الأغنياء خارج المدينة فيقول بها مباني، في الأناقة، ومن ينعمون بأكبر متعة. وأما المدن الأخرى مثل هنين[4] فبيوتها جميلة لكل بيت مشربة بالماء العذب وصحنه المزين بحاملات الكروم وكانت المنازل مبلطة ببلاط ملون، وسطوح الغرف مبلطة بنفس الشيء والجدران مكسوة بالفسيفساء وبيوت مليانة متقنة في داخلها فسقيات جميلة.

1- العبذري، الرحلة المغربية، تحقيق بن حدو، مكتبة البعث، قسنطينة، ص:16.
2- ابن مريم، البستان، ص:316.
3- الحسن الوزان، وصف إفريقية، ص:391.
4- نفس المصدر، ص:386.

نستخلص مما سبق أن تلك المنازل تخص الطبقة الغنية بالمدينتين وهي توضح لنا مدى الغناء والثراء الذي وصل اليه التجار في هذه المناطق فاستعمال البلاط الملون في سطح الغرف والجدران يجعلنا نعتقد أن تبليطها كان من عمل الجاليات الأجنبية لقرب المسافة بين هنين وأوروبا خاصة الأندلس التي توافد تجارها عليها.

وتميزت تلك الدور بوجود صحن في وسطها ولا تزال المنازل حتى الآن تتوافر على هذه الصحون التي يتجمع فيها أفراد العائلة وعلى الخصوص في فصل الصيف. وعن الماء يقول الونشريسي عن تلمسان: هو بلد كبير به حمامات ومدارس ودور يجري بها الماء كلها يدخل بخارجها من الجهة الفوقية منها ويمر بقنوات محكمة البناء ويشق في داخل بعض الدور ويمر بإزاء بعضها إلى أن يخرج من الجهة السفلية من البلد المذكور[1]، وهناك بعض العيون توجد في الأزقة.

وقد تحدث عنها ابن مريم بعضها يرجع إلى الفترة التي سبقت الفتح الاسلامي وبقيت مستعملة حيث ذكر البكري عن النصرانيووردت أيضا في شعر ابن خميس الذي عاش في تلمسان ووصف بعض مظاهرها العمرانية فقال:

فساقية الرومي عندي مزية ** وإن رغمت تلك السواقي الروائح

ومن بين العيون التي تعرض لها يحيى ابن خلدون عين وزوتة التي تقع خارج باب الجياد. وأما التلالسي فيذكر عين أم يحيى فيقول:

ومنه ومن عين أم يحيى شرابنا ** لأنهما في الطيب كل النيل بل أحلى.

1- المازوني الذرر المكنونة ج 2 ررقة 16.

- المــأكــولات:

أما المأكولات فقد تطورت بتطور الدولة ففي البداية كانت معيشتهم تتميّز بالبساطة ثم تطورت في عهد السلطان أبي حمو موســى الثــاني فأصــبحت متنوعة، وتُقدّم فيس أواني فضية وذهبية[1] وفي ذلك يقول: يحي بن خلــدون[2]: (وجيء آخر الليل بالحرس الشهي الملاء الحافل الملامح والمــشام المتعــددة الخوانات، مما أرحبت ساحته وجيرت بروده ونادى بالعصبة أولى القوة محملة بالفواكه والحلوى، وطعم الناس بيد الخليفة).

وتأتي أكلة الكسكسي في مقدمة المأكولات فالطبقة الفقيرة كانت تستعمل هذا النوع من الطعام يوميا كوجبة للغذاء والعشاء وفي بعــض الحــالات يكــون مصنوع من الشعير مثل الخبز. ومما يدل على ذلك ما أورده ابن مــريم فــي ترجمته لسيدي محمد بن عثمان بن يعقوب الورنيدي فقال في شأنه كان رضي الله عنه لايأكل إلا خبز الشعير بالإدام.

ومن بين المأكولات البسيسة وكانت تصنع بسميد الشعير المحمص والزيت والماء وفي بعض المناطق من القمح وهي قديمة ببلدان المغرب الاسلامي حيث ذكرت المصادر التاريخية أثناء تعرضها للكاهنة أشارت إلى صنع البسيسة من قبلها ولاتزال تصنع إلى يومنا هذا وخاصة بمناسبة الولادة حيث تقدم للأشخاص الذين يأتون للتهنئة بالمولود الجديد.

وهناك العصيدة التي تصنع من الدقيق الرفيع يضاف إليه الزبدة والسمن فــي المناطق الرعوية.

1- يحيى بن خلدون بغية الرواد ج2 ص40 ؛49 التنسي نظم الدر والعقبان ص236.
2- برانشفيك البربرية الشرقية في ظل الدولة الحفصية ج 2 ص111.

ومن بين الأطعمة أيضا الهريسة التي تطبخ باللحم والقمح ولحم الدجـــاج مع زيت الزيتون.

وهناك أنواع أخرى مثل السيار وهو الفول المطبوخ في اللبن والسمن وأوراق السلق المطبوخة بالحمص والجزر والفول ومن ذلك الدويدة أوالشعيرة التي تطبخ بلحم الدجاج وتستعمل في الاحتفالات وأيام شهر رمضان نجد الحساء وهذا النوع من الأكل لا يزال لحد الآن وتعتبر من بين الأكلات الشعبية على الخصوص بأراضي بني زيان وقد أشار إليها ابن مرزوق خلال تعرضه لأبي الحسن المريني بمدينة المنصورة فقـــال: [أخذ يسيرا من حسو][1].

أما الحسن الوزان فيشير إلى أطعمة قدمت إلى السلطان الزياني خلال الحصار المريني للمدينة سنة698-707/1298-1307 هي عبارة عن لحم خيل مشوي مخلوط بشعير وورق البرتقال[2].

أما الحلوى فتصنع أيام المواسم مثل عيد الفطر وعيد الأضحى وأيام رمضان حيث يكثر الإقبال عليها من طرف السكان منها الكعك والزلابية وهناك المشهدة التي أشار إليها ابن مريم خلال تعرضه لكرامات سيدي الحلوي حيث قال [اخرج مشهدة لم ير الراؤون مثلها ولاطيبتها امراة فـــي الدنيا من أحكام طبخ وجود صنع وكثرة ادام فاكلنا منها قليلا ومن الحلوى الـــتي كانت متداولة في عصر بني زيان السفنج والقطائف والقرص المصنوع بالسميد والقباط المحشو باللوز[3].

1- دهينة عطاء الله سلطنة بني عبد الوادي ص181.

2- الحسن الوزان المصدر السابق ص108.

3- ابن مرزوق المستند الصحيح ص 232.

هذا في عصر الدولة الذهبي، لكن خلال فترة موضوع البحث يلاحظ كثرة الحروب التي عرفتها الدولة وعدم استقرار السلطة نتيجة لكثرة المتصارعين عليها ربما أثر أيضا على معيشة أمراء الدولة كما أثرت على بقية الرعايا.

وضعف المبادلات التجارية وعلى الخصوص مع الدول الأوروبية مثل إيطاليا وفرنسا والبرتغال وبلدان السودان الغربي، لكن هذا لا ينبغي أن يكون حدث تطور في نوعية المأكولات بفضل المهاجرين الأندلسيين.

- الملابس:

إذا كانت نوعية المأكولات مرتبطة أشد ارتباطا بمستوى الطبقات الاجتماعية فالملابس هي الأخرى تختلف من طبقة إلى أخرى من المدنيين والعسكريين والحضر وسكان البوادي كما توجد ملابس خاصة بالصيف وأخرى بالشتاء وأغلب الملابس مصنوعة من الصوف والقطن والحرير[1]، وفقهاء الدولة الزيانية يحرمون على الرجل لبس الحرير، لكن طبقة الحكام لم يلتزموا بذلك[2].

هذا من جهة ومن جهة أخرى، فإن الباحث يلاحظ وجود ملابس أندلسية في المجتمع الزياني لقرب موانىء الأندلس التي تشتهر بصناعة المنسوجات مثل المرية حسب ما أورده الإدريسي خلال القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، إن السلع كانت تصل باستمرار إلى هنين وغيرها من الموانىء الزيانية ومن بين تلك السلع الملابس المرية على الخصوص

1- الحسن الوزان المصدر السابق ص 392.

2- الحسن الوزان المصدر السابق ص 172.

الخاصة بالعرائس[1].

كما وجدت ملابس مشرقية في الأسواق الزيانية أشار لها العماري[2] عند تعرضه إلى تلمسان وملابس أوروبية ذكرها شارل عمانوائيل ديفورك والمازوني في نوازله وهي الفرو ويبدو أنها من الملابس المستوردة من الدول الأوروبية لذا طرح المازوني هل تلبس دون غسل لأنها صنعت من قبل المسيحيين.

وعن اختلاف الملابس حسب الطبقات الاجتماعية يرى ابن خلدون أن الطبقة الغنية كانت ترتدي الملابس الفاخرة من الحرير والديباج وأن هذه الملابس تطورت بتطور الدولة لأن أغلب ماتركه ابن خلدون هو عبارة عن تجارب مستوحاة من البيئة المغربية التي عاش فيها.

وهناك ذكر الملابس التي كان قد أهداها السلطان أبوالحسن المريتي للمماليك وبعضها مصدرها أراضي الدولة الزيانية منها الصكات المذهبة والحلال ثلاثة عشر حلل والمخائد حلة وتزن ذهبا مائتين وأنزق ذهب عشرون وستة واربعين ،وفرشة حلة وعشرة علامات عشة وعشر واقيات مذهبة وستة وعشرون قناعا مذهبا وثلاثون وجوه اللحف حرير وذهب ومائتين من المحررات الملونة الرفيعة المختمة وحيطان أحدهما حلة والآخر نزق وثلاثة وعشرون صفة من النجان واثنان من صنابل الحلة وعشرة براقع للخيل، ومنها ثمانية من الحلة ومراشلة الخيل ثلاثون وثلاث نافس من الحرير وحنبلان من الحرير وعشرة حنابل من الحرير والصوف وحنابل ونشريسية

1- المازوني الدرر المكنونة ج 2 ص 136.

2- ابن خلدون المقدمة ص 776.

وزمورية ومائة وسبعة آلاف من الجلد التركي والاغماني ومن درق اللمط المثمة ومن الأكسية المحررة أربع وعشرون ومن البرانس المحررة ثمانية ومن الإحرام ما بين محررة وصوف عشرون ومن أزواج المجفف خمسون وعشر لزمات من الفضة وستة عشر شقة من الملف]، فالملاحظ على هذه القائمة إن أغلب تلك الملابس تخص الطبقة الغنية.

ومما يوضح أن تلك الملابس كانت لذلك المجتمع الزياني قول الحسن الوزان الذي زار تلمسان في أواخر القرن التاسع الهجري الخامس عاشر الميلادي فيقول أن ملابس سلاطين الدولة الزيانية كانت جميلة وأنيقة.

وفي نص آخر يقول أن الملابس بالنسبة لتلمسان لا تختلف عن فاس ومن بينها العمامة التي كان يتعمم بها سلاطين المغرب الاسلامي وقد ذكر صاحب كتاب الاستبصار القريب من عهد بني زيان أنّ أهل بجاية كانوا متخصصين في صناعة العمائم وهي مطروزة بالذهب تساوي الواحدة مابين الخمسمائة والست مائة دينار والعمامة شعار الاسلام في المغرب عامة فقد اورد صاحب كتاب مسالك الابصار عند تعرضه للدولة الحفصية أن ملوكها يلبسون عمامة كما أشار الى لبس العمامة من قبل سلاطين الدولة الزيانية وفي مقدمتهم أبو حمو موسى الثاني.

ومن الملابس التي كان الإقبال عليها البرنوس والفقهاء لباسهم جبة من الصوف أو القطن.

وأما الصوفية فكانوا يرتدون الخرقة يقول الغبريني في ترجمته لأبي الفضل قاسم بن محمد القرشي أنه قال: [دخلت سوق الصوف فرأيت خرقة أعجبتني فاشتريتها بثلاثين درهما.

كما كان الفقهاء يلبسون البرنوس الأبيض فقد أورد القلقشندي قوله: [وأما العلماء وأهل الصلاح فإنه لاحرج عليهم في ذلك ولاحرج في لبس لبرنوس الملون بالأبيض وإلى ذلك أشار ابن مريم أثناء حديثه عن سيدي أحمد المشدالي حيث قال: [لجأ إلى سوق ندرومة ودل قلمون برنوسه على وجهه لكي لا يعرفه الناس والسروال يعتبر من الملابس التي *عرفها المجتمع الزياني وبقية سكان الجزائر حاليا وهو ما يؤكده الغبريني* في ترجمته للتجيبي [كان يوما يسير إلى باب البحر ومعه بعض خواصه وإذا بشخصية يتمايل سكرا فالقى يده في يد الشيخ فقال له ياسيدي إدفع لي ما أتم به هذه السكرة فانتهره الناس فقال لهم الشيخ لا عليكم، دعوه فتركه يأخذ سراوله حيث دفعه إليه لأنه لم يكن عنده غيره].

ومن الملابس أيضا الجلابة وقد وجدت هذه الأخيرة في المغرب الاسلامي والأندلس منذ عهد الخلافة الأموية واستمرت إلى العهد الزياني ويتجلى ذلك من خلال ما كتبه العماري حيث يقول أن الملابس في المجتمع الزياني تختلف حسب المكانة أو العرق أو المهنة حيث يلبس ابن الجبل لباس أمثاله من أهل الجبال ويلبس العربي لباسا عربيا ولكن أفضل الناس كساء هم الأساتذة.

وإذا كنا من لم نعثر على تفاصيل كثيرة عن الملابس فيجب علينا الرجوع الى ما قبل عصر بني زيان وهو العصر الموحدي لأن تلك الملابس لا تتغير بين عشية وضحاها ففي هذا العصر ذكر ابن صاحب الصلاة وهو من علماء تلمسان قال: [أنعم عليهم السلطان بالكساء والعمائم والغفافير والبرانيس

والأكسية تحصل كل فارس على غفارة وعمامة وكساء وقبطية وشقة وفي نص آخر يقول كما جمعهم بالقباطي والقمص والغفافير والعمائم][1].

وفي رواية أخرى يقول أعطى الكسوات للموحدين والأشياخ من كل رتبة وللطلبة والعرب فأعطى كل واحد ستة أثواب عمامة وفقارة وقبطية مبطنة ومقطعيين مهداويين وكساء][2].

فالنصوص الثلاثة توضح للباحث الملابس التي أكثر انتشارا في المغرب الاسلامي ومنها أراضي الدولة الزيانية لأن ملابس هذه القبائل في البوادي امتداد لما كان عليه في العهد الموحدي.

أما المصادر المعاصرة للدولة الزيانية فقد اكتفت بالاشارة إلى الحديث عنها دون التعرض لنوعيتها ففي عهد السلطان أبو حمو موسى الثاني فقد توافد عليه ثمانية آلاف من العرب فقدم لهم الكسوة. فالنص اكتفى بالكسوة ولم يوضح لنا أسماءها.

أما أبو الحسن المريني فإنه بعدد الاستلاء على تلمسان خرج إليه سكانها فأعطاهم ألف فارس من عتاق الخيل بجهازتها وعدتها ومهنداتها والكسي المناسبة والجهازات مبين مرجح بالذهب ومفطط ومنبل بالذهب والفضة والكسي ماهو بالتفصيل المكسب وماهو بالخز الرفيع وكان عدد الكساء أثناء عشر ألف كساء.

1- الونشريسي، المعيار، ج 4 ، ص:276.

2- ابن خلدون يحيى، بغية الرواد، ج1، ص:40 ، انظر أيضا محمد بلغراد تلمسان، مقال بمجلة الأصالة ع26، 1975، ص:300.

وأغلب هذه الأكسية من صنع تلمسان لأنها اشتهرت خلال هذه المدة بصناعة الملابس.

وإذا كان أبو الحسن قد استولى في تلمسان على مخازن الحبوب فإن الذي يتبادر إلى الأذهان استلاؤه على دور الطرز ومصانع المنسوجات بالعاصمة الزيانية، وربما كانت الإشارة إلى ذلك واضحة فيما عرض إليه ابن مرزوق حيث يقول أن ملابس أبي الحسن المريني وحاشيته [كانت ثيابه وثياب والده رضي الله عنه من أثواب ملوك تلمسان قد صارت إليه فلم يشغل منها قط للباسه ولفرشه[1].

على أن النص الذي أورده ابن مرزوق يبدو التناقض فيه واضحا بين العبارتين المتجاورتين ولعل ذلك يعود إلى أن أبي الحسن المريني كان قد أهدى الحلل المرقومة المذهبة والأنساق والفتح والمحررات المختمة والبرانيس المصنوعة من الحرير المشفف وأحاريم الصوف لدولة المماليك بمصر.

- **الجـــنـــود:**

أما الجنود في الدولة الزيانية فقد كانت لهم ملابس خاصة بهم. إن هذه المرحلة عرفت تسرب الملابس الإسبانية إلى المجتمع الزياني لأن من أهم السلع الموجودة كانت تباع من قبل الإسبان وقد نصت إحدى الوثائق الإسبانية أن مولاي عبد الله كان يمتطي جوادا أبيضا وبرنوسا وشاشية إسبانية يعلوها ريش النعام[2].

1- يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ج2 ، ص:40-49، التنسي، نظم الدر والعقبان ص:326، المقري، أزهار الرياض، ج3، ص:116، القاهرة 1938.

2- عن هذا انظر رسالة الكوديتي Conde de AlcoudeTe للامبراطور شارل الخامس توجد بأرشيف سيمنكاس 3 FF 286-62 er le gajo.

ومن الملابس التي كانوا يرتدونها البرنوس وأما الفقهاء فكان لباسهم العمامة والجبة من الصوف أو القطن

أما الحسن الوزان فيقول أنهم يرتدون في فصل الصيف صدرية ذات أكمام عريضة مما يساعد على تسرب الهواء إلى أجسامهم و تخفيف شدة الحرارة وأما في فصل الشتاء فكانوا يلبسون كساءا من الجلد ويضعون فوق الصدرية أو الكساء ويلبسون وشاحا كبيرا من قماش القطن يلفونه ويلتحفون بـــه شتاء[1] وتغيير الملابس من فصل إلى آخر إن دل على شئ فهو يدل على أمرين إثنين:

- **أولهمـــا:**

طبيعة المناخ الذي تتميز به أراضي الدولة الزيانبة حيث يكون الصيف شديد الحرارة وشتاء قارس.

- **ثـــانيــا:**

الرقي الاجتماعي الذي وصلت إليه الحياة في عهد هذه الدولة هذا مـــن جهـــة ومن جهة أخرى نلاحظ الاختلاف بين ملابس الجنود وضباطهـــم، وهـــذا مـــا يوضحه الوزان بقوله أما العسكريون القادة من ذوي الجاه فيلبسون فوق الصدرية لباسا آخر ويضعون فوق المعطـــف قبـــعة كتلـــك التي كانت متصلة بالمعاطف التي يرتديها الناس في إيطاليـــا خلال أسفـــارهم[2].

1- الحسن الوزان ، المصدر السابق ، 392.

2- الحسن الوزان ، المصدر السابق ، ص:392.

أما الحرفيون[1] في المجتمع الزياني، فكانت لهم ملابس مميزة عن بقية السكان حيث يلبسون لباسا لائقا، و لكنهم يضعون قوبا قصيرا وقليل منهم الذين يضعون عمامة على الرأس أما المرأة فيقول الوزان عن نفس الطبقة أن نساءها كن يسرن في الأنهج وهن يرتدين ملابس بيضاء واسعة والملاحظ أنه لم يوضح لنا طريقة الحجاب في هذه الملابس إلا عندما تحدث عن النساء العربيات فقال أما العربيات فكن يرتدين ملابس تتألف من قميص أسود عريض الكمين يضعن فوقه خمارا مـــن نفـــس اللـــون أو لون أزرق ويتعصبن بـــه ويلفون به أجسادهن أما المازوني فيعطينا صورة للحائك تشبه إلى حد بعيد ما تلبسه المرأة في الغرب الجزائري والجنوب ويبدو أنه من مخلفات التراث الرستمي لأنه استمر عـــبر التاريخ الزياني وما زال موجودا لحد الآن وفي هذا الصدد يقول أنـــه زي النساء الالتحاف بالكساء دون نقاب من كتـــان ولا غيره وإنمـــا يستـــرن وجوههن بطرف من نفس الكساء بايديهن.

أما الرحالة الإسباني مرمول[2]، فقد ذكر أن المرأة في المغرب الأوسط ترتدي حائكا ذا لون أبيض وقد أشار هايدو إلى المرأة فـــي الجزائر فقـــال أنهـــا ترتدي معطفا أيضا من الصوف الرقيق ومـــن القماش والحرير يعـــرف بالحائك والجواري كن يخرجن غير ملتحفات عكس المرأة الحرة.

1- الحسن الوزان، المصدر السابق ص 393.

2- المازوني، الدرر المكنونة، ج1 ، ورقة 356.

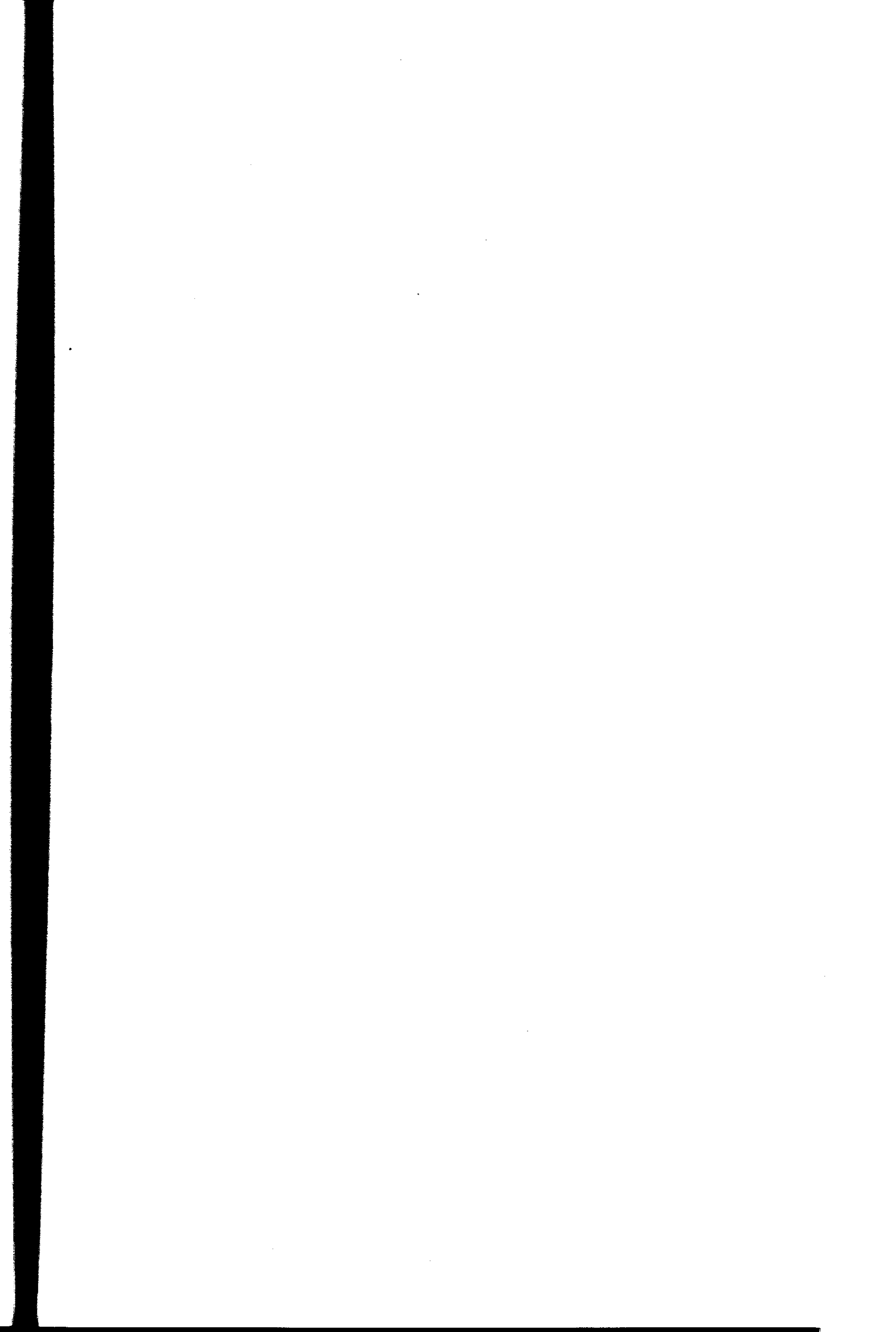
ومن ملابس النساء السفساوي[1] الخاص بالمرأة في المجتمع الزياني حيث ارتفعت شهرته في العالم الاسلامي وقد اشتهر بلونه الأبيض، كما وجدت بتلمسان لبس الكنافيش وهي أنواع كما كانت المرأة ترتدي سروالا وقد تعرض لذلك الرحالة الإسباني مرمول فذكر بأن السروال ترتديه المرأة بالمغرب الأوسط[2].

وأما أهل الذمة فقد كان مفروضا عليهم إرتداء ملابس خاصة وهي تختلف عن ملابس المسلمين ولونها أصفر، وعلى رأسهم الضفائر إلا أنهم لم يتقيدوا بتلك الملابس وبخاصة في مرحلة ضعف الدولة الزيانية وهو ما جعل المازوني يقول لباس أهل الذمة حيث لاحظ تقليد الدميات.

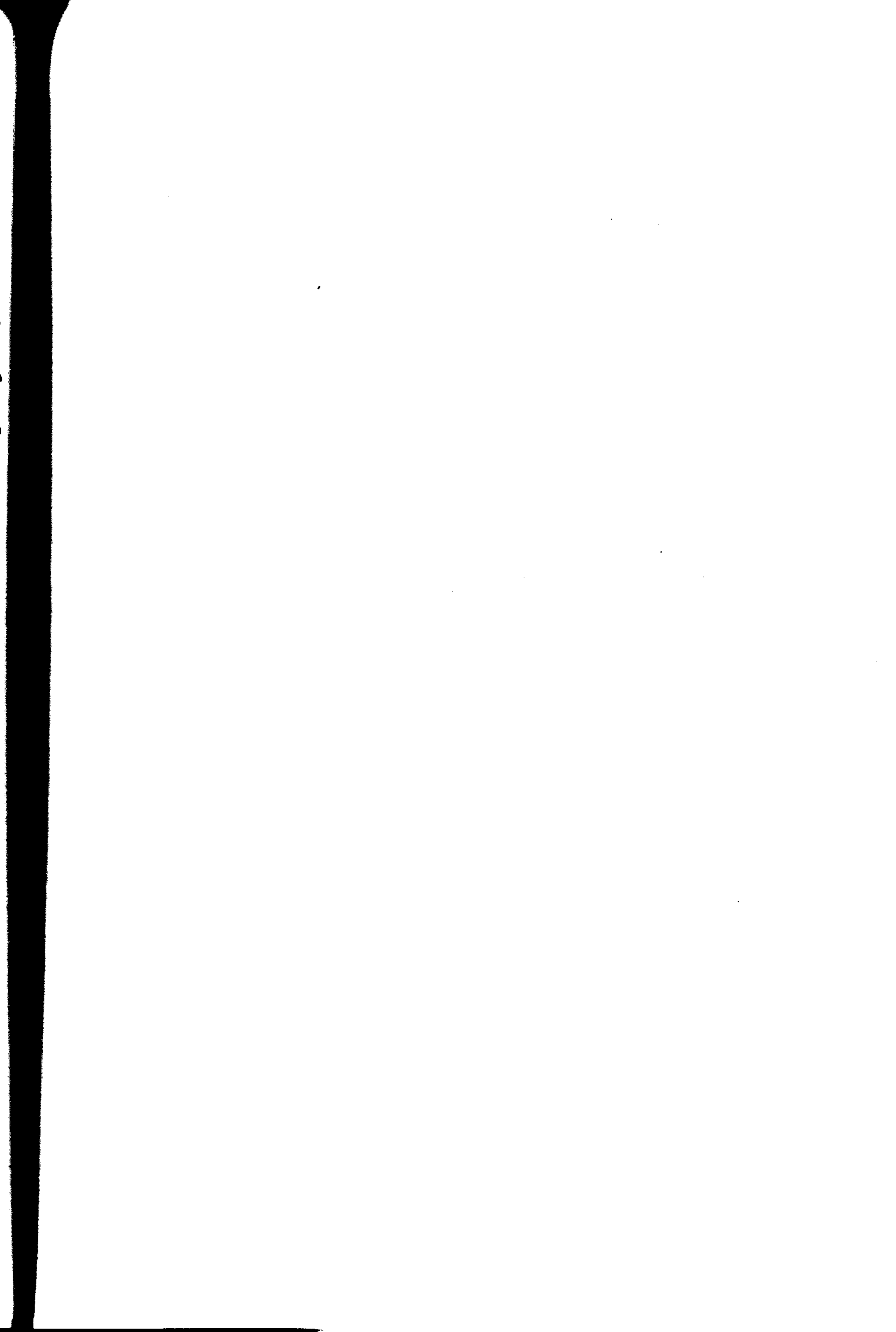
1- مرمول، وصف إفريقية، ج2، ص:320.

2- عن السفساوي انظر الزهري، المصدر السابق م ص:198.

- مرمول ، نفس المصدر ، ج 2 ، ص:321.



الفصل الثاني



أثر الصراع على الأوضاع الاجتماعية

- أثر الصراع على مدن الدولة (المدن الرئيسية):

- أولا/ مدينة تلمسان:

تعتبر مدينة تلمسان من بين المدن القديمة، يقول عنها يحي بـن خلـدون: (دار ملكهم وسط بين الصحراء والتل تسمى بلغة البربر تلمسان كلمة مركبـة من تلم ومعناه تجمع بين، وسان ومعناه اثنان أي الصحراء والتل فيما ذكـره شيخنا أبو عبد الله الأبلي وكان حافظا بلسان القوم ويقال تلشان وهو مركب من تل ومعناها لها وشان أي لها شان).

يلاحظ على النص الذي أورده ابن خلدون وهو من بين المقربي من النظام الزياني وله اضطلاع على وثائق الدولة أن هنالك اختلاف في التسمية بالنسبة لتلمسان التي اسست من قبل الزناتيين.

أما عبد الرحمان بن خلدون فيرى رأي آخر. فهو يأخذ برأي الابلي ولكنه يختلف معه في التفسير حيث يرى أن المقصود هو التل والبحر بمعنى أنهـا تجمع بين طبيعة البر والبحر فهي تقع في سفح جبل وتشرف على ساحل بحري يجثم تحت أقدامها ،فهي غير بعيدة عن ميناء الغزوات الشهير.

واما محمد بلغراد فيرى أن المقصود بها هي مدينة الينابيع وقد علق على ذلك بقوله فقال إن هذا المعنى يتلاءم مع إقليم تلمسان.

1- يحي ابن خلدون بغية الرواد ج 1 ص 85

وبعض المؤرخين أمثال الدكتور حاجيات والدكتور بوعياد وهما من سكان تلمسان يرون الرأي الوارد عند يحيى ابن خلدون لأنه يساير لغة القوم، وقد أطلق عليها الرومان بماريا بمعنى البساتين، كما كانت تعرف أيضا بمدينة أغادير[1]

وأما أغادير فهو الاسم الفنيقي القديم ،دخل في لغة البربر ويعلق على الاسم بلغراد فيقول وهذا يتفق وموقع المدينة لأنها تقوم على هضبة قليلة الانحدار.

من ناحية أخرى أننا لانعرف متى تحول اسم أغادير إلى تلمسان وأصبحت تجمع بين المدن الثلاثة. وهي المدينة التي كانت معروفة خلال القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي حيث أقام بها إدريس الثاني مسجدا لا تزال آثاره ماثلة إلى الآن.

وعندما تأسست الدولة المرابطية أسس يوسف بن تاشفين مدينة مجاورة للمدينة القديمة أطلق عليها اسم تاجرارت[2] أي المعسكر واقام بها المرابطون مسجدها الكبير الذي لايزال ماثلا للعيان لحد الآن وأما الزيانيون فقد أقاموا بالمدينة المرابطية التي كانت مقرا لولاية موحدية حيث كان بها القصر القديم الغير بعيد عن المشور.

يذكر يحي ابن خلدون نص يسنده إلى ابن مرزوق فيما يتعلق بأقدميتها فيقول: [قال حدثت يوما فقيها مشارا له بالقاهرة في شأن البلاد إلى أن انتهى

1- عن الابلي انظر مقدمة كتاب بغية الرواد ج1 ص16.

2- يحيى بوعزيز المراحل والأدوار التاريخية لدولة بني عبد الوادي مقال بمجلة الاصالة ع 26 ،1975 ص3

إلى الحديث عن تلمسان فأخرج من داره ديوانا تاريخيا يقول فيه أن تلمسان مدينة عظيمة بالمغرب الأقصى نزل بها سليمان بن داود عليه السلام وأقام بها شهرا][1].

المعلومات المتوفرة لدينا من الكتب التاريخية تقول أن سليمان لم يترك المشرق ولم يزر بلاد المغرب ولذا فالرواية غير مؤكدة حاليا.

- مدينة تلمسان من خلال كتب الرحالة

قال أبو عبيد الله البكري في مسالكه أغادير مدينة في سفح جبل ذي جوز.أبوابها خمسة ،ثلاثة قبلية :باب الحمام وباب وهب وباب الخوخة وواحد شرق وهو باب العقبة وواحد غرب ينسب إلى أبي قرة اليفرني وبها آثار عادية وكنائس حتى الآن بالنصارى معمورة وكثير ما يوجد بها الركاز وماؤها مجلوب من عين الوريط على قيد ستة اميال وبجاورها وادي الصفيصف عليه مدار ارحائها][2].

والعبدري[3] يقول عن تلمسان: [مدينة كبيرة سهلية ،جبلية، جميلة المنظر مقسومة باثنين بينهما سور ولها جامع عجيب مليح متسع، وبها أسواق قائمة وأهلها ذوو لياقة ولابأس بأخلاقهم وبظاهرها في سند الجبل موضع يعرف بالعباد وهو مدفن الصالحين وأهل الخير وبها مزارات ومن أعظمها وأشهرها قبر الصالح القدوة فرد زمانه أبي مدين شعيب وعليه رباط مليح مخدوم مقصود].

1- نفسه ص 5.

2- البكري المغرب ص 89.

3- العبدري الرحلة المغربية ص 14.

يقدم لنا النص الذي أخذه ابن خلدون عن البكري معلومات قيمة تتعلق بالمدينة منها على الخصوص، وعن قدمها قال ابن زكرياء يحي بن خلدون: إنها قديمة عريقة في التمدن، لدنة الهواء عذبة الماء كريمة المنبت اقتعدت بسفح جبل ودوين رأسه سيط أطول من شرق أي غرب عروس فوق منصة والشماريخ مشرفة عليها أشراف التاج على الجبين[1].

يلاحظ على النص الذي أورده الكاتب أنه يحدد لنا محيط هذه المدينة في عصره والتي كانت تضم المدن التي أسست قبل قيام الدولة الزيانية والتوسع لذي حدث بعد قيام هذه الدولة وعلى الخصوص بعد تأسيس المرينيين المنصورة إلى جوارها التي مازالت آثارها لحد الآن مما يؤكد عظمة تلك المدينة الأسوار تميزت تلمسان بأسوارها الشاهقة[2].

فعندما أسس المرابطون تاجرارت أحاطوها بأسوار شاهقة كما هو الحال بالنسبة لأغادير. وحين قامت الدولة الزيانية اهتم سلاطينها بتسويرها ومن بين هؤلاء يغمراسن فقد ذكر يحيى بن خلدون إن السلطان يغمراسن بن زيـــان قـــد أمر سنة 1269/668 ابتناء أسوار الشاهقة بالقرب من باب كشوطة.

ولعل ارتفاع هذه الأسوار وعظمتها هي التي دفعت انعبدري الذي زار المدينة خلال حكم السلطان ابو سعيد الى القول: [بأن اسوارها من أوثق الأسوار كما بيـــن هذا الرحالة أن هناك سور يفصل بين مدينة أجادير في الجنوب وتاجرارت فـــي الشمال، ويقول العبدري عنها إن سورها من أوثق الاسوار وأصحها[3].

1- ابن خلدون يحيى بغية الرواد ج1 ص86.
2- نفسه ج1 ص86.
3- العبدري المصدر السابق ص 14

وبعد الحصار المريني لها، قام أبو حمو موسى الأول بإعادة بناء أسوارها وحفر الخنادق، لأن الأسوار القديمة تأثرت بطول الحصار، وهدمت الأسوار من جديد خلال استيلاء السلطان المريني لها، خلال الهجوم الذي أدى إلى مقتل سلطانها أبي تاشفين الأول مدافعا عنها هو وأبناؤه.

وفي هذه الفترة قال عنها العماري إنها تحتوي على جدار يتكون من ستة حصون بعضها في اتجاه الغرب والبعض الآخر في اتجاه الشرق، وفي القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادي ذكر الرحالة عبد الباسط خليل إقامة سور جديد لها ولعله نفس السور الذي شيد فوق إحدى مقابر المدينة مما دفع بالونشريسي إلى معارضة بنائه وخوفا من انتقام السلطان منه تخلى عن تلمسان وهاجر إلى فاس[1].

- الأبواب:

أما الأبواب فكانت تلمسان تحتوي على مجموعة من الأبواب ذكرها الرحالة الذين زاروها منهم البكري خلال القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، فيرى أن أبوابها خمسة موزعة على النحو التالي: ثلاثة قبلية هي باب وهب وباب الخوخة وواحد شرقا هو باب العقبة وواحد غربا هو الذي ينسب إلى أبي قرة اليفريتي[2].

1- عبد الباسط خليل المصدر السابق ص23.

2- البكري القرن الخامس الهجري يرى أن أبواب تلمسان هي خمسة موزعة كالتالي ثلاثة قبلة باب الحمام وباب الخوخة وواحد شرقا هو باب العقبة وواحد غربا هو الذي ينتسب إلى أبي قرة اليفريني.

أما يحي بن خلدون فقد ذكرها على النحو التالي ثلاثة قبلية باب الجـياد وشرقا باب العقبة وشمالا باب سيدي الحلوي وباب القرمديـن وغربـا بـاب كشوطة[1] .

ولعل الاختلاف في توزيع الأبواب بين البكري ويحيى ابن خلدون يعـود إلى إحدى الاحتمالين:

الأول :الاختلاف في الفترة التاريخية بين المؤلفين لأن الأول عـاش فـي القـرن الخامس الهجري والثاني في القرن الثامن.

ثانيا :إن البكري وصف مدينة أجادير بينما يحي ابن خلدون[2] تاجرارت ولكن هذا الاحتمال الأخير ينقصه وجود أبواب مشتركة مثل باب العقبة الذي يقع شرقا في كل الوصفين مما يجعلنا نؤكد الاحتمال الأول ولكن أبو الفداء الذي نقل عنه يحي بوعزيز ذكر ثلاثة عشر بابا وهذا يتفق مع المؤرخين الفرنسيين أمثال الأب برجيس ووليام مارسية.

لأن المدينة لها أبواب داخلية غير هذه الأبواب الخارجية ومن هنا نشأ الاختلاف في ذكر الأبواب من حيث العدد أومن حيث الكم والتسمية.

ذكر ابن مرزوق الأبواب الداخلية عند تعرضه إلى السلطان أبي الحسن المَريني أثناء انتقاله من تلمسان السفلى إلى تلمسان العليا قال عنه [اجتاز باب زيري وهناك أبواب أخرى مثل باب إيلان كان يقع وسط المدينة بعيدا عـن الأسوار الخارجية التي تحيط بالمدينة.

1- ابن خلدون يحيى بغية الرواد ج 1 ص 216 .
- ابن مرزوق المصدر السابق ص 283.
2- ابن مرزوق المصدر السابق ص 283.

فتحت الأبواب في سور من أرقى الأسوار وأصعبها مبني بالحجارة والآجر وهناك من يقول أيضا أنها أسست من قبل مغيلة لتجاور مضاربها المدينة.

أطلقوا عليها اسم أجادير ومعناها الجدار في اللهجة الزناتية، وليس الجدار الذي ورد ذكره في القران لأن موسى عليه السلام لم يبارح المشرق وبالتحديد فلسطين حسب المصادر المتوفرة لدينا.

- **الفتـــح الاســـلامي :**

يبدو أن سكان تلمسان وما جاورها اعتنقوا الاسلام خلال عهد أبو المهاجر دينار بالطرق السلمية لأن سياسة هذا الأخير تمثلت في التقرب من شيوخ القبائل البربرية واستعمال الليونة معهم مما جعل هؤلاء يعتنقون الاسلام على يديه بدون أي مواجهة عسكرية.

ولا تزال بالقرب من تلمسان عين تعرف بعين أبي المهاجر دينار تذكر المصادر أنه نزل في ساحة ولم تشر إلاّ أنه استولى عليها لكن يبدو أنه بمجرد اعتناق سكانها للإسلام تركها وعاد إلى القيروان

- **تلمســـان في عهد الأمير أبي قرة اليفريني[1] :**

إن أبا قرة اليفريني كان أول من أقام إمارة في تلمسان بعد الفتح الاسلامـــي وكان هذا الأخير على المذهب الصفري وفي هذا الصـــدد يقـــول الطبـــري إن أبا قرة اليفريني جلب مع أبي حاتم على طبنة للاستيلاء عليها في عهد عـــم بن حفص ثم قال افرجوا عليها وانصرف أبو قرة اليفريني إلى موطنه

1- عن ابي قرة اليفريني انظر البيان المغرب ج1 ص210؛ ابن خلدون العبر ج7 ص156؛ ابن أبي زرع روض القرطاس ص9 انظر أيضا سليمان بن داوود أبو قرة اليفريني مقال بمجلة الأصالة ع26 ص120.

بنواحي تلمسان وبذلك يكون هذا قد أقام إمارة في تلك المدة.

- تلمســـان في عهد الأدارسة[1]:

لما بايع إدريس بالإمارة من قبل برابرة أوروبا ومغيلة ومكناســـة نهــض إلى المغرب الأوسط سنة 174 فتلقاه محمدبن خزر بن صولات أمير زناتة وتلمسان فدخل في طاعته وحل عليه قومه مغراوة وبنو يفرن بعد أن غلب عليها أمراؤها من بني يفرن ومكنه منها فدخلها وهو الذي اختط مسجدها وصنع منبره ثم عاد الى المغرب.

وهي كيفية انتقال تلمسان من المذهب الصفري إلى الزيدي العلوي ومصير أبي قرة اليفريني. أمّا ادريس فإنه عاد إلى المغرب الأقصى بعد أن عيــن على تلمسان ابن عمه[2].

وبعد وفاته تولى السلطة ابنه إدريس الثانى الذي هاجم تلمسان بدوره عام179 ثم جدد مسجدها واصلح منبرها ودوخ المعارضين له من القبائل الزناتية الذين يبدو أنهم تخلوا عن ولائهم للدولة بعد وفاة إدريس الأول ولكي يحفظ بقاء تلمسان تحت سلطته عين عليها ابن عمه محمد بن سليمان ثم عاد إلى المغرب الاقصى ويبدو ان أبناء محمد بن سليمان استقلوا بتلمسان بعد وفاة إدريس الثاني واستمرت تلمسان بأيديهم إلى قيام الخلافة الفاطمية ببلاد المغرب حيث قضت على الإماراة العلوية ومنها تلمسان التي استولى عليهــا موســـى بن أبي العافية واستمرت تابعة للفاطميين إلى أن استعادها منهم يعلى اليفريني

1- ابن عذاري البيان المغرب ج1 ص211.

2- نفسه ص213.

سنة 340هـ وتمسك بالدّعوة الأموية في الأندلس فعينه الناصر لـدين الله على كل المغرب الأوسط ومنها تلمسان.

- عـودة تلمسـان لزناتـة:

بعد حملة جوهر الكبرى لبلاد المغرب التي أدت إلى هلاك يعلى اليفريني، عادت السلطة في بلاد المغرب الأوسط لقبيلة مغراوة بزعامة محمد بن خزر، فاستعاد تلمسان سنة360هـ وخلالها كان مواليا للأمويين بالأندلس، لكن هـذا الأخير واجه القوة الصنهاجية بقيادة زيري بن مناد الذي تمكّـن مـن تحقيـق الانتصار عليه وقتله بملوية، لأن ابنه بلكين لم يسكت عن هذه الهزيمة التـي لحقت بقوته فتوجّه بقوّته إلى مضارب مغراوة فأباد البعض ودفع بالآخرين إلى الهجرة خارج مضاربهم التي أصبحت تابعة للدولة الزيرية ومن بـين مـدنهم تلمسان التي استولى عليها سنة 370 هـ، فملكوا تلمسان ووهران وأرشكول.

ثم عادت من جديد إلى المغراويين حيث استولى عليها زيري بن عطية الذي أسس له إمارة واتخذ مدينة وجدة عاصمة لدولته واستمرت تلمسان تابعة للمغراويين إلى أن قامت دولة المرابطين فاستولى عليها يوسف بن تاشفين.

- تلمسـان في عهـد المرابطين[1] :

عندما وجد يوسف بن تاشفين صعوبات في الاستيلاء على أجادير شيد مدينة مجاورة لها وأطلق عليها اسم المعسكر أي تاجرارت وبنى مسجدها ثم عين عليها واليا من بين قادته العسكريين وهو محمد بن تنغير المسوفي نسبة

1- دائرة المعارف الاسلامية مادة زيان بنو ص 454 انظر أيضا بلغراد نفس المقال ص302 ابن عذاري البيان ج1 ص325.
- تاجرارت او تاقرارت كلمة بربرية مؤنثة معناها المعسكر الذي أقامه يوسف بن تاشفين ابن عذاري البيان ج ص29.

لقبيلة مسوفة الصنهاجية حليفة لمتونة التي ينتسب لها يوسف بن تاشفين وكان ذلك عام443.

ولما توفي هذا الوالي تولاها بعده إخوة تاشفين بن تينغمر وأصبحت ضمن أملاكهم إلى أن استولى عليها الجيش الموحدي بعد مقتل آخر أمـراء الدولـة المرابطية بضواحي وهران بعدها عاد عبد المؤمن الى تلمسان فاستولى عليها ثم قام بمجزرة بالمدينة لأنها رفضت الاستسلام للموحدين[1].

- تلمسـان في عهـد الموحـدين :

كانت تلمسان في عهد الدولة الموحدية تعتبر من بين المدن التي وجهت لهـا هذه الدول عناية كبيرة لأنها غير بعيدة عن مسقط رأس عبد المؤمن وهـي مـن بين المدن التي أخذ فيها العلم عن شيوخها قبل انضمامه الـى المهـدي ابن تومرت ببجاية والمساهمة معه في تأسيس الدولة الموحدية.

ولأهميتها جعل الموحدين ولاتها من بين أفراد الأسرة الحاكمة أي من أسرة عبد المؤمن بن علي.

من بين الذين تولوا الحكم بها أبو عمران موسى بن أمير المؤمنين يوسف وكان ذلك سنة550 وكان له الدور الأكبر في إعادة بنائها وتوسيعها فهـو الـذي بنى المشور واتخذ بها القصور والصروح وغرس الأشجار وأمـر الناس باختطاط الدور الرفيعة والتوسع في الرفاهية أدار عليها الأسوار العظيمة والخنادق العميقة التي بها الآن.

1- البكري المغرب ص 66.

يلاحظ على هذا النص أن تلمسان قبل هذه الفترة التاريخية كانت عبارة عن مدينة ذات طابع عسكري أو أن الحروب التي تعرضت لها أثرت على عمرانها لذا أمر هذا الولي السكان بإعادة البناء لكن حسب ما يقترحه هو حتى تأخذ المدينة الطابع الحضري بكثرة القصور والدور الكبيرة.

وبما أن تلمسان تحيط بها مجموعة من القبائل بعضها مستقر والبعض الآخر رحل ، خشي والي تلمسان من تعرضها لغزو هؤلاء فأمر ببناء أسوار شاهقة تحميها من تلك الغارات.

وعندما تولاها أبو الحسن بن السيد أبي حفص، عمد هو الآخر إلى إعادة بناء أسوارها لأن فترة توليها تعرضت بلاد المغرب الأوسط لغزو بنو غانية.

- تلمسان في عهد بني زيان:

بدأ يغمراسن بن زيان بعد توليه السلطة بإعادة بناء أسواره بالارتباط بالخلافة الموحدية بمراكش، ثم انفصل عنها أيام الرشيد عبد الواحد بن إدريس، الذي حاول أن يبقى يغمراسن تابعا لدولته فأرسل هدية للمحافظة على بقاء الخطبة للموحدين.

المشور والقصبة التي تقع بالجهة الجنوبية من المدينة لها شكل مستطيل يبلغ طوله490م وعضه280م وقد شيد في المكان الذي نصب فيه يوسف بن تاشفين خيمته في الوقت الذي حاصر فيه أغادير.

المشور يعتبر من أهم القصور التي أسست في عهد الدولة الزيانية هو عبارة عن قلعة محصنة يقع في الجهة الجنوبية وكان المقر الرئيسي لإقامة

سلاطين الدولة هو عبارة عن شكل مستطيل له بابان[1].

ويبدو أنه هو الآخر تعرض إلى التهديم خلال الهجومات المرينية المتواصلة على المدينة مما دفع بسلاطين الدولة إلى تجديد أسواره[2] وقد تعرض له التنسي[3] فقال قام السلطان أبو العباس بإقامة احتفالات بداخله خلال سنة 1446/845 بمناسبة المولد النبوي الشريف مثلما كان عليه الحال في عهد السلطان أبو حمو موسى الثاني.

من بين الرحالة الذين تعرضوا لوصف المشور الحسن الوزان خلال القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي فقال في شأنه: "يقع القصر المالكي جنوب المدينة وتحيط به أسوار غاية في الارتفاع على غرار القلاع وهو يحتوي على قصور أخرى حدائقها وكلها متقنة البناء جدا مع هندسة رائعة ولهذا القصر بابان الأول يفتح على البادية والثاني نحو المدينة حيث يقيم قائد الحرس".

يعتبر النص من أهم النصوص التي تناولت المشور بالوصف فقد حدد عمارته وتحصيناته كما أشار إلى وجود متنزهات بداخله تشتمل على حدائق

يبدو من النصوص التاريخية المعاصرة لدولة بني زيان أن سلاطينها لم يكتفوا بالمشور الذي ورثوه عن الدول التي سبقتهم بل شيدوا قصورا أخرى ربما كانت أجمل وأبدع منه. لكن الحروب التي عاشتها الدولة الزيانية منذ تأسيسها إلى سقوطها كانت سببا في خراب معظم قصورها.

1- الإدريسي وصف افريقية الشمالية والصحراوية نشر بيراس 1957 ص 87.

2- ابن خلدون العبر ج 7 ص 161.

3- التنسي المصدر السابق ص 336.

حيث كان اهتمام بني زيان بالقصور لا يقل أهمية عن جيرانهم الحفصيين والمرينيين وحتى بني ناصر في الأندلس.

وقد بدأ الاهتمام بالنشاط العمراني مع بداية قيام الدولة، فأول ملوكها السلطان يغمراسن بن زيان سعى إلى صبغ محيطه بشيء من مظاهر الأبهة وهو ما جعل يحي بن خلدون يقول عنه [أول من خلط زي البداوة بأبهة الملك.

أما عبد الرحمان بن خلدون فقال في شأن تلمسان [لم يزل عمرانها يتزايد وخطتها تتسع والصروح بها بالأجر والقرميد تعل وتشاد إلى أن نزلها بنو زيان واتخذوها دارا لملكهم وكرسيا لسلطانهم فاختطوا بها القصور المؤنقة والمنازل الحافلة واغترسوا الرياض والباستين وأجروا خلها المياه وأصبحت أعظم أمصار المغرب][1].

لكن العبدري يصفها بقوله: [بأنها بلد حلت به زمانة الأزمان واخلت بها حوادث الحدثان فلم تبق به غلالة ولاتبصر في ارجائه للظمآن بلالة وقد شهدت جمعا من الحجاج ينيفون عن الألف وردوها فوقفوا إلى مالكها فأعطاهم دينار واحدا][2] وأغرب من هذا [ما شهدته من منصور صاحب مليكش وهو أن جماعة من الحجاج نحو العشرين وقفوا إليه في محلته عند بيته فكلموه في عشائهم فرحب بهم واحتفل في السلام عليهم ثم أخذ ينادي يا أهل الدوار هؤلاء ضيفان الله من يحمل منهم إلى بيته وجعل يكرر ذلك كما يصنع

1- اعتمد على وصف المشور المؤرخون المحدثون الذين كتبوا عن الدولة الزيانية ومن بينهم الأب برجيس الذي لم يأت بجديد كل ماقاله كان اعتمادا على الحسن الوزان وصف افريقية ص391.

2- العبدري الرحلة ص 15 .

المداورون أهل المدر فلم يجبه أحد منهم ولى عنهم ووراءه جمع كثيــف مــن الفرسان وهو سلطان تلك النواحي][1].

فالجزء الأول من النص نلاحظ أن زيارة العبدري لتلمسان تمت في فترة كانت الدولة الزيانية تعاني فيها من كثرة الأعداء المحيطين بها لذلك أن خزينة الدولة لم تكن بها أموال كثيرة لتوزيعها على هؤلاء الضيوف.

والجزء الثاني من النص المتعلقة بإمارة مليكش الصنهاجية بسهل متيجة التي كانت هي الأخرى تعاني من الحروب مع الدول التي تطمع في السيطرة على مضاربها وقبائل الناحية مثل الثعالبة الذين انتقلوا للمنطقة واستقروا بمضارب مليكش وأن وجود هذه القوة العسكرية يرجع بالدرجة الأولى لحماية ما تبقى لهم من المضارب.

عكس عصر ابن خلدون الذي يصادف حكم أبو حمو موسى الثاني حيث وصلت الدولة إلى مرحلة كبيرة من التحضر، فهذه الحركة العمرانية والبستنة والمساحات الخضراء تدل على التطور الحضاري ورقي الحياة الاجتماعية والذوق الفني الرفيع الذي تميز به سلاطين الدولة الأوائل.

فقد نشطت الحركة العمرانية في عهد السلطان أبو حمو موسى الأول الذي لم يكتف بالمشور بل أنشأ قصرا سمّاه الدار البيضاء وهو ما يؤيده ابن خلدون الذي أشار إلى ولوع أبي حمو موسى الأول بالعمران.

1- لم يحدد لنا العبدري ما كان إمارة مليكش أو مضارب هذه القبيلة لكن يبدوا لي أنها سهل متيجة

يذكر المؤرخين أيضا أنه شيد قصرا في مضارب مغراوة عندما هاجمها في المكان الذي يعرف اليوم ببلدية عمي موسى[1] التابعة لولاية غليزان وهو تحريف لقصر أبي حمو موسى ولم يتوقف عن بناء القصور فقط بل اهتم بتشييد الحصون ومن أهمها حصن أزفون شرق الجزائر العاصمة الذي هدم من قبل الحفصيين.

لم يكن هو الوحيد الذي اهتم بالعمران بل نجد ابنه وخليفته أبو تاشفين الأول اهتم هو الآخر ببناء الدور والقصور وتشييد الحدائق واغتراس المنتزهات مستظهرا على ذلك بألاف الأسرى الروم بين نجارين وزواقين وزلاجين][2].

وأما ابن الخطيب فيقول عنه: [مشيد القصور ومحسن الغروس ومتبني الترف إلى اتمام مدته ومن مدة اخيه بعده ومن قصوره دار الملك ودار السرور وأبي فهر].

كما عمد هو الآخر إلى بناء الحصون منها حصن بكر الذي شيد بالقرب من مدينة بجاية وحصن الياقوتة في أعلى الوادي المؤدي الى مدينة بجاية.

ولعل من أبرز الحصون التي أقامها تامزيزدكت التي شيدت في الموقع المعروف اليوم بسوق الخميس بالقرب من مدينة القصر لكنها خربت من طرف الحفصيين بمساعدة بني مرين.

1- مدينة عمي موسى إحدى دوائر ولاية غليزان حاليا.

2- يحي بن خلدون بغية الرواد ج1 ص 215 ؛ عبد الرحمان بن خلدون العبر ج 7 ص 163.

من بين المرافق التي عرفتها تلمسان، الحمامات لعل من أهمها حمام الصباغين الموجود بالحي الشمالي الغربي للمدينة. شيد خلال عهد الدولة المرابطية، فهو من بين آثار مدينة تاجرارت يعرف أيضا بحمام سيدي أبوالحسن الغماري.

وقد أشار الرحالة العبدري إلى وجود حمامات أخرى فقال [فقال بهـــا حمامات نظيفة أشهرها حمام العالية قل أن يرى له نظير] وهو الحمام الـــذي ورد ذكره في مستندات الأوقاف التي اصدرها أبو حمّو موسى الثاني وقد حدد النص مكانه فقال عنه أنه بالقرب من باب الحديد أو الجديد كما ورد اسم حمام آخر في الوثائق المتعلقة بالأوقاف والعائدة للمدرسة اليعقوبية عرف بحمام الطبول.

وهناك مرافق أخَرى تناولتها تلك الوثيقة منها [إن هذا السلطان حبس على الزاوية المقامة على ضريح والده بداخل تلمسان المحروسة الطاحونة الملحقة بالزاوية والثلاثون حانوتا المعروفة بالصاغة القديمة والكوشة التي بمنشر الجلد وحمام الطبول][1].

لكن الحسن الوزان لاحظ قلة المياه في حمامات تلمـــسان بمقارنتهـــا مـــع حمامات فاس[2].

كذلك المدينة كانت تحيط بها أراض زراعية خصبة تتميز بكثرة الانتاج وأن أراضي ذلك السهل ملك للعائلات التي كانت بداخل تلمسان أو خارجها وبعض المؤسسات الدينية المتمثلة في المساجد المدارس التعليمية.

1- العبدري الرحلة 15.

2- ابن الخطيب اللمحة البدرية ص 216.

علق ابن خلدون على تلك الأراضي فقال تطل منها على فحص اقيح معـــد للفلح تشق ظهوره الأسلحة عن مثل أسئمه المهاري وتبقر عــن بطونـــه عـــند تدميث الغمائم بطون العماري [1].

لعب بني زيان دور مشرفا في توسيع المدينة خلال حكمهم الذي دام أكثر من ثلاثة مائة سنة فازداد توسع المدينة وهو ما يعلق عليه ابن خلدون فيقـــول: " بها للملك قصورا زاهرا اشتملن على المصانع الفائقة والصروح الشاهقة والبساتين الرائقة مما زخرفت عروشه وتنوسيت اطواله وعروضه فازرى بالخوارنق وخجل الصافة وعبث بالدير" [2].

دعمت أسوار المشور في العهد العثماني بأبراج مربعة وأخرى دائرية واجريت عليه عدة اصلاحات تتماشى وتطور الأسلحة حيث استقبل المشور مجموعة من المدافع.

فتحت بالمشور باب بالقرب من الزاوية الجنوبية وتدعى باب الفروسية وبالجهة الغربية باب الحديد بجوار الباب نجد مطابخ الحراس، وبين المسافات التي تقدر مابين20 و50 مترا نجد سلما يتوجه إلى أبراج المراقبة وخاصة الجهة الشمالية حيث يوجد البرج الأكبر لأنه يتحكم في جميع تحصينات المشور.

ونظرا لحالة الصراع التي شهدتها تلمسان طوال التاريخ الزياني، كانت المدينة محاطة بسياج من التحصينات يعود بعضها للزيانيين والبعض للمرينيين.

1- الحسن الوزان المصدر السابق ص 391.أبو فضل الله العماري المصدر السابق ص 230.
2- ابن الخطيب المصدر السابق ص 217.

إن ما ذكره ابن خلدون تؤكده كتب الرحالة الذين زاروا تلمسان ومن هؤلاء الرحالة العبدري بأنّ سورها من أوثق الأسوار وأصحابها، وبها حمامات نظيفة ومن أحسنها وأوسعها حمام العالية وهو مشهور قلّ أن يرى له نظير.

وهذه المدينة بالجملة ذات منظر ومخبر وأقطار متسعة، مبانيها مرتفعة ولكنها مساكن بلا ساكن ومنازل بغير نازل ومعاهد افتقرت من متعاهد تبكي عليها فتسكب الغمام.

تعرض الحسن الوزان إلى مساكنها وأشار بأنها منازل جيدة مغطاة بالقرميد ومن أهم الملوك الذين يعود لهم الفضل في حركاتها العمرانية أبو تاشفين الأول الذي شيد بها مجموعة من القصور والمسابح واهمها الحوض الكبير لأن تلمسان كانت مزودة بشبكة من القنوات المائية بعضها يرجع إلى العهد الروماني وهي الساقية النصرانية وهو ما يؤكده أيضا ابن خلدون بقوله، وتنصب إليها من أعالي الحبل أنهار من الماء غير أسن تتجاذبه أيدي المنائب والأسراب المكفورة خلالها ثم ترسله بالمساجد المدارس والسقايات في القصور وعلية الدور والحمامات أفعم الصهريج وبقهقة الحياض ويسقي ريغه خارجها مغارس الشجر ومنابت الحب.

يلاحظ على النص أن المياه التي كانت تزود مدينة تلمسان بعضها كان يأتيها من الجبال المحيطة بها، وبهذه الجبال تتجمع المياه في فصل الامطار وسقوط الثلج وفي فصل الصيف تخرج المياه المتجمعة فتوفر الماء لأهل المدينة لأنها تحتوي على مجموعة من العيون لازال بعضها لحد الان على الرغم من تغيير المناخ وقد أشار إلى ذلك ابن مرزوق في نازلة أطلق عليها

الخليج أشار فيها أن المياه التي كانت تزود تلمسان خلال عصره لم تجد عنايـــة من قبل السكان فعند خروجها تسببت في إسقاط بعض جدران المديـــنة وقـــد طرح من يقوم بإصلاح هذه الجدران هل الذين يسكنون إلى جانب الأسوار المهدمة أو الذين يستفيدون من تلك المياه أثناء خروجها فيسقون منها بساتينهم وهو ما يؤكد لنا رواية ابن خلدون التي تشير إلى استفادة البساتين مـــن تلك المياه.

كما يلاحظ أيضا على نص ابن خلدون أن هناك مياه مدفونة تحـــت الأرض في قنوات كانت تتزود منها المدينة وبعض تلك القـــنوات تأتـــي مـــن الوريط وتصب في العباد.

كما لاحظ العقباني وجود عيون بأزقة المدينة كان يتوافد عليها السكـــان الذين لم يكن لديهم الماء بمنازلهم وبعض هؤلاء المتوافدين من العبيد ممـــا كـــان يؤدي إلى انحلال خلقي بين هؤلاء والجواري.

كانت تلمسان كغيرها من مدن المغرب الاسلامي تحتوي على متنزهات بخارج المدينة وهو ما يؤكده يحي ابن خلدون بقوله] وتخف بخارجها الخمائل الإلف والادواح الا شبة والحدائق الغلبة بما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعـــين مـــن الفواكه والرمان والتين والزيتون إلى المتنزهات الرائعة والملاعـــب الحاليـــة والمعاهد الكريمة.

من بين الذين تعرضوا إلى الزراعة في محيط تلمسان العبدري26 حيـــث قال عنها: [والدائر بالبلد كله بالكروم وأنواع الثمار وهو ما يؤكده ابن خلدون الذي تعرض إلى المناطق المحيطة بمدينة تلمسان التي تميزت بعمرانهاوالتـــي

الخليج أشار فيها أن المياه التي كانت تزود تلمسان خلال عصره لم تجد عنايـــة من قبل السكان فعند خروجها تسببت في إسقاط بعض جدران المديـــنة وقـــد طرح من يقوم بإصلاح هذه الجدران هل الذين يسكنون إلى جانب الأسوار المهدمة أو الذين يستفيدون من تلك المياه أثناء خروجها فيسقون منها بساتينهم وهو ما يؤكد لنا رواية ابن خلدون التي تشير إلى استفادة البساتين مـــن تلك المياه.

كما يلاحظ أيضا على نص ابن خلدون أن هناك مياه مدفونة تحـــت الأرض في قنوات كانت تتزود منها المدينة وبعض تلك القـــنوات تأتـــي مـــن الوريط وتصب في العباد.

كما لاحظ العقباني وجود عيون بأزقة المدينة كان يتوافد عليها السكـــان الذين لم يكن لديهم الماء بمنازلهم وبعض هؤلاء المتوافدين من العبيد ممـــا كـــان يؤدي إلى انحلال خلقي بين هؤلاء والجواري.

كانت تلمسان كغيرها من مدن المغرب الاسلامي تحتوي على متنزهات بخارج المدينة وهو ما يؤكده يحي ابن خلدون بقوله] وتخف بخارجها الخمائل الإلف والادواح الا شبة والحدائق الغلبة بما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعـــيـــن مـــن الفواكه والرمان والتين والزيتون إلى المتنزهات الرائعة والملاعـــب الحاليـــة والمعاهد الكريمة.

من بين الذين تعرضوا إلى الزراعة في محيط تلمسان العبدري26 حيـــث قال عنها: [والدائر بالبلد كله بالكروم وأنواع الثمار وهو ما يؤكده ابن خلدون الذي تعرض إلى المناطق المحيطة بمدينة تلمسان التي تميزت بعمرانهاوالتـــي

تبدو لنا أنها ترجع للعصور الغابرة، حيث تم تعميرها واستغلال أراضيها،وفي هذا الصدد يقول توسطت قطر داكور عديدة تعمرها أمشاج من البربر مربعة الجنبات منجبة للحيوان والنبات كريمة الفلح زاكية الإصابة ربما انتهت في الزوج الواحد إلى أربعمائة بالمد الكبير وهو ستون برشالة زنتها أربعة عشر رطلا من البر سوى الشعير والبقلاء حسبما تضمن ذلك رسم ثمان وخمسين وسبعمائة[1].

- ضعف سكان مدن الدولة:

عرفت مدن الدولة الزيانية خلال هذه الفترة موضوع البحث تقلص سكانها، فتلمسان كانت قبل هذه الفترة تعتبر من أكبر أمصار المغرب الأوسط بعد أن اتخذها بنو عبد الوادي عاصمة لدولتهم فنفقت بها أسواق العلوم والبضائع ونشأ بها العلماء واشتهر بها الأعلام فظهرت أمصار الدول الإسلامية وعلى الخصوص في عصرها الذهبي خلال حكم السلطان أبي تاشفين الأول حيث بلغ نحو مائة ألف ساكن أي ما يعادل عشرين ألف عائلة.

فإذا كانت تلمسان لا تقل أهمية عن سائر العواصم الإسلامية، كما يفهم من النص الذي أورده ابن خلدون، وإذا كان متوسط كل عائلة يتراوح مابين خمسة أو سبعة أفراد كما عرف عن الزيانيين من حب النسل والإكثار في الإنجاب، فإن سكانها قليلي العدد، وخصوصا إذ اقتربت بعدد سكان قرطبة والذي بلغ نصف مليون نسمة هذا و إن تلمسان استوعبت خلال القرن 9هـ/15م وطوال النصف الأول من القرن 10هـ/16م أعدادا هائلة ممن نزحوا من

1- عن عصر أبي تاشفين الأول الذي حكم مابين 718-737هـ، 1318 - 1337م، انظر نظم الدر و العقبان، ص 139، يحي بن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص 134.

الأندلس الذين استقر بعضهم بداخل المدينة بين الأغلبية أقاموا علــى ضـفاف نهر الوريط حتى الصفيصف كما أن ملوك بني زيان ســهروا علــى دمجهـم وصهرهم في مناحي الحياة الإجماعية[1].

وليس معنى ذلك أن عدد سكان الحاضرة الزيانية قد تزايدوا بعامل النزوح الأندلسي مع مر الأيام لكن هذا لم يكف لسد الفراغ الذي عرفه نمو السكان فــي هذه الفترة نتيجة لما يلي:

أولا: إن أراضي الدولة الزيانية ومنها مدنها عرفت أمراضا معدية كمرض الطاعون[2] الذي كانت تتعرض له باستمرار وقد أشار الرصاغ الذي كان مــن سكان تلمسان عند تعرضه انشاقة فقال: "إنه كان يقرأ القرآن في درب نفوســه فأصاب المدينة المرض فأدى إلى هلاك أغلب أطفال الكتاب الذي كان يقـــرأ به وحتى معلمهم"[3].

كما تذكر المصادر أيضا أن تلمسان عرفت في منتصف القرن9هـ/15م مرض الطاعون فأدى إلى هلاك مجموعة من الناس ومن بين هؤلاء العالم الجليل ابن زاغو التلمساني وفي نهاية القرن9هـ/15م[4] تعرض تلمسان لنفس المرض ومات من جرائه العالم الجليل ابن زكري[5] كما ذكرت الوثائق

1- عن الهجرة الأندلسية إلى تلمسان انظر السليماني، كتاب الشماريخ، ج3، ورقة 120.

2- الصباغ، زهر البستان، ورقة 17.

3- الرصاغ، فهرسة الرصاغ، ص 17.

4- ابن مريم: البستان ص 41.

5- ابن مريم: نفس المصدر، ص 41.

الإسبانية بأنه قبل السيطرة على المرسى الكبير من قبل الإسبان ظهـر ذلـك المرض في فاس وامتدّ إلى أراضي الدولة الزيانية ومنها مدينة تلمسان.

ثانيا: الحروب المتواصلة التي عرفتها تلمسان نتيجة الصراع بين أفـراد الأسرة من أجل العرش قد أدت بدورها إلى هلاك مجموعة من سكان المدينـة لأن بعضهم كانوا مؤيّدين والبعض كانوا من المعارضين، فيحدث الانتقام مما يؤدي إلى هلاكهم ومصادرة أموالهم.

كما أن الصراع بين العثمانيين والإسبان وأمراء الدولة الزيانيـة قـد أدى هـو الآخر إلى هلاك مجموعة من سكان المدينة، والوثائق الإسـبانية تـذكر بعض الأمراء وبعض أعيان مجمع تلمسان والأمراء الذين تولوا قيادة الجيش[1].

ثالثا: إن المصادر تتعرض إلى هجرة بعض أعيانها وعلـى الخـصوص علمائها[2] مما أحدث فراغا. لكن من جهة أخرى يبدو أن هنـاك هجـرة مـن الريف نحو المدن لأن الفوضى التي كان يتخبط فيها الريف الزيـاني جعلـت السكان يفضلون الإقامة بمدن الدولة حتى لا يتعرضوا للـسلب والنهـب مـن شيوخ القبائل واللصوص الذين احترفوا مهنـة اللـصوصية للاعتـداء علـى أمـوال الناس.

وبذلك يكون عدد سكان تلمسان يتناقص ويتزايد أحيانا بقوى وهذا راجع لعدم الاستقرار فأصبحت حاضرة الدولة تعيش جوا من التروح إليها من جهة والهجرة منها إلى حيث الإمارات الانفصالية من جهة أخرى، في فترات

1- G.A le Gaja. F39

2- عن هجرة هؤلاء العلماء انظر ابن مريم: البستان، ص52، 53، 149، 107، 105، 155، 162، 224، 226.

متقاطعة فيما بين1500و1554 تبعا للظروف المتجددة بها ومـــا تبــقى مـــن مملكتها.

ويفيدنا الرحالة الحسن الوزان[1] بما شاهده بعاصمة بني زيان التي مكث فيها عدة أشهر فقال عنها مدينة كبيرة وهي عاصمة المملكة، وقال أنها مدينة صغيرة توسعت على إثر تهديم أرشقول[2] بعد أن جابت جيوش المنصور الأموي عن البلاد وعلى عهد بني زيان ازدادت لدرجة أنها وصلت إلى ستـــة عشر ألف منزل على عهد السلطان أبي تاشفين وبلغت في الحقيقة درجة مـــن الازدهار جدا ثم استطرد قائلا:

وعندما ضعف حكم بني مرين شهدت تلمسان تغيرا سكانيا وصل عدد منازلها إلى ثلاثة عشر ألف بيتا لأن المدينة كانت قد عانت الشيء الكثير نتيجة للحروب التي قام بها المرينيون ضد تلمسان وعلى الخصوص في عهد أبي الحسن المريني[3] الذي هدم قصور بني زيان التي توجد بخارج الأسوار[4].

ويوجد بها حي يهودي كبير يحوي حوالي خمسمائة منزل ليهود أثرياء كلهم تقريبا يضعون على رؤوسهم عمامة صفراء، لكن هذا الحي تعرض

1- الحسن الوزان، وصف إفريقية، ج2، ص23.

2- أرشقول: من أهم الموانىء خلال القرن الرابع الهجري،10م اشتد التنافس عليها بين الأمويين والفاطميين، عنها انظر البكري المغرب، ص67.

3- هو السلطان أبو الحسن المريني حكم ما بين731-749هـ،1331-1348م وعن هذه الأحداث، انظر يحي ابن خلدون، بغية الرواد،ج1، ص160، عبد الرحمن بن خلدون، العبر،ج7، ص777. التنسي، الدر والعقيان، ص 145.

4- حدث ذلك عند نزوله بتلمسان يوم11 شوال735هـ، جوان1335. انظر نظم الدر والعقيان، ص145.

للنهب والسلب في عهد السلطان مولاي محمد[1].

- **ثانيــا: وهــران:**

هذا فيما يتعلق بتلمسان عاصمة الدولة الزيانية أما مدينة وهران قبل1509 التي تعتبر المدينة الثانية بعد تلمسان تأثرت هي الأخرى نتيجة للأوضاع التي عرفتها الدولة الزيانية، فقبل الاحتلال الاسبان لها زاد عدد سكانها بفضل المهاجرين الأندلسيين[2] الذين توافدوا عليها من مدن الدولة الناصرية كغرناطة ومالقة بعد سقوطهما في يد الأسبان سنة 898هـ/1492م وكون بالمدينة أسطول حربي استعمل في مهاجمة المدن الإسانية وتحرير مجموعة مـن المهاجرين الأندلسيين قبل وصول الأخوين عروج وخير الدين، واعتبر الأسبان أن من بين دوافع الاحتلال القضاء على هؤلاء القراصنة في رأيهم الذين أفسدوا مجموعة من القرى القريبة من البحر المتوسط وقد كتب سكانها مجموعة من الرسائل للسلطة الإسبانية ورجال الكنيسة لإنقاذهم من هذه الإغارة على السفن القادمة من وهران والمرسى الكبير وبجاية، كما وجد بالمدينة مجموعة من الأسرى المسيحيين أخذوا في هذه الحروب كان بعضهم يعمل بالسفن مجدفين والبعض الآخر بالبساتين المحيطة بوهران.

وهناك مجموعة من أفراد الجالية اليهودية[3] كانوا يحتكرون النشاط التجاري بها ويشرفون على أخذ الضريبة الجمركية من مينائها لصالح الدولة الزيانية.

1- الحسن الوزان، المصدر السابق، ص25.

2- عن تواجد الأندلسيين بمدينة وهران قبل احتلال الإسبان لها انظر أبو راس عجائب الأسفار، ورقة 136انظرأيضا: Berbrugger,(A) Oran sous les espagnols, traduction de rapports officiels espagnols sur la prise de mers el kebir en 1505 R.A. 113, 1869, PP 100-115

3- عن هؤلاء اليهود انظر المرحلة القصرية ورقة 30.

لكن هذه المدينة فقدت سكانها بعد احتلالها من قبل الأسبان، حيث قتل بداخلها أربعة آلاف وأسر من أبنائها خمسة آلاف تحولوا إلى عبيد بيعوا في الأسواق الإسبانية وعلى الخصوص مالقا وقرطاجنة حيث توجد بهما وثائق تتعلق بهؤلاء الأسرى الذين أخذوا من وهران والذين نقلوا فيما بعد نتيجة للغارة التي كانت تشن من طرف الحامية الإسبانية في كل من وهران والمرسى الكبير.

- ثالثا: المرسى الكبير[1].

أما المرسى الكبير فتعرض هو الآخر إلى نفس المصير الذي أصاب وهران، فتخلى عنها سكانها بعد اتفاق تم بين قائدها والمحتلين الأسبان وتوزعوا على المدن الزيانية والبعض منهم فضل الإقامة في الجبال المجاورة للمدينة.

ومن بين المدن التي استقبلت المهاجرين من المرسى الكبير ووهران ومزغران ومستغانم قلعة بني راشد لكن هذه المدن كانت هي الأخرى تعاني من الحروب المتواصلة فقد تم تهديم مدينتان تعتبران من أهم المدن.

البطحاء[2] القريبة من عين تيموشنت التي تأثرت بالحروب التي عرفتها الناحية قبل الاحتلال الإسباني لوهران وبعده ولا يوجد الآن أي أثر للمدينة.

1- عن احتلال وهران انظر أبو راس، عجائب الأسفار، ورقة 40، الرحلة القمرية، ورقة39، انظر1 cajo le المؤرخة في شهر ماي1510 توجد بسيمنكاس don pedro navaroأيضا رسالة بيدر ونافارو Collection de decumentos inedites para la historia de Espana T XXXVI, PP 561-565 نشر ضمن الوثائق .F117

2- عن البطحاء و الكرط، انظر المشرقي، الياقوتة الوهاجة، ورقة 59-60.

ونفس الشيء بالنسبة للكرط التي هدمت من الأسبان و انسحب سكانها إلى الجبال المجاورة لها وحدث نفس الشيء بالنسبة لقلعة بني راشد التي هدمت أغلب مرافقها ودورها بعد القضاء على الحامية التركية بها منه، كما عمد الإسبان إلى تهديم مدينة هنين التي تعتبر من أهم موانىء الدولة الزيانية ومساكنها من أجمل مساكن مدن الدولة، لكن عند خروج الأسبان منها عمدوا إلى تحطيم كل ما فيها حتى لا يستفيد منها سكانها الذين كانوا قد خرجوا منها قبل الإحتلال الإسباني لها سنة 938هـ، 1531م[1].

وهكذا نجد بأن الأسبان هدموا مدن الدولة الزيانية، كما فعل شيوخ القبائل العربية الذين كانوا يقومون بمضايقة سكانها مما جعل أهلها يرتحلون عنها ومن بين تلك المدن مستغانم، التي قال عنها الحسن الوزان أنها فقدت جزءا من سكانها نتيجة لمضايقة العرب لها، لكن يبدو لي أنها استعادت ما فقدته بعد تحصين العثمانيين لها وفشل الإسبان مرارا في السيطرة عليها.

ومن بين المدن التي تأثرت بهذه الحروب مزغران[2] التي واجهت مرارا الغارات الإسبانية، وهدم هؤلاء بعض مرافقها في خلال الحملة التي مات بها الكوديتي عمد إلى قلع أحد أبوابها وضع منها منجنيق لقذف تحصينات مستغانم.

وما حدث لمستغانم عرفته مازونة التي أساءت إليها القبائل العربية فأثروا على أحوال السكان بها وهو ما جعل الوزان يقول إن بها نساجين لايستطيعون تقديم رواتب عملهم لكثرة مضايقة العرب لهم.

1- عن تهديم هنين انظر الفصل الثالث من الباب الأول

2- الحسن الوزان، المصدر السابق، ص237.

- ثانيـــا: المـــدن الثـــانويـــة:

من بين المناطق التي تضررت نتيجة الحروب التي عرفتها أراضي الدولة: منطقة أغبال[1] التي عرفت بكثرة سكانها قبل القرن9هـ/16 لكن انتقال القبائل العربية إلى الناحية وعلى الخصوص أشراف مليانة دفع بالسكان القدماء إلـى تركها.

يضاف إلى ذلك أن المدينة كانت قد تعرضت إلى التخريب خلال الصراع الذي عرفته الدولة الزيانية وعلى الخصوص مع الدولة المرينية حيث عمـد أبو الحسن المريني إلى تخريبها خلال حملته على أراضـي الدولـة الزيانيـة 737هـ/1336م ولم يعمد ملوك بني زيان إلى إعادة بنائها وهو مـا جعـل مرمول يعلق على ذلك بقوله: تخريب المدينة على يد ملك من فاس ولم تعمـر بعد ذلك ولا تزال جدرانها قائمة في عصره ق10هـ/16م.

وما يقال عن مدينة أغبال ينطبق أيضا على مدينة البطحاء التي كانت تعتبر من أبرز المدن الواقعة على ضفاف وادي مينا لكننا لا نعرف متى وقع تخريبها ويبدو أن ذلك تم خلال القرن9هـ/15 نتيجة الحروب التي عرفتها الناحية في عهد أمراء الدولة المتأخرين.

وهو ماجعل مرمول[2] يعلق عليها بقوله: "خربها الزناتيون من قبيلة مغراوة ولم تعمر بعد ذلك".

1- جبل أغبال بالقرب من وهران يتشكل من ثلاث قرى معمورة، انظر مرمول، المصدر السابق،ج2، ص352-353.

2- يحدد مرمول موقعها فيقول تقع على ضفاف نهر مينا هو نهر وادي بسا وبذلك فهي لاتبعد كثيرا عن مينا وبعض سكان غليزان يعتقدون أن المطمر القريب من غليزان شيد على أنقاضها،عنها انظر مرمول، المصدر السابق،ج2،ص326.

لأن من خصائص البدو الخروج على الطاعة وتحدي الدولة وشتى الغارات ونشر الفوضى مما جعل مدن بني زيان تتعرض لضرباتهم ومن بين تلك المدن مازونة، غليزان حاليا، هذه المدينة تعرضت إلى التخريب من قبل القبائل العربية التي استقرت بجوارها وقد تعرض لذلك المازوني من خلال مجموعة من النوازل تناول فيها ضغط هذه القبائل على سكانها مما جعلهم يعجزون حتى في إعادة بناء سورها الذي تهدم نتيجة لغارات القبائل عليها وقــد علق عليها الوزان فقال[1]: سكانها فقراء تقريبا لأن العرب يثقلون كواهلهم بالأقوات.

وإن أخطر القبائل البدوية التي امتد نفوذها خلال القرن8هـ/14م نحو المناطق الساحلية بأراضي الدولة الزيانية جعل السكان يتخلون عن الأراضي الصالحة للزراعة ويستقرون بالمرتفعات الجبلية للدفاع عن أنفسهم.

فسكان بني يزناسن استقروا بالمرتفعات بين مغنية و وجدة وقد لاحظ مرمول كثافة سكان تلك الجبال وفي هذا الصدد قال يضم الجبل مداشر عديدة وفي أعلى الجبل قلعة حصينة يقيم فيها أمراء البلاد[2].

أما تسالة القريبة من مدينة سيدي بلعباس فكانت عبارة عن مدينة محصنة تعرضت إلى التخريب خلال الحروب بين الدولة الزيانية والدولة المرينية ولم تعمر منذ737هـ/1337م مما أدى بسكانها إلى اتخاذ الخيام مسكنا لهم مما سهل لهم مهمة الحركة عندما يتعرضون إلى أخطار خارجية وبذلك تحولوا

1- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص27-28.

2- مرمول، المصدر السابق، ج2، ص 350-352.

مـــن مستقرين إلى قبائل بدوية رحالة[1].

واستمر الخطر المحدق بهم خلال فترة موضوع البحث لأنه على الرغم من وجود حصن بالقرب من القرية المخربة فإن السكان لم يستقروا به خوفا من الغارات الإسبانية التي كانت تمتد من وهران والمرسى الكبير إلى ضواحي سيدي بلعباس وهو ما جعل مرمول يعلق على ذلك بقوله "المسلمون لايجرؤون على سكن هذا الحصن خوفا من المسيحيين".

يضاف إلى تسالة مدينة مستغانم[2] التي هجرها سكانها خوفا من غارات القبائل العربية من جهة والأسبان من جهة أخرى وهو ما دفع الوزان إلى التعليق على ذلك بقوله "في خارجها عدة بساتين جميلة لكنها مهجورة".

امتدت عملية التخريب إلى مدينة شرشال[3] التي كانت في يوم من الأيام عاصمة للدولة الجزائرية، إلا أنها تعرضت للتخريب نتيجة الحروب التي عرفتها الناحية خلال عهد الدولة الزيانية، لكن أعيد بناؤها من طرف المهاجرين الأندلسيين الذين انتقلوا إليها بعد سقوط غرناطة، فعمروا قلعتها وزرعوا الأراضي المجاورة لها وبذلك أعادوا إليها الحياة[4].

يضاف إلى شرشال حصن تمزيزدكت[5] الذي كان يعتبر من أحصن حصون الدولة، فقد لجأ إليه يغمراسن عندما داهمته الجيوش الحفصية بقيادة سلطانها

1- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص25، مرمول، المصدر السابق، ج2، ص325.
2- الحسن الوزان: نفس المصدر، ج2، ص32، مرمول، المصدر السابق، ج2، ص 350.
3- نفسه ج2، ص34، مرمول، المصدر السابق، ج2، ص366.
4- الحسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص34.
5- نفسه ج2، ص11.

أبو زكرياء 639هـ/1240م، لكن خلال القرن10هـ/ 16م تعرض الحصن إلى التخريب نتيجة لانتقال القبائل البدوية إلى تلك النواحي، فدفعوا السكان إلـى التخلي عنه وأصبح العرب يخزنون حبوبهم به خلال قيامهم بالرحلة إلـى الواحات الصحراوية وعلى الخصوص إقليم توات ووادي الساورة.

وللأهمية الإستراتيجية للحصن عمد الأتراك إلى إعادة تحصينه لأنه يشرف على الطريق المتجه نحو المغرب الأقصى، ولعل ذلك تم بعد ضم تلمسان إلـى الدولة الجزائرية الحديثة في عهد عروج. وما يقال عنه يقال أيضا على حصن أيسلى[1] الذي كان يعتبر من أهم الحصون إلا أنه تعرض للتخريب خلال الحروب التي دارت رحاها بين الدولة الزيانية وأعدائها. ومن بين المدن التـي تعرضت إلى التخريب ندرومة[2] التي تعرضت إلى الحروب الطاحنة منـذ تأسيس الدولة حتى سقوطها. وبالقرب منها تبحيرت[3] التي لا تبعد كثيرا عن الشاطئ لذلك تعرضت لعملية القرصنة وكانت أول المدن الزيانية التـي تعرضت لعملية القرصنة من قبل الأسبان، وقد زاد خوف السكان من سقوطها بعد احتلال مدينة هنين1531 من قبل الأسبان مما دفع مرمول[4] إلى القول "يقطن هذه الجبال برابرة كانوا يعيشون في خوف دائم عندما احتل الأسبان هنين لكنهم أصبحوا أكثر راحة بعد أن غادروها، وفي أسوار المدينة سلم كبير في شتى المواضع لذلك لا يرغب الناس كثيرا في الإقامة بها.

1- نفسه ج2، ص12، مرمول، المصدر السابق، ج2، ص 293.
2- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص13، مرمول، نفس المصدر، ج2، ص295.
3- عن تبحريت انظر الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص14.
4- مرمول: المصدر السابق، ج2، ص269-352.

ومن المدن التي تأثرت خلال هذه الفترة موضوع البحث مدينة هنين[1] التي تركها سكانها بعد احتلال وهران ولم يبق بالمدينة إلا الحامية الزيانية.

وقد علق عليها الوزان بقوله مررت من هناك فتألمت كثيرا للحالة البائسة التي صارت إليها المدينة وحتى الفواكه التي كانت ببساتينها تسقط في الأرض ولا تجد من يقطفها[2].

ومن بين المدن التي تعرضت إلى التأثيرات السلبية خلال هذه الفترة مدينة مزغران[3] والسبب في ذلك يرجع إلى عاملين أساسيين:

أولا: غارات القبائل العربية عليها بعد تقدمهم إلى نواحيها فأصبحوا يهاجمونها وكذلك الإحتلال الإسباني لكل من وهران والمرسى الكبير. وقد مال سكانها إلى الوفاق مع النصارى لكي يسمح لهم بمزاولة المبادلات التجارية مع وهران وفي هذا الصدد يقول مرمول كانت في الماضي عامرة بالتجارة والصناع المياسير، ثم أصبح سكانها فقراء بعد سقوط مدينة وهران بيد النصارى وتوالي الغارات من العرب المجاورين بها.

ولذلك مال أهلها إلى الوفاق مع النصارى حيث كانوا يقدمون رموز العرفان في صورة جزية وليمكن عائلتهم التوجه إلى أسواق وهران.

وما يقال على مزغران ينطبق أيضا على جبال ترارة[4] بين هنين وندرومة حيث كانت تتعرض إلى غارات من الأسبان مما أدى بهم إلـــى التحـ

1- نفسه ج2، ص 296.

2- الحسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص 25.

3- نفسه، ج2، ص32، مرمول، المصدر السابق، ج2، ص 349.

4- مرمول: المصدر السابق، ج2، ص352.



فـــي الأبراج والحصون لأن هؤلاء كانوا يقصدون الشواطئ القريبة من تلك الجبال فيكمنون وراء الصخور وعندما يقترب السكان منهم ينقضون عليهم فـــي الليل في مداشرهم مما دفع السكان إلى القيام بالحراسة ليلا.

- ثانيـــا: الأريـــاف

من أهم مميزات فترة موضوع البحث والمتعلقة بالريف الزياني سواء فـــي شمال تلمسان أو جنوبها شرقها وغربها، الخروج على السلطة، انتشار اللصوصية، شن الغارات والاعتداءات على أموال الناس، التعرض للقوافل التجارية زيادة على الإحتلال الإسباني الذي يأتي على رأس هذه المشكلات بحيث احتل الأسبان المراكز الساحلية ومحاولاته المتكررة في التوسع نحـــو الداخل مما يؤدي إلى قتل وأسر تلك القبائل[1].

يضاف إلى ذلك استغلال شيوخ القبائل لأهل الريف وكذلك موظفي الدولة وأغلبهم من رؤساء القبائل الموالين الدولة[2].

- أثر الغزو الإسبـــاني على الريف الزيـــاني:

فيما يتعلق بالغزو الإسباني، كانت المنطقة الممتدة ما بين تلمسان ومستغانم وحتى نواحي هنين وندرومة بعد سيطرة الأسبان على منطقة تاوانت وهنين تعاني من تلك الغارات التي لا تتوقف ليلا ونهارا من قبل الإسبان أو القبائل السوالية لهم، وفي هذا الصدد يقول السليماني فيما يتعلق بالغارة على الأبعدين فكان يهاجم إبلهم ودورهم ويدوس عامرهم ومعمورهم مثل الحشم وبني راشد

1- عن تأثير الإحتلال الإسباني على أرياف الدولة الزيانية وعلى الخصوص النواحي القريبة من وهران انظر المشرفي: الياقوتة، الوهاجة، مخطوط بالخزانة العامة، بالرباط تحت رقم 2163، ورقة 46.

2- المازوني: الدرر المكنونة، ج1، ورقة 786.

ونحوهم من بعد وطنه تارة يؤدون الأتاوة وأخرى يظهرون العداوة، فهم من الأسبان من فطرة واستقامة وتشديد الإقامة[1].

والذي يستخلص من هذا النص يتمثل فيما يلي:

أولا: أن الإغارة كانت تهدف بالدرجة الأولى إلى الاستيلاء على المواشي والحبوب من مضارب تلك القبائل وهو ما تؤكده الوثائق الإسبانية والأمثلة على ذلك كثيرة منها:

أنه خلال الحملة الإسبانية على مدينة الجزائر التي قادها دومنكادا سنة 1518، وقبل وصوله إلى الجزائر نزل بوهران وأغار على القبائل المجاورة للمراكز الإسبانية وخاصة سهل هبرة، فأخذ أكثر من تسعة آلاف رأس من أغنام وبقر وجياد لتموين الحملة الموجهة ضد خير الدين[2].

عندما اشتدت الضائقة الاقتصادية بالكوديتي في وهران بقلة المواد الغذائية ورؤوس المواشي التي يحتاجها الجند نتيجة لمقاطعة القبائل لهذه المراكز وعدم تموينها لهم بالحبوب والمواشي، أمر قوته بالإغارة على أغبال، فاستولى على حبوبهم ومواشيهم وأسر مجموعة منهم حيث نقلوا إلى أسواق إسبانيا فبيعوا كعبيد[3].

1- المشرفي: الياقوتة الوهاجة، ورقة 47.

2- عن هذه الحملة انظر غزوات عروج وخير الدين لمؤلف مجهول: مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم 1622، ورقة 36، انظر أيضا Grammant H.D de l'histoire d'Alger sous la domination Turque 1515-1330, Paris, E. le Raux, 1887, P.

3- مرمول: وصف إفريقية، ج2، ص 352.

يضاف إلى ما سبق أنه خلال اشتداد الحصار على قوة الكوديتي واستيلاء رياس الأسطول الجزائري على السفن التي كان من المفروض عليها تزويد الاسبان المحاصرين لمستغانم، طلب أحد القادة خلال انعقاد المجلس الحربي للنظر في الوضعية التي أصبح عليها الجيش الإسباني، الانتقال إلى ضواحي وهران، وشن الغارات على مضارب القبائل للحصول على ما يحتاج إليه الجيش من المؤونة ثم العودة لحصار مستغانم من جديد

ثانيا: إن النص حدد بعض القبائل الحشم و بني راشد ومضاربهما تعتبر من أخصب الأراضي، وهذا ما يؤكد بأن الهدف من هذه الإغارة السلب والنهب.

وفي نص آخر يقول لما دخلت جيوش الاسبان مع أحلافهم من كيسة وبني عامر اكتسحوا سهل غريس وخربوا مدنه وقراه وتقدموا لما وراء عين أيفكان ووادي الحمام ،فاكتسحوا بلاد تسالة وأسروا الوالي الصالح الشيخ بلاحة المهاجي الحسني مع عائلته وذهبوا به لوهران إلا أنه فر من أسره بعافية ربانية مع عائلته[1].

فالنص يحدد لنا الأماكن التي كانت هدف الأسبان وهي المعروفة اليوم بأراضي ولاية عين تيموشنت ومعسكر وسيدي بلعباس التي تتميز بثرواتها الفلاحية، ولم يقتصر الأمر على أسر سكان الناحية بل تعدى إلى شيوخ الزوايا الذين كان لهم تأثير في المجتمع وعلى الخصوص حث الناس على محاربة

1- Malki Nordine, l'Algerie au XVI siecle, une convention inconnue et inedite entre les cheikhs de Mascara et les Espagnols d'Oran contre les othomans dans cette région dans la deuxieme moitie du XVI siecle en Mojallad et tarikh C.N.E.H. N° 24, 1992, PP 6-15.

الاسبان وهو ما تؤكده الوثائق الإسبانية التي أشارت إلى مشاركة هؤلاء في التجنيد واعتبرت فشلها في بعض المعارك ومنها معركة مزغران إلى الدور الذي قام به هؤلاء حيث أعلنوا الجهاد ضد الأسبان فتجند أغلب القبائل وحتى من كان مواليا للاسبان.

أما إطلاق سراحه فكان بتدخل من قبل شيخ من بني عامر الذي طلب من حاكم وهران إطلاق سراحه.

وحتى المدن بتلك الناحية تأثرت بهذه الحملات المتواصلة فخربت مدينة الكرط[1] وكانت عامرة أهلة فر منها سكانها إلى جبل الكسانة شرقي عريس وحل البعض بمضارب مغراوة ووادي فريحة.

ومن بين الذين تعرضوا لتأثير الغزو الإسباني من سكان أراضي الدولة الزيانية الجامعي عند تعرضه إلى تحرير مدينة وهران فأبرز لنا الأثر السلبي لاحتلال وهران والمرسى الكبير على السكان والذي لم يكن مقتصرا على النواحي المجاورة لوهران فقط بل امتد أيضا إلى أحواز تلمسان وحال دون استمرار العلاقة بين مدن وقرى الدولة وفي هذا الصدد يقول: "كانت الركاب العظيمة تعجز عن قطع المفازة البعيدة خوفا من النصارى ومن انضم إليهم من أيدي العدو وأعزوه وأذلوا المؤمنين لا سيما بنو عامر"[2].

1- مدينة الكرط لا تبعد كثيرا عن مدينة معسكر وعن تخريبها انظر المشرفي، المصدر السابق، ورقة 59.

2- الجامعي: فتح وهران، ورقة 45.

فالذي يمكن استنتاجه من النص يتمثل فيما يلي:

أولا: أن احتلال المرسى الكبير ووهران أثر في الأمن في أغلب أراضـــي الدولة الزيانية وخاصة الناحية الممتدة ما بين وهران ومستغانم، ووهـــران وتلمسان التي كانت من قبل مطروقة من القوافل التجارية خلال العصر الذهبـــي للدولة الزيانية.

ثانيا: أن القبائل العربية التي لعبت دورا لا يستهان به في انهيار الدولـــة الزيانية منذ عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني قدمت خدمات جليلة للأسبـــان تمكنوا من خلاله من مراقبة تحرك القبائل المعارضة للإحتلال الإسبانـــي والإغارة على مضاربها، وقد تنبه الاسبان لقوتها فاعتمدوها، ومـــن بين تلـــك القبائل بنو عامر الذين قدر الحسن الوزان[1] عددهم بستـــة آلاف فارس والجامعـــي بعشرة آلاف[2].

ثالثا: إن الغارات الإسبانية على مضارب هذه القبائل دفعـــت السكـــان إلـــى ترك منازلهم والتحصن بالمناطق الوعرة، وفي هذا الصدد يذكـــر الجامعـــي أن أبا عبد الله مصطفى القلعي كان رضي الله عنه يسكن بأهلـــه بيوت الشعر قرب غابة في رأس أهل بلده يأوي إليها ليلا ويقضي النهـــار فـــي داره أو مسجده يطالع كتبه ويقريء طلبته[3].

فالنص يوضح أيضا ما توصلنا إليه بأن القبائل كانوا يتركون منازلهم فرارا من الخطر الإسباني وهذه الظاهرة من مميزات المجتمع المغربي خلال مراحل

1- الحسن الوزان: المصدر السابق، ج1، ص 49.

2- الجامعي: نفس المصدر، ورقة 45.

3- الجامعي: المصدر السابق، ورقة 45.

حياته فهو يفضل الفرار إلى المرتفعات عند تعرضه للخطر ويؤكده ذلك ما بقي من أثار لحصون وقلاع بجبال جرجرة والونشريس والأوراس.

كما عمد البعض إلى اتخاذ بيوت الشعر(الخيم) للالتجاء إليها في الليل خوفا من غارة الأسبان وحلفائهم التي لا تتم إلا في الليل وهذا منذ بداية الإحتلال الإسباني لكل من وهران والمرسى الكبير[1].

وبعض القبائل كانت تلجأ إلى تجنيد حراس في الليل لمراقبة تحركات الإسبان. وهذا لم يقتصر على المناطق القريبة من وهران والمرسى الكبير بل شمل أحواز تلمسان وهو ما يؤكده الجامعي بقوله: " قال أبو حسون العبدلي أنه كان لا يهدأ لهم بال إلا إذا جعلوا من يحرسهم[2].

- **ثانيا: الغـزو القبلي**

لم يكن الأمر مقتصرا على غارة الاسبان فقط على مضارب هذه القبائل بل أن خطر الأعراب كان أشد على أوضاع الريف الزياني، خلال فترة موضوع البحث، وفي هذه النازلة يقول ابن مرزوق الحفيد ومحمد العقباني عن بني عامر[3] جبابرة لهم أوطان ورعية، هدد بعضهم بني عد في أوطانهم ورعايتهم وأخذ منهم على وجه العداء أشياء كثيرة فقاموا عليهم وأرادوا فتنة ومن بني عمهم"[4].

1- انظر الباب الأول من هذا الفصل

2- الجامعي: نفس المصدر ورقة 19

3- عن بني عامر انظر المشرفي في المصدر السابق ورقة 12 انظر أيضا:
Bayer Pierre: Historique de Beni Amer d ' Oranis des Origines au Sanats Consultsin R . O . M . M N° 24 , 1977AIX en Provence pp265- 267

4- المازوني: المصدر السابق ج1 ص265.

والشيئ الذي نستخلصه من هذه النازلة يتمثل فيما يلي:

أولا: إن هذه النازلة تعرضت إلى الصراع بين قبائل الدولة الزيانية وحددت لنا الأطراف المتصارعة وهم بنو عامر الذين أغاروا على بني عـــد فـــي مضاربهم المجاورة لبني عامر ولم توضح النازلة دوافع الإغارة لكن يبـــدو أنهـــا تتعلق بالسيطرة على تلك الأراضي التي تمتد ما بين معسكـــر وتلمسان مراكز استقرار القبيلتان.

ثانيا: إن هذه الغارة أدت إلى نهب وسلب ما كان في قبيلة المغير عليها وقـــد وقع سوء التفاهم بين شيوخ بني عامر كاد أن يؤدي إلى فتنة بينهم.

وتؤكد هذه النازلة تأثير تلك الغارات في الوضعية الاجتماعية بقرى الدولة الزيانية و في هذا الصدد يقول أبو الفضل العقباني عن أهل قرية رهن بعضهم عند بعض أنواعا من المال وأودع بعضهم عند بعض ودائع ثم بغي عليهم أقوام فسلبوا أموالهم وهتكوا حريمهم واستولوا على القرية وجلوهم عنها وادعى كل من بيده رهن أو وديعة أنه سلبه أولئك البغاة فهل يصدقون في ذلك. يستخلص من هذه النازلة مايلي:

أولا: أن بعض القبائل يعمدون إلى نقل أموالهم لقبائل أخرى ولعل السبب فـــي ذلك يرجع إلى تعرض مضاربهم للغارات من قبل قبائل أقوى منهم، لكن هـــذا كان يطرح مشاكل ،لأن تلك القبائل عند تعرضها إلى الإغارة تدين بأن مـــا كـــان عندها من أموال ورهائن سلب منها.

ثانيا: إن هؤلاء الذين يغيرون على تلك القبائل يعمدون إلى سلب كل مـــا يجدونه، وبذلك أصبحت حياة هؤلاء الريفيين لا تختلف عما كـــان سائـــدا

فـــي المجتمع البربري قبل الفتوحات الإسلامية خلال القرن الأول الهجري/ السابـــع الميلادي.

ثالثا: إن بعض القبائل كانوا يضطرون إلى التخلي عن مضاربهم لصالح القبائل القوية فينسحبون إلى المرتفعات الجبلية ليتحصنوا بها وقد أقامـــوا فـــوق تلك المرتفعات قرى وقلاعا وحصونا للدفاع على أنفسهم من الإغارة عليهـــم سواء من قبل هذه القبائل أو الحملات التي كانت ترسلها الدولـــة لجـــبي الضرائـــب منهم وعندما يرفضون تسديدها يحاصرون وتمنع مواشيهـــم مـــن الرعـــي فـــي الأراضي التي يتوفر فيها الكلأ.

وحتى كتب الرحالة تعرضت هي الأخرى إلى هذه الصراعات بين القبائل وعلى الخصوص الأعراب ومن بين هؤلاء الرحالة الذين أشاروا إلى هـــذا الموضوع الرحالة المصري عبد الباسط خليل الذي زار تلمسان في النصف الثاني من القرن9هـ/15م.[1]

وقد بين لنا من خلال مجموعة من النصوص تلك الغارات التي كانت تستهدف المواطنين والقوافل التجارية ومن بين المسالك المعرضة للغارات تلـــك التي تربط عاصمة الدولة الزيانية بفاس وعلى الخصوص ناحية انجـــاد التي توجد بها بعض بطون القبائل العربية مثل الحداج مهنتها الاغارة عـــلى القبائل والقوافل التجار.[2]

1- Brunchvie Robert : Deux Recits De Voyages Inedits En Afrique Du Nord Au XV siecle Abdelbassat Khalil

2- Ibid , P 659

كما تعرض الحسن الوزان أيضا إلى تلك الغارات بعد تعرضه إلى القبائل العربية، ومكان استقرارها، بين لنا من خلالها بأن تلك القبائل كانت تستغل بالغارة وقد حاول أمراء الدولة الزيانية إبعادها عن هذا العمل بتقديم أموال لها، لكن سياستهم لم تؤد إلى نتائج مرضية.

أما الرحالة الإسباني مرمول[1] فقد تعرض إلى ذلك الصراع القبلي وقال عن ترارة[2] أن جبلهم وعر قريب من هنين يسكنه البربر الغلاة الأجلاف وهم في صراع دائم مع سكان هنين وقد عانوا غير ما مرة فسادها قبل تخريبها.

يستخلص من النص مايلي:

أولا: إن جبل ترارة يقع في أعالي هذه المدينة وتسكن محيطة بعض بطون مديونة التي تركت مضاربها في الأراضي الخصبة نتيجة للحروب التي عرفتها الناحية خلال مراحل الدولة الزيانية بين هذه القبيلة وسلاطين الدولة وبين بني زيان وبني مرين، وقد تأثرت مضارب تلك الفبيلة بهذا الأمر.

ثانيا: إن فقر هذه المضارب الجديدة جعل هؤلاء السكان يعمدون إلى الإغارة للحصول على ما يحتاجون إليه من أسواق هنين التي تعتبر من أغنى موانئ الدولة الزيانية بعد سقوط وهران والمرسى الكبير في يد الأسبان[3].

---

1 – مرمول: المصدر السابق، ج2، ص 352.

2 – عن ترارة انظر الحسن الوزان، ص 44.

3 – عن سقوط هنين بيد الإسبان، انظر: Feg: Henri lion: Histoire d'Oran. avant, pendant, et aprés la domination espagnole. Oran. A Perrier, 1878 et Paris 1959, PP 156-169.

ثالثا: لم يشر مرمول إلى الدور الذي قامت به هذه القبيلة، وعلى الخصوص سكان جبل ترارة بالتضييق على الحامية الإسبانية في هنين، مما جعلها تنسحب من المدينة.

رابعا: أن مرمول[1] تعرض إلى تخريب المدينة وسكت على من خربها، لأن المخربين هم أبناء جلدته الذين عمدوا قبل خروجهم منها إلى تهديم مبانيها وفعلوا ذلك عندما فرض عليهم محمد الكبير ترك وهران 1792م[2].

ومن بين القبائل التي ورد ذكرها من قبل مرمول بنو زناتة الذين قال عنهم: "وجبل بني زناتة تمرسوا بالحرب حين خاضوها ضد ملوك الاسبان وضد العرب ولهم من القوة ما يجعلهم في قتال مستمر ضد الأتراك والأشراف وعرب الصحراء بمنعة جبلهم ومن عادتهم الدخول في خصومات ونزاعات حول السلطة مما يسبب التقاتل الشديد لكن عندما يهددهم مصدر من الخارج يتحدون لمقاومته"[3].

يستخلص من هذا النص مايلي:

أولا: أن هذه القبائل كانت مجندة تجنيدا كاملا، منهم الفرسان والمشاة وتتوفرت لديها الأسلحة الكافية لمواجهة الطامعين فيها ولذلك فهي لم تفرق بين القوة المصارعة من عثمانيين وإسبان وسعديين وقبائل عربية وخطر خارجي فيتحدون لمواجهة الخطر.

1- مرمول، المصدر السابق، ج2، ص: 223

2- عن تحرير وهران سنة1792 انظر ابن زرفة،الرحلة القصرية،مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم2597 ج. تعرض فيه إلى ظروف التحرير ورقة إلى 350 ورقة.

3- مرمول،ج2،ص234.

وأحيانا نجد هناك تحالفا بين سكان الريف والمدينة القريبة منهم لمواجهة القوة الخارجية مثل ما هو الحال بالنسبة لمطغرة[1] الذين كانوا يدا واحدة مع أهل ندرومة لمحاربة أمراء الدولة الزيانية، هذه الحروب بدأت منذ تأسيس الدولة.

- أثر شيوخ القبائل على الأرياف:

هذا فيما يتعلق بالصراع بين القبائل، لكن هناك دور سلبي من قبل شيوخ القبائل ونستدل على ذلك من نازلة يقول عنها المازوني[2]: "سئل عن عمر بن عباس العباس عن أمير قرية، كثر الظلم والعداء على أهلها في أموالهم بسبب أوبغير سبب، ويأخذ البريء والمتهم وله في القرية عمال يوظفهم للبحث على من يدعي بدعوة كأن يقال فيه أنه سرق فلانا، كما كان القول حقا أو باطلا أو قصد به قائله أخذ شكاية من المقول فيه لنعلمه أن كل ذلك يسعه العمال المكلفون للبحث عن مثل ذلك يوصفون ذلك إلى الأمير فيأمرون بأخذه وسلب أمواله وربما يجعل لهم جعلا على ذلك فتراهم يجتهدون في الكسب في أخذ أموال الناس بسبب وشاياتهم للأمير فشاء الله أن عجبت فرس وحل الليل فقال ما فعل في هذا وخرج بهذا إلى الأسواق والأزقة بمحضر الغوغاء وغيرهم مع علمه أن قوله يصل إلى العمال المذكورين وإنهم يوصلونه إلى الأمير المذكور".

1- مطغرة من بين القبائل البربرية التي توجد مضاربها بين هنين وندرومة عنها انظر Basset Rene Nedrouma et les traras ernest le Raux، Editeur Paris، 1901، P.

2- المازوني، المصدر السابق، ج2،ورقة 199.

فالذي يستخلص من هذا النص يتمثل فيما يلي:

أولا: أن هؤلاء الأمراء الذين عينتهم الدولة للإشراف على شؤون الرعية كانوا يلجأون إلى طرق ملتوية من أجل السيطرة على أموال الناس بغير حق فيؤخذ البريء والمتهم.

ثانيا: أن هؤلاء الأمراء كانوا يقومون بتجنيد مجموعة من العيون يتصنتون على الناس في الأزقة والأسواق والطرقات وكل من وجد بأنه يقول في الأمير وأعوانه يتهم بالظلم والفسق يقضي القبض عليه ويسلم إلى الأمير الذي يأمر بمصادرة أمواله، وهؤلاء العيون كانوا يتقاضون أموالا من هؤلاء الأمراء للخدمات التي يقدمونها لهذا الأمير.

وهناك نازلة أخرى أوردها المازوني جاء فيها: "سئل شيخنا أبو الفضل العفياني عن رجل كان من جبابرة العرب، وأهل المغالطة منهم ألهمه الله ونشده وقاده للخير، قال بأنه تقدمت منه غضوبات وأخذ أموال الناس بالغضب وغيره وبيده الآن ما يكفي لبعض من عليه فرد لبعض أهل التباعات وجهل آخرون"[1].

وهكذا نلاحظ بأن ظلم هؤلاء كان كبيرا في أرياف الدولة إلا أن بعضهم يشهرون توبتهم ويرجعون ما غصبوه من أهله وفي نازلة أخرى قال فيها المازوني: "سئل عبد الرحمن الوغليسي عن رجل أخذ دراهم من رجل مستغرق الذمة ولم يحص ما عليه من التبعات غضب وزكاة ,وهو من يتولى قبض المغارم ويدفعها للظلمة و يتركون لهم نصيبا من المظالم وعندما حصلت

1- المازوني ،المصدر السابق،ج2 ،ورقة 256.

بيده الدراهم المذكورة وكان في سنة مجاعة"[1].

ومن بين النوازل التي تعرضت للأثر الذي عرفه الريف الزياني خلال هذه الفترة ما أورده المازوني[2] من خلال هذه النازلة فقال: "سألت الفقيه محمد بن القاسم المشدالي[3] عن مسألتنا وهي أهل قرية استولوا عليهم بعض الأعراب ولا يخفى عنكم حال العرب مع الرعية،يطالبونهم بوظائف شتى كغرائم الجنات ووظائف الحرف يوقفون على الرجل حرث مضمن مثلا كل سنة ويعينون له الأرض ويغرم عليها حرثها ولو لم يحرثها، وعادتهم مع أهل القرية أن الرجل منهم يسكن داره ويشغل مشغلاته ويعطي الوظيف الذي عليه وإن أراد أن يبيع شيئا من ريعه منعوه".

فالذي يستخلص من النص مايلي:

أولا: إن أراضي الدولة الزيانية عرفت تغييرا في ميزان القوى بين القبائل البربرية التي سبق لها أن استولت على تلك أراضي بعد ثورة ابن غانية[4] وعلى الخصوص القبائل الزناتية[5] لكن سوء العلاقة فيما بينها بعد تأسيس الدولة الزيانية واستعمالها من قبل القوى المعادية لبني زيان كالحفصيين والمرينيين جعل بني زيان يعتمدون على القبائل الهلالية فزاحموا الزناتيين واستولوا على

1- نفسه ،ج2، ص 237.

2- المازوني ، المصدر السابق، ج2، ص 96.

3- عن محمد بن أبي القاسم المشدالي ، انظر ابن مريم ،ص 250.

4- عن ثورة ابن غانية انظر ابن خلدون،العبر،ج6،ص581،و مابعدها

5- عن سيطرة القبائل الزناتية على المغرب الأوسط انظر الباب II، الفصل Iمن هذه الرسالة،ص 270 وما بعدها عن عدد السكان انظر الوزان المصدر السابق ج 2 ص 51-57 مرمول المصدر السابق ج2 ص 225 -352.

مضاربهم واستغلوها.

ثانيا: أن الهلاليين أمثال بنى عامر وسويد لم يتوقفوا عن الاستقرار في مضارب قبائل زناتة بل فرضوا ضرائب جائرة على من تبقى منهم في مضاربة وعلى الخصوص، الفلاحين الذين فرضت عليهم ضرائب دفعت بالبعض منهم إلى التوقف عن النشاط الفلاحي، لأن ما ينتجونه يقل عن ما يقدمونه لشيوخ القبائل الهلالية.

ثالثا: أنهم منعوا من التصرف في أرزاقهم فهم لا يستطيعون بيع جزء منها لأن هؤلاء يمنع عنهم المشترين وهو ما يؤكده المازوني بقوله: "إن باع شيئا منعوا المشترين من الشراء ويستغلون هم أنفسهم إن غاب البائع وإن رحل الرجل وترك داره أخذوا الكراء ممن يسكنها وربما يكريها وكيلهم على يده"[1].

فلم يتوقف هؤلاء عن منعه من التصرف في أمواله بل يعمدون إلى استغلالها لصالحهم حين يغيب عليها، لأن القبائل الضعيفة تلجأ في أغلب الحالات إلى ترك مضاربها عندما تعجزعن الدفاع عليها، وهذه الظاهرة تتجلى لنا بوضوح عندما نتصفح كتب الرحالة أمثال الحسن[2] الوزان ومرمول[3] يشير إلى كثرة سكان جبال الدولة الزيانية مثل الونشريس وطرارة ومطغرة وهذا راجع بالدرجة الأولى إلى سوء معاملة الهلاليين لهم وهو ما يؤكده الوزان[4] بقوله: "تسكن عقبة ضواحي مليانة وبمدهم ملك تنس بقليل من المال لكنهم فتاكون بدون شفقة ولا رحمة".

1- المازوني، المصدر السابق، ج2،ص96

2 الحسن الوزان، المصدر السابق ،ج2، ص 50-57.

3 مرمول، المصدر السابق ، ج2 ص 325-352

4 الحسن الوزان، المصدر السابق ،ج2، ص 50.

وحتى فرسان الدولة الزيانية كانوا يعمدون هم الآخرون إلى السلب والنهـــب وهو ما توضحه هذه النازلة فقال المازوني سئل العقباني عن رجل لقيه فارس من الخدمة في الطريق في وقت فتنة فسلبه من ثيابه وذهبيته وجـــدها عنده .فبعد أيام تاب هذا الفارس وخرج عن جميع ما بيده من العيـــن والزرع ووضعه بيد أهل العلم ليفرقه على بعض أصحابه ممن يستحقه مـــن الفقراء والمساكين"[1].

يستخلص من هذا النص مايلي:

أولا: أن جنود الدولة كانوا يعمدون إلى النهب خاصة عندما يتجهون إلـــى القبائل التي كانت تعارض الدولة الزيانية وأغلبها قبائل السبية ينهبون كـــل مـــا يجدونه في طريقهم وهو ما يجعل السكان ينفصلون عن هذه الدولة وينظمون إلى أعدائها.

ثانيا: أن هؤلاء الفرسان عندما يتخلون عن عملهم هذا، يدعون أنهـــم تابـــوا مما جعلهم يقدمون جزءا من هذا المال للفقراء والمساكين. وحتـــى قـــواد الدولـــة كانوا يعمدون إلى عملية النهب والسلب. وفي هذا الصدد يقـــول المازوني: "ســـئل عن رجل أخذه قائد وطنه يشكون أهل دواره بامالته لهـــم واشغاله بهـــم عند الولاة والخدام وغير ذلك ولم يقتله حتى أخذ منه عدة دنانـــير وكرسي مـــن بيته فلما راء أحد أقربائه قدم الدنانير بتسريحه"[2].

---

1 المازوني، المصدر السابق ، ج2، ورقة 257.

2- نفسه ج2،ص 266.

يستخلص من النازلة مايلي:

أولا: أن كل قائد يكون تحت تصرفه مجموعة من الولاة والخدام، وهؤلاء يكونون صلة وصل بينه وبين الرعية.

ثانيا: إن هؤلاء القادة كانوا يستغلون مناصبهم لتحقيق مآربهم الذاتية ويزاولون عملية الرشوة مثل ما هو عليه الآن وربما أكثر من ذلك فإنهم عندما يقبضون على أي شخص يرفضون إطلاق سراحه إلا بعلاوة. فهؤلاء الناس الذين كانوا يعانون من قساوة حكامهم يتوافدون على البعض من ذوي الجاه الذين لهم تأثير على الرعية للدفاع عن حقوقهم في هذا الصدد يقول المازوني[1] "سئل أيضا عن رجل له سطوة في تغيير المنكر في قبيلته فأتى إليه بعض أهل بلده مع سكانهم يشكوا بعضهم بعضا فهؤلاء كان من المفروض أن يتوجهوا إلى مسؤولي الدولة لكن هؤلاء لا يقومون بالدور المنوط بهم.

- **غـــارات القبـــائـــل:**

إن أخطر ما كان يواجهه الريف من غارات الأعراب، وفي هذا الصدد يقول المازوني "سئل عن قوم يتكسبون في وطنهم وفي الوقت نفسه يخافون من العرب كما رأيت هرج هذا الوقت ولا شك أن الخوف مشكوك فيه هل لهم المقام بذلك الموضع"[2]. يستخلص من النازلة أن الأمن في الريف كان منعدما مما جعل السكان يفكرون في ترك قراهم وأراضيهم للهجرة إلى مناطة محصنة. وفي بعض الحالات كان هؤلاء يقدمون أموالهم لهؤلاء الشيوخ ى لا تتعرض قراهم إلى الغارات المتوسطة من قبل هؤلاء المغيرين، وفي هـــذا

1- المازوني، المصدر السابق، ج2 ، ورقة 233.

2- نفسه ج 2 ، ورقة 234.

الصدد يقول المازوني[1] سئل عن الرجل من أشياخ القبائل يتوب ويأتي من جهة العرب أو بعض المفسدين ما يحتاج القبيل لمدافعته بعطاء أو غيره وليس لهم من يسقط ذلك عليهم بالعدل، إن في وطنهم اليتامى والهجاجل وإذا تركه تولاه غيره ممن لا يحسن ذلك وربما يخيف في تقسيطه وهو يدافع على الوطن لئلا يخرب. فالذي يستخلص من النص يتمثل فيما يلي:

أولا: أن شيوخ القبائل لم تكن لهم[2] امكانيات بشرية أي القوة العسكرية لمواجهة هذه القبائل المغيرة فيعمدون إلى دفع الضرائب لهؤلاء وتوزيع أموالهم على كل أفراد القبيلة وحتى الأيتام والأرامل كانوا يدفعون هم الآخرون، وإن نجاح هؤلاء في الإغارة له علاقة بضعف السلطة وهو ما يؤكده المازوني بقوله سئل الحفيد محمد العقباني" عن هؤلاء الأعراب المتغلبين في البلاد لضعف السلطنة أحيانا يكونون خداما للسلطان وتارة يكونون مخالفين على السلطان كما يفعل عرب بلادنا مثل بني عامر وسويد[3] يعمد واحد منهم إلى قرية قاض في وقته فلا أمر إمام فيقضى هل يصح توليه و تنفيذ أحكامه.

فأجاب الأعراب والبغاة والعناد والسعي في سبيل الفساد وخصوصا إخافة الطريق وسلب أموال واقتراب أنواع الحرابة لا يتناولهم فيها من خرج عن الإمام ويقاتل على ذلك من يغلب على الإمام تغلب على الإمارة والاستبداد بدعوة رئاسة الأئمة"[4].

1- المازوني، نفس المصدر، ج2، ورقة 267.

2- المازوني نفسه، المعهد السابق ج2، ورقة 256.

3- وعن السويد انظر أبو راس عجائب الأسفارورقة 24.

4- المازوني ، المصدر السابق، ج2، ورقة 247

فالذي يستفاد من النص يتمثل فيما يلي:

أولا: أن القبائل العربية في هذه الفترة عرفت امتداد نفوذها فشمل مناطق كثيرة من أراض الدولة الزيانية وعلى الخصوص قبائل السويد وبنى عامر التي تعتبر أن من أهم القبائل خلال فترة موضوع البحث المناطق التي استولوا عليها و تأثيرهم على مراكز القرار.

ثانيا: أن الدولة الزيانية كانت ضعيفة ولذلك لم يستطيع أمراؤها الوقوف أمام هؤلاء بل اكتفوا بالتقرب منهم واستعمالهم في خدمة الدولة[1].

وأحيانا يكونون نوابا لهم على أقاليم هذه الدولة التي كان في الماضي يعين فيها أبناء أمراء الدولة الزيانية أو أفراد الأسرة الزيانية أو حتى من بعض بطون قبيلة بني عبد الوادي أو القبائل البربرية التي كان لها نفوذ مثل مغراوة و بني توجين، فبذلك حدث انقلاب في نظم الدولة الزيانية.

ثالثا: إن هؤلاء الشيوخ كان من الأفضل لهم المحافظة على الأمن في النواحي التي يشرفون عليها، لكن ما وقع كان وراء الفتن التي عرفتها أقاليم الدولة بإغارتهم على القبائل الضعيفة ومهاجمة القوافل التجارية وسلب السلع التي تجمعها وهو ما جعل صاحب النص يعلق عليهم بقوله من تغلب على الإمام تغلب على الإمارة كلها وهو ما عرفته الدولة الزيانية في هذه الفترة موضوع البحث وهو ما جعل بعض الفقهاء يطالبون بجهادهم لأن جهاد هؤلاء أفضل من جهاد الكفرة.

1- الحسن الوزان ، المصدر السابق، ص356.

وهناك نازلة تتعلق باستبداد العمال وتسخير الريفيين وفي هذا الصدد يقــول المازوني[1] : "أهل محشر فرض عليهم بعض العمال أن يبنوا لهم مسجدا يصلون فيه الجمعة والمحشر على هيئة المعبر والأسواق فيه لكن بناؤه متصل فـــلا تروعهم فتنة بكونهم موسومين بالديانة فيحترمون بذلك فعمد هذا العامل لبنائه إلى تسخيرالناس واستخدم فيه الناس قهرا من نواحيه جلب والدراهم وآلات البناء لأجور وكسر الحجر ونحو ذلك هل يصح فيه الصلاة".

فالشــــيء الـــذي يستخلص من النص يتمثل فيما يلي:

أولا: أن بعض رجال الطرقية كانوا يختارون أماكن منيعة لإقامة زواياهم إما على قارعة الطريق أوبالقرب من الأسواق.

ثانيا: أنهم كانوا محترمين من السلطة الحاكمـــة وعلى الخـــصـــوص فـــي النواحي لعلاقتهم بالسكان لذلك فإن مطالبهم تنفذ باستمرار.

ثالثا: إن سكان البوادي خلال هذه الفترة كانوا يعانون اضطهادا من العمال فكانوا يسخرون لخدمة هؤلاء وأحسن مثال على ذلك ما وقـــع فـــي بنـــاء هـــذا المسجد حيث فرض عليهم استعمال مواشيهم و تجنيد أنفسهم في نقـــل المواد الأولية للبناء.

1- المازوني ، المصدر السابق، ج2، ورقة 46.

- الأمـــراض الاجتمـــاعية:

كانت تلمسان عاصمة الدولة تتوفر على مناظر خلابة لضواحيها وبساتينها وشلالاتها المتدفقة ومتنزهاتها التي ورد ذكرها في المصادر التاريخية والأدبية مثل وادي الصفيصف وكدية العشاق وغدير الجوزاء، فالمتنزهات الآنفة الذكر تهيء الجو للسكان للالتفات للمرح والترفيه عن النفس- كما ذكرنـــا ســـابقا- وتثبت ذلك النوازل التي أوردها المازوني والمتعلقة بالمرأة البدوية التي تنسب إلى بني هلال تشير إلى الانحلال الخلقي وتسامح الرجل تجاه المرأة حيث قال: (نساء العرب لا يسألن عما يفعلن)، لكن هذا يتنافى مع طبيعة مجتمع القبائـــل العربية.

وقد كتب أبو ضيف نصا عن القبائل فقال: (وصفها المؤرخ بأنها ســيدة مـــا يتعلق بالبيت أثاثا ومتاعا ونحو ذلك والرجل بمثابة الضيف فلها أن تفعل في البيت ما شاءت من غير اعتراض عليها ولا مراقبة لكن مـــا جـــاء فـــي النصين يبدو أنه يتنافى مع الواقع لأن الحياة في البادية والريف لم تكن أكثـــر انطلاقا وانفتاحا عنها في المدن ولكن علينا أن نعرف على ما يصحب ســـلطة القبائل والعشائر من ناحية وقيود العرف والعادات والتقاليد من ناحية أخـــرى مما يجعلها تحدد أفق الحرية في الريف أكثر من المدينة وهذا يبدو مع نـــص المازوني لا أساس له من الصحة، من ناحية أخرى أنه في حالة وفود ضيوف في غيبة الرجل فلهن أن يفعلن لهم من الاحسان ما يقوم به الرجل ولـــو كـــان

حاضرا ويضربن مثلا بذلك [إذا كان الأسد يقتل فاللبوءة تقتل والرجل الهيلالي يفتخر إذا قامت زوجته في إكرام ضيوفه أثناء غيابه.

أما الونشريسي فقد أشار إلى كثرة انتشار الخمر في المدن الزيانية، حيث كان الناس يخرجون من الأزقة وعلامة الخمر بارزة على أفعالهم ويتفق ذلك مع المازوني الذي ذكر هو الآخر انتشار الخمر ليس في المدن فقط بل في القرى وحسبه فإن أفراد من الجالية اليهوية يقومون بنقله إلى الأرياف، حيث يبيعونه إلى سكانها.

وهكذا نرى أن أهل الذمة من اليهود والنصارى لعبوا دورا خبيثا في انتشار ظاهرة الإدمان على الخمر ولعل هذا مرتبط بضعف سلاطين الدولة الزيانية.

ومن الأمراض الاجتماعية ظاهرة التسكع في الأزقة لأن بعض الشبان كانوا يتجمعون في الأزقة المؤدية إلى الأسواق والحمامات التي يكون الاقبال عليها من قبل النساء لمراقبتهن وفي هذا الصدد يقول العقباني [الإماء اللواتي يخرجن متلحفات كالحرائر أومكشوفات بما لايصل كشفه منهن كالظهر والبطن لأن الأمرين في حقهن محظور وكذلك خروج الرابعات في هذا الزمن متكشفات فإن ذلك من دواعي الفتنة.

يتجلى من النص أن الخروج لم يكن مقتصر على الجواري بل شمل حتى الحرائر وهذا يتجلى من خلال النصوص التي أوردها كل من العقباني والمازوني والتي اشار فيها الى خروج النساء للحمامات العمومية وقد طالب بتحريمها على اللواتي اتصفن بالجمال خوفا على انحرافهن.

من خلال ما سبق يبدو أن المجتمع الزياني بالرغم من ازدهار الحركة الصوفية ،فإن المرأة في المدينة تتمتع بالحرية الكامنة وهذا أدى إلى ضعف الوازع الديني مما نتج عنه بعض الأمراض الاجتماعية.

أما في الريف فكانت المرأة تشارك الرجل في جميع الأعمال وعلى الخصوص الأنشطة الفلاحية كالزراعة وتربية المواشي والعناية بالأشجار المثمرة .

لكن بعض النصوص تشير أيضا إلى ضعف الجانب العقائدي إلا أن هذه النقطة تبدو للباحث في الدولة الزيانية شائكة التناول لأن السكان في أواخر عهدها كانوا يشتكون من التدهور الخلقي والديني وخاصة ما تعلق بالظواهر التي كانت مرتبطة بالقيم الدينية مثل الحج فهذه الظواهر يبدو أنها فقدت محتوياتها الدينية وأصبحت في الغالب ظاهرة اجتماعية.

كما كان فقهاء العصر قد هونوا من فرض الحج وألحوا على شرط الاستطاعة مبينين أنه فقد محتواه الديني وأصبح في الغالب ظاهرة اجتماعية قبل كل شيء لعدة عوامل أهمها:

اختلال الأمن ويعلق على هذا العبدري فيقول [أن المسافر عندما يخرج من أنظار مدينة فاس إلى الاسكندرية لا يزال في حوض ظلماء وخبط عشواء لا يأمن على ماله ولاعلى نفسه ولا يأمل راحة في غده ويومه وأمسه].

قال البرزلي بعد ماورد للخمي فتوى جاء فيها أن الطريق اليوم من الأسكندرية وما بعدها ذلك إلى مكة على صفة لا يلزم معها فرض الحج ولا يؤثم من تأخر في هذه الأحوال لأنه يكون من باب إلقاء النفس إلى التهلكة وبهذا كان يفتي شيخنا أبومحمد عبد الله الشبي1382/782 وقد جرب

هذا الطريق فيقول: "الذي يقصد الحج في ذا الوقت إنما هي شهوة نفس وهوى رخيصة ولا لقصد الله تعالى فنراه من حين خروجه يرتكب من الآثام من سب الغير وتعاطي الحرام وترك الصلواة والقذف والغيبة وعدم الوقوف عند حدود الله".

كما كانت الصراعات بين دول المنطقة سببا في اختلال الأمن وهو ما يوضحه السلطان أبو الحسن المريني في رسالة إلى السلطان المملوكي بعد سيطرته على تلمسان يتهم فيها أبو تاشفين الأول بالتعرض للحجاج فقال: "ولم يكن إلاّ ما نال الحجاج من تعنية وتعدية وطال عليهم من تعرضه وتصديه حتى جز عن الحجاز الشريف قصاده وحكم سلب الحجاج وسد عليهم المسالك والفجاج وعوق طريقهم".

أمّا فيما يتعلق بفريضة الصيام فقد جاء مثلا في هذا الحديث من السنة النبوية المتعلقة بتقديم الفطور وتأخير السحور قول البرزلي وكان بعض شيوخنا يقول هذا إنما هو عند المتقدمين الذين كانوا يأكلون الطعام الكثير حتى يشبعون ويمسكون بالنهار.

أما الونشريسي فقد تعرض هو الآخر إلى المظاهر السلبية فذكر أن بعض النساء يفطرن من غير عذر شرعي ويرجع السبب في ذلك أن المرأة كانت تخاف من انخفاض وزن جسمها وتغيير جمالها، خاصة إذا كانت مقبلة على الزواج، وهذا يوضح لنا أن الرجل في عصر الونشريسي كان يفضل المرأة البدينة على الرشيقة مما جعل البعض يضطرون إلى الافطار بضغط من أسرهن.

هذا الطريق فيقول: "الذي يقصد الحج في ذا الوقت إنما هي شهوة نفس وهوى رخيصة ولا لقصد الله تعالى فنراه من حين خروجه يرتكب من الآثام من سب الغير وتعاطي الحرام وترك الصلواة والقذف والغيبة وعدم الوقوف عند حدود الله".

كما كانت الصراعات بين دول المنطقة سببا في اختلال الأمن وهو ما يوضحه السلطان أبو الحسن المريني في رسالة إلى السلطان المملوكي بعد سيطرته على تلمسان يتهم فيها أبو تاشفين الأول بالتعرض للحجاج فقال: "ولم يكن إلاّ ما نال الحجاج من تعنية وتعدية وطال عليهم من تعرضه وتصديه حتى جز عن الحجاز الشريف قصاده وحكم سلب الحجاج وسد عليهم المسالك والفجاج وعوق طريقهم".

أمّا فيما يتعلق بفريضة الصيام فقد جاء مثلا في هذا الحديث من السنة النبوية المتعلقة بتقديم الفطور وتأخير السحور قول البرزلي وكان بعض شيوخنا يقول هذا إنما هو عند المتقدمين الذين كانوا يأكلون الطعام الكثير حتى يشبعون ويمسكون بالنهار.

أما الونشريسي فقد تعرض هو الآخر إلى المظاهر السلبية فذكر أن بعض النساء يفطرن من غير عذر شرعي ويرجع السبب في ذلك أن المرأة كانت تخاف من انخفاض وزن جسمها وتغيير جمالها، خاصة إذا كانت مقبلة على الزواج، وهذا يوضح لنا أن الرجل في عصر الونشريسي كان يفضل المرأة البدينة على الرشيقة مما جعل البعض يضطرون إلى الافطار بضغط من أسرهن.

أمّا انتشار الرشوة وشهادة الزور فيقول عنها المازوني: " مايفعل في هـذا الوقت، من أخذ الجعائل على الفتوى في رد المطلقة ثلاثا ونحوها من الرخص كما يفعله كثيرا من جهلة فقهاء البادية فلا يحل ولايجوز بالاجماع".

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو هل أن تلك العادة معدومة أوأقل انتشار في المدن لا أظن ذلك خاصة في آخر عهد الدولة الزيانية.

كذلك تطرح شهادة أهل البادية فيها أيضا فقد ورد قوله لا يكتفي بالقوانين المتعارف عليها في الاسلام في الشهادة فقد قال المازوني والطرر لابن غاث عند قوله تجوز شهادة أهل البادية أن شاهدوا في حق امرأة أوغيرها أو لـم يكـن عدل يستكثر منهم ويقضي شهادتهم في رؤية الهلال.

يبدو للباحث أن هذا التشدد في الشهادة مرتبط بتدهور عام وجد في المدن أيضا وجعل مقياس الشهادة يتغير نتيجة انتشار الكذب والمجاملة.

- انتشـــار اللصوصيـــة:

يضاف إلى ما سبق انتشار اللصوصية، وقد تعرض لهذا الموضوع الرحالة المصري عبد الباسط خليل[1] فبين لنا بأنه تعرض للسرقة عندما كان مقيما بمدينة تلمسان وكذلك الحسن الوزان الذي زار إحدى الأسواق بقلعة بني راشد فسرق منه جواده من أحد عمال قائد بني راشد وعندما اشتكى له قال له إن الأجور التي تعطى لهؤلاء البغالة غير كافية فيعمدون إلى السرقة. وفيما يتعلق بانجاد يقول الوزان عنهم "انجاد مأوى لعصابة لصوص من الأعراب على استعداد دائما لتفتك بالمارين ومن هناك حيث الطريق المؤدي من تلمسان إلى فاس وقليلا ما ينجو التجار منهم ولا سيما في فصل الشتاء لأن الأعراب

1- B Runschvic Robert deux Récits p 136.

المستشعرين للحفاظ على الأمن في البلاد يكونون قد رحلوا عنها إلى نوميديا[1] ويبقى منهم غير المستأجرين وحدهم يعيشون من اللصوصية.

فاللصوصية خلال هذه المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الزيانية أصبحت مهنة يكتسب أصحابها أموالا طائلة[2]، وحتى النوازل الفقهية تعرضت لموضوع اللصوصية فنجد نوازل أوردها كل من صاحب[3] (المعيار) و(الدرر المكونة).

منها أن بعض المرابطين كانوا يقيمون في المناطق التي يكثر فيها قطاع الطرق والسبب في ذلك يرجع إلى مايلي:

أ: أن بعض المرابطين كانوا يفضلون المناطق التي تجتازها القوافل التجارية والمسافرون للحفاظ على أمنهم والتدخل في حالة وجود أخطار محدقة بهم وإن ذلك يتم بواسطة الأعوان التابعين لهم"[4].

ب: أن المرابطين حلوا محل الدولة في حماية الرعية من اللصوص لذلك تشير بعض النوازل الفقهية إلى انعدام الأمن في تلك النواحي منها قول الونشريسي[5]: " سئل شيخنا أبو عبد الله محمد بن مزرق وأبو الفضل قاسم العقباني "جوابكم عن خمسة رجال من أهل السرقة والخيانة وقطع الطريق وغير ذلك من أنواع الفساد معروفين بذلك مشهورين به قدموا على محشر وأرادوا السرقة وهم بالسلاح ثم أنهم قتلوا رجلا من أهل المحشر"

1- الحسن الوزان، وصف إفريقية، ج2، ص 26.
2- نفسه ج1،ص 11.
3- الونشريسي. المعارج 5 ص 267.
4- المازوني، الدرر المكنونة ،ج2،ورقة 247.
5- الونشريسي ، المعيار، ج5،ص 267.

هذه النازلة توضح لنا وضعية الريف، حيث تتعـرض باسـتمرار إلـى الغارات، ومن النوازل التي ذكرت موضوع اللصوصية هي قـول المـازوني الذي يحكي عن أبي محمد صالح: أن سرّاق المغرب لصوص لأنهـم يـأتون بالسلاح عامدين على المال المكائدة، قال راقوي منـه أن يقـف عنـد رأس صاحب المنزل فمتى رآه تحرك، ضربه أو هدده[1].

يستخلص من النص مايلي:

أ: أن الذين كانوا يقومون بالغارات على مضارب القبائل كانوا يحملون معهم الأسلحة ويستعملونها في مهاجمتهم للقرى والمداشر والمحاشر أويهددون بها صاحب المنزل إذا اكتشف أمرهم.

ب: يطبق عليهم نفس القانون الذي يطبق على المحاربين لاستعمالهم السلاح. فاللصوصية لم تكن مقتصرة على الأسواق والطرقات بل امتدت إلى أعراض الناس وفي هذا يقول المازوني سئل محمد الحفيد العقباني بما نصه "ما تقولون رضي الله عنكم في رجل أتى هو ولصوص معه و هرب بإمرأة على عادة أهل البوادي ومكث عنده أياما تارة بيت معهم في هذا الدوار ليلة وتارة في دوار آخر إلى أن انتزعت منه وردت إلى أهلها".

يستخلص من هذه النازلة مايلي:

أولا: إن اللصوص في تلك البوادي خلال فترة موضوع البحث لم يقتـصر دورهم على النهب و السلب بل امتد إلى ما هو أخطر مـن ذلـك فأصـبحوا

1- المازوني ،المصدر السابق،ج2، ورقة 227.

يهاجمون المنازل ويأخذون نساءها وبناتها و ينعمون بهن مـــدة دون أي وازع ديني يضعهم عن حدهم.

ثانيا: أن سكان الأرياف كانوا عاجزين عن مواجهة هؤلاء مما يجعل اللصوص ينتقلون بكل حرية من دوار إلى آخر وربما يفرضون على سكان هذه القرى إخلاء أحد البيوت لهم حتى يشبعوا غرائزهم الجنسية.

لذلك كان السكان يزوجون بناتهم وهن لا يزلن صغيرات وهو ما يؤكده المازوني من خلال هذه النازلة " سئل عن يتيمة خاف عليها قومها الفساد أن يهرب بها بعض المفسدين طوعا منها أو كرها لكونهم ببلاد السايب بضعف أحكام القضاة بها فاتفق رأيهم على تزويجها قبل بلوغها[1] توضح لنا هذه النازلة ما سبق أن تعرضنا إليه وهو أن أرياف الدولة الزيانية نتيجة للفوضى التي كانت تتخبط فيها فإن الإعتداء على الحرمات ازداد نتيجة لضعف السلطة أوانعدامها في القبائل المستقلة عن الدولة ولم يكن عامة الناس هم الذين يلجؤون إلى هذه الوسيلة بل حتى لم يتم شيوخ القبائل أنفسهم وفي هذا الصدد يقول المازوني[2] "سئل أبو الفضل العقباني عن امرأة مهملة فرت بنفسها زمن المسغبة لوطن غير وطنها فوقعت عند شيخ من أشياخ الموضع فحبسها وتزوجها بغير ولي على وجه التعد".

- انحراف في تطبيق الأحكام الشرعية:

فسوء الوضعية الإجتماعية يعود في رأينا إلى عدم تطبيق الأحكام فقد عرفت البادية ضعف في الأحكام وهو مايشير إليه الونشريسي بقــولــه:

1- نفسه ج2، ورقة 125.

2- المازوني ، المصدر السابق، ج2، ورقة 238.

"قـــال بعض الشيوخ وما يفعل في هذا الوقت من أخذ الجعائل على الفتاوى وفي رد المطلقة ثلاثا أو نحوها، كما يفعل كثيرا من جهلة البادية فلا يحل ولايجوز" فالنص الذي أورده الونشريسي يوضح لنا بأن الفتاوى التي كانت في عصر الدولة الذهبي وعلى الخصوص في عصر أبي عبد الله العقباني وبركات الباروني الجزائري لا تقدم في شأنها أموال أصبحت في هذا العصر يأخذ صاحبها الجعالة مما أثر في الأحكام الشرعية، الونشريسي بقولـــه:

"أن أخذ القاضي الإجارة المعتادة وأما إذا ضعفت الأجرة فهو من باب الهدية وهي من باب الرشوة"، فمهنة القضاة تأثرت بالضعف السائد، فأصبح القاضي يأخذ الرشوة من أصحاب القضايا أو أمراء الدولة أو شيوخ القبائـــل أو ولات الدولة الزيانية في نواحيها المختلفة. كما نجد أن الرعية كانت ترتبط بالعلماء الذين كان لهم اتصال بالسلطنة لرفع الظلم عنهم فصار خير بابا من أبواب الرشوة. لم يكن القاضي والمفتي هما اللذان يتاقضان الرشوة بل امتدت إلى علماء السلطنة الذين كانوا صلة وصل بين الأمراء والرعية لذلك كان الناس يطلبون منهم أن يقضوا حوائجهم. ويوضح لـــنا الونشريسي[1] العلاقة بين ضعف السلطنة والعلماء بقوله "يحكى أن بعض الملوك المتأخرين كتب إلى فقيه من الفقهاء أن الناس قد فسدوا فكتب لـــي أن لا حكم فيهم بما يطبق عليهم، فإنني استوفيت لهم المطالب الشرعية فأكـــل الناس بعضهم بعضا" فقدأصبح الناس يفتون بدون علم في الأمور العقائدية لأنه في عصر الدولة الزيانية الذهبي كان لا يتولى الفتوى إلا مـــن وصل درجة الإجتهاد، وفي عهد الونشريسي كان الجهال ينصبون للفتوى.

1- نفسه ج5 ، ص 236.

ويعلق صاحب كتاب المعيارعلى ذلك فيقول قد كثرت البلوى وعمت المصيبة وهلكت الأديان فيه[1]. ويجعل السبب في ذلك مجموعة من العوامل منها:

أولا: ضياع العلم وقلّ القائمون عليه وتعاطى العلم الجهّال فافتوا بغير علم.

كما أن الوظائف التي كانت مرتبتها تقدم من الدولة أصبحت تؤخذ من المواطنين فيذكر صاحب المعيار مثلا أن القضاة أصبحوا يأخذون الجعائل على الأحكام كما أصبحت تلك الأحكام لا تتقيد بالشرع الإسلامي مثل ما كان يعمل به بعض هؤلاء القضاة برجعة المطلقة ثلاثا في كلمة واحدة.

- أثر شيوخ القبائل على واحات جنوب واقليم توات:

تعرضت هذه النوازل لتأثير القبائل العربية في منطقة توات وفي هذا الصدد كتب عبد الله يحي بن يدير بن عتيق الحمد لله جوابكم الكريم في رجل كلف عليه شيخ بلده موضعه تقديم دواب حملت زرع للشيخ المذكور والدواب لأهل الموضع فقدم الرجل المذكور الدواب المذكورة إلى الموضع الذي تخزن فيه زرع الشيخ.

يلاحظ من هذه النازلة أن تأثير القبائل العربية لم يكن مقتصرا على المناطق الشمالية فقط بل امتد إلى قصور توات لضعف القبائل البربرية بها وعجزها في الدفاع عن تلك القصور التي ازدادت الغارات عليها فاتصل بعض أهل القصور بالقبائل التي كانت تشرف على مرافقة القوافل التجارية، وقد أكد هذا الحسن الوزان[2] فأشار إلى بعض قبائل الشمال كانت ترتحل

1- نفس المصدر ج6 ص 256.

2- الحسن الوزان، وصف إفريقية، ج2،ص 54.

إلـــى الجنوب فتحط رحالها بتيجرارين.[1]

فتواجد هذه القبائل جعل شيوخها يفرضون إراداتهم على سكانها فكانوا يكلفونهم بتقديم الخدمة لهم ومنها نقل محصولهم بدوابهم إلى مكان خزنه.[2]

لم يتوقف هؤلاء عند هذا الحد فقط، بل فرضوا ضرائب على سكان تلك الناحية عرفت بضريبة البرنوس وفي هذا الصدد يقول القصور الصحراوية جرت عادة العرب الظلمة في زمان قلة الزرع أو التمر يكلفونهم بظلامـــة يسمونها البرنوس ولا يرفعون أيديهم عن الفساد حتى يقع الصلح على أمـــر معروف على تلك الظلامة من قديم الزمان خلفا عن سلف لا يعرض لهم أحد من أشياخ القبائل ولا من أشياخ العرب.[3]

ثم إن بعض الطلبة الآن يتعرضون للفتية لقنوا أشياخ القبائل وقالوا لهم ذلـــك البرنوس يلزم جميع أهل القرية شرعا أدبه من أهل القرية ومن لا يؤدي مغرما يخاف من العرب تخوف غيرهم[4] يتجلى من هذه النازلة مايلي:

أولا: أن هذه النازلة تفرض على الفلاحين لأن قصور توات تحتوي علـــى مجموعة من بساتين النخيل، تستغل الأراضي الموجودة بين أشجار النخيل فـــي إنتاج الخضر ومحاصيل الحبوب ولذا فالضريبة تسدد عندما يتم جنـــي المحصول.

1- عن تيجرارين انظر، الحسن الوزان، ج2،ص 133.

2- لمؤلف مجهول، نفس المصدر ،ورقة 25أ.

3- لمؤلف مجهول، نفس المصدر، ورقة 27ج.

4- نفسه، ورقة 27 أ.

ثانيا: أن نسبة تلك الضريبة تتم بعد الإتفاق بين أصحاب البساتين وشيوخ القبائل وعندما يرفض هؤلاء تسديدها يتعرضون للغارة من قبل هذه القبائل.

ثالثا: أن رجال الزوايا الذين يملكون بساتين كانوا معفيين من تقديم الضريبة لهؤلاء الشيوخ مثل ما هو عليه الحال بالنسبة إلى رجال الزوايا في الأقاليم الشمالية وهذا منذ فترة زمنية طويلة.

لكن بعض العلماء الذين ادعوا الفتوى في تلك القصور حثوا شيوخ القبائل على جمعها من جميع الناس وحتى رجال الزوايا و طلبة العلم[1].

يضاف إلى ماسبق أن بعض رجال للطرقية كان لهم دور سلبي بالنسبة للمجتمع الزياني لأن وجود هذه الأجواء المعمقة بالقلق والاضطراب جعلت الناس يبحثون عن منافذ للراحة والطمأنينة فلجأ الكثير معهم إلى حياة الرغد والعزمة والإنقطاع للعبادة، ولكن المؤسف أن بعض المهندسين من الأدعياء وأمل الضلال استغلوا هذا الوضع فأنشأوا طرقا ظاهرها الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وحقيقة أمرها للاسترزاق والسيطرة على الناس وافساد عقيدتهم وغير ذلك من الأغراض الدينية .وكان أثار ذلك ظهور الكثير من الإنحرافات والبدع والمنكرات التي بقيت أثارها إلى أيامنا هذه وقد وصل الأمر ببعض أتباع الطريقة الوسعية أن أدعى النبوة وتابعه في ذلك بعض الغوغاء والدماء في الحواضر والبوادي[2].

1- نفسه ، ورقة 28أ.

2- أبو العباس الونشريسي المعيار المعرب ج2 ص301.

ولقد وصف أبو الحسن[1] الصغير هذا الوضع بقوله: انتشر في مغربنا طريق أحدثه رجال حطام الدين وجمعوا له غوانم من الذكور والإناث الذين صدورهم فارغة وعقولهم قاصرة.... وانتشر البغض بينهم وبين العلماء فافترقوا بكثرة اشياخهم على طوائف شتى، كل طائفة تجدي إلى شيخها وتطعن في الطائفة للأخرى وشيخها، وتواترت بذلك الشافئة و المباغضة بين الأشياخ وخلاصة القول أن الريف الزياني غلب عليه طابع القلق والفوضى والإضطراب وانعدام الأمن والظلم والغضب والصراع والمصادمات الجماعية والأوبئة والمجاعات ونحوها كما ظهرت العصابات التي احترفت اللصوصية وقطع الطرق على التجار المستحلين لتلمسان.

- الطرقية وتأثيرها على أحوال الدولة الزيانية:

أولا: موقف سلاطين الدولة من رجال الزوايا.

لعل اهتمام سلاطين الدولة الزيانية بهؤلاء المرابطين يعود بالدرجة الأولى إلى مكانتهم في المجتمع الزياني حيث كثرالإقبال عليهم من جل سكان الدولة، وقد كان يغمراسن[2] يتوجه إلى مدينة أجادير، لزيارة سيدي محمد بن عبد الله[3] في داره، التماسا إلى دعائه.

أما أبو تاشفين الأول[4] فقد استغل هؤلاء المرابطين لأغـراض سياسيـة، حيث اتصل بالذين كانوا يتمركزون بالمناطق التابعة لأمير بسكرة ابن مزني[5]،

1- هو الحسن الصغير،ذوي البدع وأملها مخطوط بالمكتبة الوطنية بالجزائر رقم946 ورقة(ن).

2- ابن خلدون يحي، بغية الرواد،ج1،ص204-208.

3- ابن مريم ، البستان، ص 224.

4- ابن خلدون، العبر، مجلد7، ص 222-225.

5- عن ابن مزني انظر ابن خلدون ، العبر، مجلد7، ص 689.

لحثهم على الثورة عليه وقدم لهم المساعدة المادية، لكي يتمكن بواسطتهم من إضعاف الدولة الحفصية[1].

أما الدولة الزيانية فكان سلاطينها يستغيثون بهؤلاء المرابطين، عندما تواجههم الأخطار الخارجية، فقد ذكر ابن مريم:

"أن السلطان أبا حمو موسى كان يوجه اعتناءه خاصة بسيدي علي، فيكثر من زيارته، ويلتمس إشارته، فلما قام عليه في أواخر سنة841هـ/1437م ابن أخيه أبو زيان بالجهة الشرقية، وأبو يحي838هـ/1434م الذي ملك وهران استصرخ بالشيخ علي الحسن بن مخلوف[2] فقال لها لا طاقة لي بالأمر " فإني أبعث أخي في الله سيدي بن يحي لشيخنا الهواري، وعندما وصله قال له:
" لا دخل لمحمد الهواري في أمر الملوك ولكن اذهب وقل له، لا خوف عليه، فإنه لا يرى الآخر أوالتصوف التي كانت ظاهرة إجتماعية عامة في المجتمع الإسلامي قد سبقت العثمانيين في الجزائر، ذلك أن كبار المتصوفين كانت لهم زيارة المراكز الثقافية مثل بجاية أمثال بن عربي[3] ابن سبعين[4] وكذلك سيدي بومدين وفي القرن9هـ/15م، درس ببجاية الشيخ زروق[5] وتخرج عليه كبار المتصوفة أمثال محمد

1- نفسه، ج6، ص 688.
2- ابن مريم ، البستان ،ص 32-33.
3- أبو العباس أحمد الغبريني،عنوان الدراية فمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بوفار، الجزائر1970،ص 56-73-80.
4- نفسه ،ص86-209-211-309.
5- ابن خلدون يحي، بغية الرواد،ج1،ص 125أبو العباس،الغبريني عنوان الدراية ،ص 5-13.

الهواري[1] وعبد الرحمن الثعالبي[2] ومحمد بن يوسف الملياني فانتشرت الطرقية قبل وصول العثمانيين، كما أن حسن بن باديس صاحب السنية قد تحدث عن الشيخ عبد القادر الجيلالي وطريقته خلال القرن 8هـ/ 14م. وقد شاع التصوف في الجزائر بفضل دراسة الثعالبي والسنوسي وأحمد بن زروق.

- **أثر الطرقية في الميدان الإجتماعي:**

كان للطرقيين دور في القرن10هـ/16م، ومن بين هؤلاء الذين كان لهم تأثير في الأحوال الإجتماعية الملياني[3] الذي كان يحب الإتصال بأهل الريف وكان يدعو للسلم والتصالح بين القبائل المتحاربة لأن عصره عرف اضطرابات اجتماعية نتيجة لضعف الدولة الزيانية فكان لشيوخ الزوايا دور مشرف في حل المشكلات ولاتزال هذه الظاهرة إلى حد الآن. لكن في بعض الحالات كان هؤلاء سببا في سلبيات المجتمع وهوما يؤكده هذا النص: "حكي أن المرابط سليمان بن حفصة القلعيكان من تلاميذ الملياني وبلغ منزلة عظيمة ومقاما في الولاية فصار الناس يأتونه بالطرف والتحف ويدخل عليه النساء في خلوته، فنهى الشيخ عن ذلك فلم ينته[4].

نستخلص من هذا النص مايلي:

أولا: أن بعض رجال الطرقية استغنوا الوصعية السيئة للمجتمع فأصبحوا يستغلون الرعية فيأخذون أموالها وكان المجتمع يثق في كرامات هؤلاء الأولياء مثلا أن نخلات أبي بكر طارت بأجنحتها من مكة إلى المدينة

1- الصباغ،زهر البستان، ورقة 18.

2- ابن مريم،البستان،ص228.

3- الصباغ،المصدر السابق، ورقة 12-17.

4- الصباغ، نفس المصدر،ورقة 76.

جذوعها لبناء المسجد النبوي الشريف[1] ويعترفون بأن شابا من شبان تنس مضى إلى مالقة وقت الظهر وعاد إلى تنس وقت العصر[2].

ولعل السبب في ذلك يرجع إلى انتشار الأمية في أوساط السكان والوضعية الإقتصادية والإجتماعية والسياسية التي عرفتها الدولة من جراء الحروب[3].

وتشير النوازل الفقهية التي أوردها المازوني والونشريسي انتشار الخرافات في أوساط العامة في المناطق الريفية.

فقد بين تلك النواحي الونشريسي فقد ذكر صاحب كتاب المعيار أنه على تلمسان من جبل ونشريس نازله نزلت بأهله فاستفتوا فيها أشياخنا بتلمسان وأن نص السؤال: "سيدي ماترون في رجل ينسب إلى الصلاح ويزعم أمورا لايدعيها العقل يقول يرى جبرائيل ويقول يسمع منه ويرى ميكائيل حين يكيل الماء"[4].

فهذه النازلة توضح لنا تلك الخرافات التي كثر انتشارها في ربوع أراضي الدولة الزيانية.

ومنها ما حدثني به الولي الصالح السيد يحي المغراوي القاضي الآن بقرية مصرانة، وأن رجلا يسمى سيدي علي الندرومي بلغ منزلة في الولاية تأتيه الناس من ندرومة بالهدايا والتحف[5]، لأن رجال الزوايا لهم نفوذ على المريدين

1- نفسه ،ورقة 57.

2- نفسه ،ورقة 68.

3- عن هذا الباب انظر الباب الأول من هذه الرسالة.

4- نفسه المازوني،ج2،ص4.

5- الصباغ، المصدر السابق، ورقة 18.

وأتباعهم من القبائل ولا تزال هذه الظاهرة لحد الآن فالناس يتقربون من هؤلاء ويقدمون لهم أموالا تعرف بالزيارة يأخذها شيخ الزوايا، كما يقدمون لهم نسبة من محاصيلهم الزراعية ومواشيهم[1].

وإن نفوذ هؤلاء لم يكن مقتصرا على الرعية فقط بل امتد إلى أعيان الدولة، وفي هذا الصدد يقول: "وقد رأينا عيانا والحمدالله والمنة لله السلاطين والقواد وغيرهم وسائر الظلمة يعظمون أولاد الصالحين والحفائد ويحرمونهم ويكرمونهم مع ماهم عليه من الضلال وسوء الحال والتحاسد والتباغض بينهم"[2].

وهو مايوضحه المازوني[3] بقوله: سئل عبد الرحمن الوغليسي عن مرابطي بوادينا، يكون لهم شيخ يجتمعون عليه ويدعوهم رجل للمبيت عنده ليرد ذلك مالا من يد ظالم ظلمه فيما أو لإصلاح بينه وبين من عداه من قرابة وغيرهم أو ربما كان ذلك بين قبيلتين وايقمع جائرا أجار عليهم في ماله وأهله أو في ولده في موضع لا حاكم فيه، يزجر أهل الدعارة فإن أجمع هؤلاء المرابطون للذكر لا يقتصرون عليه بل لا بد مع من التصفيق بالأكف والتمايل يمينا وشمالا[4]. وإن الظلمة لا يرجعون من المظالم التي ظلموا فيها الناس شيئا إن لم يكون الإجماع على الوجه المذكور ولو ترك بذلك أدى إلى فساد كسفك الدماء ورفع المحصنات وغير ذلك من أنواع الفساد . يتضح من النص مايلي: أرياف المغرب الإسلامي ينتج عنها فوائد بالندبة للمجتمع حتى تؤدي إلى:

1- نفسه ، ورقة 19.

2- نفسه ، ورقة 20.

3- المازوني ،المصدر السابق، ج2.

4- المازوني ، المصدر السابق، ج2.

أ- إن الذي يشرف عليها هو شيخ الزاوية الذي يجمع حوله مريدية في الذكر والقيام بأعمال كالرقص والتصفيق ولاتزال هذه الظواهر لحد الأن في أغلب الأرياف التي تتوفر على تلك الزوايا.

ب- إن الزردة تكون عند ضريح شيخ الزاوية وفي بعض الحالات في أحد منازل أحد المواطنين ويهدف من وراء قيامها مايلي:

1: التصالح بين الأسر والقبائل المتصارعة، أو قمع أحد جبابرة الوطن الذين كانوا يسيئون إلى سكانه فيستدعى هذا الجبار لحضورها ثم بعد ذلك يكون التأثير عليه للتخلي عن عمله الذي يتنافى مع مبادئ الشريعة الإسلامية ويستطيع شيخ الزاوية ومريدوه التأثير عليه، أو إرجاع ما نهبه من السكان من أموال الضرائب فرضها عليهم وبذلك يكون الجانب الإيجابي لهذه الزردة أكثرمن جانبها السلبي، لأن ترك الموضع على ماهو عليه سيؤثر على انعدام الأمن وهناك أعراض الناس والإعتداء على القوافل المارة وهناك نازلة توضح لنا دور رجال الزاويا أوردها المازوني بقوله: " سئل الحفيد محمد العقباني عن أناس من سكان البوادي ينتسبون إلى الرباط وتحرر لهم الأزواج ويعلمون دوارا ومداشر ويسمونها بانزاوية وتدافع عن الناس من الأخطار والمسافرين وتحصن هؤلاء بها عند شدة برودة الليل والخوف على نفوسهم يتركونهم متخوفين بساحة زاويتهم"[1].

1- المازوني ، المصدر السابق، ج2.ورقة 65.

يتضح من النص مايلي:

1: أن سلاطين الدولة كانوا يعمدون الى إقطاع الأرض للذين يريدون بـــناء الزوايا بعد اختيارهم المكان الذي يريدون البناء به.

2: إن هذه الزوايا لها دور ايجابي يتعلق بحماية المسافرين إن كان موقعها على طرق القوافل التجارية، لكن بعض هذه الزوايا لا تقوم بواجبها فتتـــرك هؤلاء المسافرين في ساحتها دون أن تفتح لهم أبواب الزاويـــة وتقـــدم لهـــم ما يحتاجون إليه من الأكل والحماية.

عكس بعض الزوايا الأخرى التي تؤدي الدور المنوط بها وهو ما يؤكده المازوني في هذه النازلة بقوله: "عن أقوام من المرابطين تدركهم الصيانة على الدوام والاستمرار لكونهم ساكنين في الطريق وتلحق بعضهم في ذلك مشقة لتعرضهم للضياف في كل وقت فأرادوا الإعانة من جيرانهـــم.

يستخلـــص من النازلة ما يلي:

إن الزوايا التي كانت توجد في الطرقات، كان أصحابها يعانون مـــن توافـــد الناس على زواياهم من أجل الأكل والإقامة، لكن هؤلاء يعجزون عـــن ذلك لقلة الإمكانيات المتوفرة لديهم، مما جعل شيخ الزاوية يطلـــب مـــن جيرانهم مساعدتهم.[1]

كما كان هؤلاء المرابطون يشاركون في تلك الصراعات التي كانت تتخبط فيها الدولة، وهو ما يؤكده ابن مرزوق من خلال هـــذه النـــازلـــة: "سـئل ابن مرزوق عن مرابطين إذا وقعت فتنة بين الناس ينزعون معهم وبعضهم

1- المازوني، المصدر السابق، ج2، ورقة 72.

يفصل بين الناس بعضهم عن بعض، والبعض الآخر يقف مع أحد الفريقين"[1].

وهكذا نجد بأن هؤلاء المرابطين في المجتمع الزياني، كان لهم تأثير في الصراعات التي يتخبط فيها المجتمع نتيجة للصراع بين القبائل، كانوا يقومون بالفصل بين هؤلاء القبائل، وفي بعض الحالات يكون لهم دور في الصراع حيث ينضم بعضهم إلى طرف من أطراف الصراع.

ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد فقط، بل كان بعضهم يسلك مسلك شيوخ القبائل وفي هذا الصدد يقول المازوني "سئل عبد الرحمن الوغليسي عن مرابطين يتقدمون على أصحابهم فيعدون ما يجب عليهم من الزكاة أو قطع الأرض للرجل المذكور أو شبيهة إما ثلاثين ذهبا أو أربعين، أقل وأكثر ويترك لهم ما ينوبهم من ذلك ولا يقصونه بعد ذلك على قدر ما ينوبهم الغني منهم والفقير، فهل يحق لهم التمسك بذلك أم يقصونه[2] على أصحابهم أو كيف تفعل؟.

أجاب الوغليسي أن ذلك لا يحل وأنه مظلمة، وهؤلاء الذين يتوسطون في ذلك منزلة شيوخ القبائل فيما يتولون من ذلك وما يقبضونه وذلك إعانة على الظلم.

فهذه النازلة توضح لنا بأن رجال الزوايا كان البعض منهم يستعمل نفوذه في تحقيق المصالح المادية، وهذا يتعارض مع مبادئ التصوف الذي عرفه العالم الإسلامي قبل هذه الفترة فأصبحوا يقومون مقام الدولة في جبي الأموال، وبذلك فهم لا يختلفون عن شيوخ

1- نفسه، ج1، ورقة 66.

2- نفسه ،ج1،ورقة 67.

القــبائــل في تسخير الناس، كما أساؤوا للجانب العقائدي بأخذهم الزكــاة ظلــما من أصحابها.

- التأثيرات السلبية عــلى الأسرة:

سبق لنا تناول المجتمع ككل والآن نحاول أن نعالــج أوضاع الأســرة الزيانية في خضم هذا الصراع، لأن هذه الأخيــرة أول من تأثر بأوضاع الدولة الزيانـــية وخاصة في الجانب الإجتمــاعي، وسيكون تركيــزنا على المرأة ،للــدور الذي تلعبه في المجتمع الزيانـــي.

يلاحظ الدارس لكتب النوازل أن سكان الدولة الزيانيـــة ينقســمون إلى بدو وحضر.

- دور الــمــرأة[1]

الطابع العام للأسرة الإسلامية هو السائد من حيث مركز الأب ونفوذه على زوجته وأبنائه واحترام الزوجة لزوجها والأبناء لوالدهم لذلك فان المجتمع الزياني يعتمد كثيرا على الذكور. فالأب هو المسؤول الأول عن الأسرة وهذا تطبيقا لما ورد في القرآن العظيم الرجال قوامون على النساء ويقوم برعاية الأسرة في غياب الأب العم أو الإبن الأكبر أوأقرباء الأسرة من الذكور وبداخل المنزل فإن الأم أو الأخت الكبرى هي صاحبة الأمر والنهي وإذا كان الأمر يتعلق بشؤون بالغة الأهمية من الزواج والطلاق والبيع والشراء فإن المسؤول الاول عن العائلة يعقد مجلسا عائليا يستمع فيه لأراء جميع أفراد

1-عن دور المراة في فترة العصور الوسطى والأعمال الفلاحيه، التي كانت تقوم بها،
- انظر: الصنهاجي، البيدق، تحقيق: حاجيات،الجزائر.
- المازوني،الدرر المكنونة، تعرض لعملها من خلال مجموعة من النوازل، ور قات

العائلة الراشدين وبذلك فإن نظام الأسرة في المجتمع الزياني يتميز بنوع من الديموقراطية على الرغم من مظهره الدكتاتوري.

لكن هذا لا يقلل من دور المرأة في الحياة العامة بالدولة الزيانية بالرغم من القيود الاجتماعية التي فرضتها التقاليد على المرأة إلا أنها أسهمت بدور بارز في النشاط السياسي، حيث أن أم يغمراسن بن زيان سوط النساء كانت على رأس الوفد الزياني الذي وقع المعاهدة مع أبي زكرياء الحفصي عندما هاجم تلمسان.

كما أنه خلال المعارك التي دارت بين المرينيين والزيانيين كانت النساء يشاركن فيها حيث يقفن وراء المتحاربين لحثهن على الصمود ولم يكن هذا مقتصرا على الدولة الزيانية بل شمل حتى المرينيين.

وخلال الحصار المريني الكبير لتلمسان كان لهن دورا كبيرا في حث أمراء الدولة على القتال فقد ذكر ابن خلدون من بين الخادمات التي يعملن في قصور بني زيان دعدع وهي قهرمانة القصر ووصيفة بنت السلطان الحفصي أبي اسحاق وزوجة أبي سعيد عثمان بن يغمراسن قد خرجت من القصر واتجهت لابنها أبي زيان وأبي حمو موسى الأول وحيتهما بتحيتها ثم قالت لهما حظايا قصركم وبنات زيان حرمكم مالنا والبقاء وقد أحيط بكم وأسف عدوكم لاتهامكم بالجبن ولم يبق الافراق باكية لمصارعكم ،فأريحونا من عرة السبي وأريحوا فينا أنفسكم وقربوا الى مهالكتنا فالحياة في الذل عذاب ،والوجود بعدكم عدم. فالنص يوضح لنا تدخل نساء الدولة في الشؤون السياسية.

ولم تكن المرأة الزيانية محجوبة داخل المنزل على الخصوص الطبقة الراقية بل كانت تتجه إلى المتنزهات التي توجد بداخل المدينة أوخارجها

حدائق والمقابر خاصة أيام المواسم الدينية وزيارة قبور الأولياء كالحلوي سيدي بومدين وغيرهما من الاولياء الصالحين.

كما كانت تخرج إلى السوق لاستحضار مطالب الأسرة إلاّ أن خروجها يتم *إلا بموافقة أحد أفراد العائلة من الذكور. لكن مؤلفي النوازل يذكرون أن* لمرأة كانت تتوافد على سوق الغزل وسوق العطارين والصياغين وسويقة منشر الجلد

وأن هذا الخروج كثيرا ما كان يشجع الانحلال الخلقي ولمحاربة هذا قـــام العلماء بتحريم خروج المرأة وحتى إقامة الصلاة في المسجد بالنسبة للفتيـــات الصغيرات غير المتزوجات.

- **الـــــزواج والأســـرة:**

ركز الاسلام على الزواج ومن بين أهدافه تكوين الأسرة ويتبين ذلك في الآية الكريمة : *"ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل* بينكم مودة ورحمة"

قد بينت هذه الآية أن كل من الزوجين يجد السكن والطمأنينة والاستقرار فـــي الآخر، وأن ذلك يؤدي إلى المودة والرحمة والزواج في الاسلام نصف الدين فقد قال الله تعالى: "وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادك" وقـــال القرطبي: الزواج طريق التعفف وقول الرسول(ص) يا معشر الشباب مـــن *استطاع منكم الباء فليتزوج ومن* لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء، وقوله (ص) من كان موسرا ولم يتزوج فليس مني.

وللزواج عدة أركان هي:

الخطبة : وهي مقدمة تمهيدية للزواج أساسها التعارف، وقد أجيز للفتى أن يلاحظ الفتاة عنها ويراها خلسة أوعلنا قبل الإقدام على الخطبة فإذا رجح لديه جانب الايجاب واطمأن إلى أخلاقها وشخصيتها يتقدم لخطبتها وتجري العادة أن يقدم لها شيئا يرمز إلى الإرتباط، وتنتهي مدة الخطبة بعقد الزواج الذي غالبا ما كان يتم عن طريق قاضي الأنكحة، والأثر الذي يترتب على الخطبة أنه يحرم على غير الخاطب أن يتقدم لخطبة هذه الفتاة.

العقد يتم بموفقة القاضي بعد موافقة الأب ووجود شاهدين وموافقة البنت والولد وتحديد الصداق ثم يدعوا الخاطب إلى قراءة الفاتحة بالمسجد.

أما العائلات الغنية فكانت تستدعي القاضي لكتابة العقد بالمنزل بعد موافقة الطرفين وبحظور أفراد العائلتين.

وأما في البادية فتتم الخطبة بحظور كبار القرية الذين يتدخلون حتى في تحديد شروط المهر ولهم الكلمة المسموعة وهذه الظاهرة استمرت في الأرياف الجزائرية.

ويرى الونشريسي بالنسبة للقرى أن عدم حضور القضاة لتسجيل عقد الزواج في البوادي راجع إلى الجهل في هذه البوادي وفي هذا الصدد يقول: "من عادة أهل البادية ذم الكتب حين العقد وعدم حضور من يعرف أركان النكاح".

على أن واجبات المرأة تختلف فالبداوية تكد و تجد في العمل حتى يكاد أن يكون الزواج في بعض الأحيان نوع من الاجارة والعبودية لايمكنها التخلص منه بينما تكون حياة الحضرية أكثر رفاهية ومما يؤكد ذلك قول المازوني:

[كان شيخنا عبد الله السبتي رحمه الله توفي 1389/782 يحكي عن شيخ من شيوخنا أتته امرأة من صنف الحضر- وكان قاضي أنكحه - تشكوا وجع يديها من العجن، قام زوجها بشراء خادمة تخدمها وجاءته بدوية تشكوه خدمتها من الطحن وحمل الماء والحطب وغير ذلك من خدمة البادية ومشقاتها فأمرها أن تقع معه وتعاشره على ذلك وقال إن نساء البوادي دخلن على ذلك.

الصداق : أو المهر، هو مقدار من المال أو المتـــــاع يقدمه الرجل للمرأة وقـــد قال الله تعالى: وآتوا النساء صداقتهن نحلة ...الآية . ونتوصل من خلال هذه الآية أن الصداق منحة وعطاء للمرأة رغبة في الإقتران بها والمال حق خالص للفتاة والمفروض أن يقدم المهر كله عند العقد ولكن قد يجرى العرف أن يقدم نصفه وثلثه ويؤخر الباقي، وكان هذا متبعا خلال العهد الزياني فقد ذكر المازوني عن رجل زوج ابنته البكر بصداق وخادم على أن المعجل من ذلك الشطر الدنانير.

والصداق هو من أركان الزواج في الشريعة الاسلامية ولكنه يتماشى مـــع مستوى الشخص من الناحية الاجتماعية ويتجه الفكر الاســـلامي إلـــى عـــدم المبالغة فى المهر. قال رسول الله (ص) خير المهر أيسره مؤونة.

وفي المجتمع الزياني كان مرتبطا بالناحية الطبقية. قال المازوني أن أحد القضاة خطب إبنة رجل من مرابطي وطنه، وكان ليلة العقد عمل لها الزوج في نقدها ما يليق به من حلي وثياب وغير ذلك وعمل الأب لابنته في شورها ما يليق أيضا بمنصبه وهمته ويساره.

كما يحدد المهر بالدنانير وهو ما يؤكده المازوني بقوله عمن عقد علـــى ابنتـــه البكر النكاح من فقير بمائة دينار ذهبا وهو لا يعلم ماعنده إلا قيمة عشرين دينار.

لم يكن الصداق مقتصرا على الدنانير فقط بل كان يشمل الأساور والملابس والفراش والمواشي في البادية كانت هي الأخرى تشكل جزءا من الصداق وتدفع أثناء نقل الفتاة من منزلها حتى أن بعض العائلات الغنية كانت تلجأ إلى تقديم قطعة من الأرض أوبستان كهدية للعروس عند زفافها.

وهناك زواج كان يتم بين أمراء المغرب الإسلامي كما حدث بين الأسرتين الزيانية والحفصية.

وفي بعض الأحيان بين شيوخ القبائل وأمراء بني زيان وقد استمر هذا إلى نهاية الدولة الزيانية وفي المرحلة الأخيرة كان مقتصرا على شيوخ بني عامر أو بني راشد مما كان في الغالب يؤدي إلى الصراع بين القبيلتين.

كما كان التسري بين سلاطين الدولة والجواري المسيحيات من الأمور الشائعة فهناك وثيقة تشير إلى تسري تم بين أبي سعيد وجارية مسيحية ولعل هذه لم تكن الحالة الوحيدة .

يلاحظ بأن سكان الدولة الزيانية خلال هذه المدة تأثروا بالجوانب العقائدية عن طريق الفقهاء ورجال الزوايا المنتشرين في أغلب أرياف الدولة الزيانية ومدنها، وكان للمرأة نصيبا كبيرا من عناية هؤلاء الفقهاء، ولعل السبب في ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى انعدام الاستقرار السياسي وضعف قوة الدولة، وتأثير العناصر الأجنبية في المجتمع الزياني من أهل الذمة، وحتى الجالية الأندلسية.

ففي البوادي كانت حياة المرأة لا تختلف عما هي عليه الآن في بعض المناطق النائية مثل الأوراس وجرجرة، حيث أنها تشتغل إلى جانب زوجها

بالأعمال المتعلقة بالفلاحة، مثل الإعتناء بالأشجار وجمع ثمارها والحصاد وجمع الزرع مع إشتغالها بعملها المنزلي كربة بيت، تسهر على إعداد الخبز والحطب، وتسقي الماء والعناية بمواشيها، وهذه الأعمال كانت مألوفة لدى المرأة منذ القدم.

لكن في هذه المدة بدأت تطرح مجموعة من الأسئلة من قبل الفقهاء عـــن رأي الشريعة في أعمال المرأة. فرأى بعضهم أن تكاليف المرأة إن كانت داخلة في تقاليد المجتمع والأسرة، وإن الأعمال التي تقوم بها طواعية وتلقائيا بقصد خدمة زوجها فلا شيء يسمح لها بأن تطالب بأجرة عن التكاليف.

فالدّارس لكتب الفتاوي في المغرب الإسلامي، ومنها أراضي الدولة الزيانية، وعلى الخصوص ما كتبه المازوني[1] يلاحظ الحماية التي أقرتها تلك الفتاوى لصالح المرأة من أجل استغلال محتمل من قبل زوجها أو من لدن الورثة عند وفاته مثل الإخوة و أقارب المتوفي. لكن النساء القرويات فـــي هــذا العصر كــن معافيات أو معفيات من قلة الوعي مما جعلن عرضة لاستغلال الرجال. وفـــي هذا الصدد يقول المجاجي[2]: "ومن جملة الأسباب التي يستعان بها في هذا الوقت سيما الضعفاء والمساكين والفقراء والتكسب والتحرش بخدمة النساء، فأردت الآن أن ننقل مافي ذلك من كلام الأئمة ليكـــون فيما يتعاطاه من ذلك وفي تركه على ثقة لأنه لا محل لمن يؤمـــن بـــالله واليوم الأخرأن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه".

1- المازوني ، المصدر السابق، ج3،ورقة 114.

2- المجاجي، المغارسة، ورقة 57.

فهذه النازلة توضح لنا مايلي:

أولا: أن استغلال المرأة كما أسلفنا لم يكن عاما بالنسبة إلى حميع أفـراد المجتمع، بل كان مقتصرا على الطبقة الفقيرة التي تعمل أكثر لكـي تحصـل على احتياجاتها، ويشارك في العمل كل أفراد الأسرة بما فيهم المـرأة نفسهـا وهذه الظاهرة لم تتغير لحد الآن.

ثانيا: إن الفقهاء يحـاولـون ربط عمل المرأة بما تـم الإجماع علـيه مـن قبـل الأئمة.

ومن بين الأئمة الذين رجع إليهم المجاجي القرطبي فقال:

"من الناس من أوجب على المرأة خدمة بيتها مطلقا، ومن هنا التفـصيل علـى مقتضي العادة، فإن كانت شريفة فلا تخدم، وإن كانت المرأة من قوم عـادتهم الخدمة خدمت، وإن جهل الحال ولم تعرف عادة أهل المرأة فالأصل الخدمـة إلا أن يتبين عدمها"[1].

نستخلص من هذه النازلة مايلي:

أولا: أن القرطبي أورد آراء الناس في خدمة المرأة، فقال عنهم أنهم اختلفوا فيما بينهم، فمنهم من يرى بأن المرأة لا بد عليها خدمة بيتـهـا، وفـي هـذا الصدد يجب عليها أن تنظف بيتها وتفرشه وتخدمه وتطبخ الطعام وتسقي الماء إن كانت عادة البلد كذلك، وهي الأعمال التي لا تزال المرأة تقوم بهـا حتـى الآن في الأرياف، ومنهم من يرى عكس ذلك، ومن هـؤلاء القاضي عيـاض الذي ذكر بأنه لا يجب على المرأة خدمة خـارج البيـت إلا بتطوعها عـلى وجـه الإعانة وحسن الصحبة.

1- المجاجي ، المصدر السابق ، ورقة 128.

وأما الخدمة في البيت كالطحين والطبخ والكنس، فذلك بحسب أقدار النساء، فعلى الشريعة الأمر والنهي [1].

فالقاضي عياض يفرق بين نوعين من العمل:

الأول: خارج البيت، وهذا لا يتم إلاّ بتطوع منها ولا يجوز لزوجها أن يرغمها على ذلك، لأنه خروج على الشريعة الإسلامية.

الثاني: العمل داخل البيت، هذا مرتبط بمكانة المرأة، فإذا كانت من الطبقة الفقيرة، فيجوز لها العمل أو يفرض عليها عكس إن كانت من الطبقة الغنية، فإنه يجب على زوجها أن يحضر لها عاملة تقوم بمهام البيت. وهو ما يؤكده المازوني [2] بقوله:" كان شيخنا أبو محمد رحمه الله تعالى، يحكى عن من أدركه من الشيوخ أنه أتته امرأة من الحاضرة تشتكي وجع يديها من العجين فأمر زوجها بشراء خادمة لها، وأتته إمراة من البادية تشتكي من الطحن وحمل الماء والحطب، وغير ذلك، فأمرها بالبقاء مع زوجها ومعاشرته على ذلك، لأن نساء البادية على ذلك دخلن. فالمازوني في هذه النازلة يجمع بين النكاح والإجارة بالنسبة للبدوية، لأن عادة نساء أهل البادية يقمن بهذه الأعمال عكس أهل الحاضرة، مما جعله يطلب من زوج المرأة التي قدمت إليه من المدينة أن يشتري لها زوجها خادمة تخدمها، لإختلاف المستوى الإجتماعي بين أهل المدينة والريف، لأن النساء في المدينة في عادتهم لا يقمن بذلك العمل، وهذا يتفق مع ما ذكره القرطبي، إذا كانت من قوم عادتهم الخدمة خدم وإن كانت شريفة لا تخدم. وفي بعض الحالات كانت المرأة تقوم

1- نفسه ، ورقة 129.

2- المازوني، الدرر المكنونة ،ج2، ورقة 117.

بالعمـــل وتطلـــب من زوجها أن يدفع لها مقابل عملها، وهو ما يؤكده المازوني عندما طرح نازلة، وجهت للمشدالي، وقال سئل عن الرجل يشتري الصوف أو الشعر، ويأتي بذلك لزوجته ويستعمله كما هو شأن البادية ثــم أرادت بعد فعلها ذلك أن تحاسب زوجها بعملها. يتوصل المازوني[1] إلى نتيجة مفادها، أنه إذا كان هناك اتفاق مع زوجها على ذلك فيجب عليه أن يدفع لهـــا نصيبها، فهي بمثابة شريك له، فهو بالصوف وهي بالعمل. وهناك نازلة أخرى تتعلق بعمل المرأة، جاء فيها: "سئل العقباني عن المرأة تريد التصرف فـــي الصوف لنفسها بغسله ومشطه ونسجه ويريد زوجها أن يمنعها من ذلك". فالمنع ربطه العقباني بعاملين أساسيين.

أولا: إذا كان الرجل لا يريد أن يرى زوجته في هذه الحالة من غسل ومشط، بل يريد أن يجدها نظيفة متزينة لكي يستمتع بها وأنه لا يريـــدهـــا أن تذهب إلى المجاري المائية لغسل الصوف حفاظا على شرفه، فهو محق فـــي ذلك، ويجوز له منعها عن هذا العمل خاصة إن كان له ما يكفيه دون الحاجـــة لعمل زوجته.

ثانيا: إذا كان عملها لا يمس بشرفه ولا بنظافة زوجته ولا ينقص مـــن واجبها نحوه، فهو لا يجوز منعها من العمل، لأنه يعتبر إلحاق الضرر بها، لأنها تستفيد من عملها. وهكذا فإن الفقهاء حاولوا تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية فيما يتعلق بعمل المرأة، ولا تزال مشكلة العمل بالنسبة للمرأة مطروحة في عصرنا الحالي. ومن العادات التي كانت متبعة في أراضي الدولة الزيانية عدم التزام أبي الفتاة بالزواج قبل بلوغ سن الرشد، وأن الزواج

1- المازوني، المصدر السابق،ج2، ورقة 87.

لا يتم في الغالب إلا برضاها وبوجود شهود، لكن هذه الفترة التي لم تعرف الاستقرار جعلت بعض الرجال يستغلون الفرصة ويخطفون الفتيات[1]. ويعيشون معهن مدة ثم ينتهي الأمر بالزواج منهن إن وافق أبو الفتيات على الزواج وإلا حرمت الفتاة من رؤية ولديها.

- **أثر انعـدام الأمن عـلى المـرأة:**

إن وضعية المرأة في الدولة الزيانية خلال هذه الفترة موضـوع البحـث لا تقل عن بقية أفراد المجتمع الزياني لأنها جزء منه، فكان استغلالها بأشبع الصور خاصة في الريف حيث ينعدم الأمن وتقل سلطة الدولة، فتتعرض المرأة إلى استغلال أشبع كالاعتداء على شرفها وكرامتها لعدم وجود من يدافع عليها إذا كانت تنتمي إلى القبائل الضعيفة أو الغارمة حسـب مصطلـح ابـن خلدون، وقد أورد المازوني مجموعة من النوازل تتعلق بها منها عـن رجل اغتصب امرأة فهرب بها فبقيت عنده نحو الجمعة (أسبوع) يستمتع بهـا على سبيل الإكراه ثم بعد ذلك ردها إلى أهلها هل يلزمه الصداق[2]. فهـذا الشخص يبدو لي أنه من ذوي الجاه مثل شيوخ القبائل الذين لا يراعون حرمة الله والعباد وعلى الخصوص أمام ضعاف القوم، لذا كيف نفسر سكوت أفراد عائلتها على ما حدث لها و اكتفوا ببساطتهم بالصداق فقط وهذا لم يكن مـن سمة المجتمع الزياني في فترة قوة الدولة حيث وفرت الحماية للمواطنين.

وهناك نوازل أخرى تتعلق بهذا الموضوع منها سئل عن يتيمة خاف الفساد لأنها في موضع يغلب عليه الفساد وهو المعروف ببلاد السايب التـي

1- المازوني، المصدر السابق، ج2،ورقة 66.

2- نفسه، ج2، ورقة 56.

لا يوجد بها أي أثر لسلطة الدولة الذي يعرفه المازوني[1] بقوله: " لضعف أحكام القضاة وهو مايدفع بولي أمرها تزويجها في سنة مبكرة مما يشكل خطرا على حياتها خلال عملية الإنجاب الأولى. يعرفنا الحفيد العقبـــانـــي عـــن كيفية هذه الإعتداءات فيقول الهارب على عادة البادية وهي العادة المشهورة عندهم يأتون في صورة الحرابة شاهري السلاح وبذلك لا يمكـــن لأي أحد الوقوف أمامهم. هذا فيما يتعلق بالمرأة الريفية أما أختها في المدينة فتبدو أكثر حظا منها مثل اللواتي ينتمين إلى العائلات ذات الجاه و المال كبار الحرفيين والتجار والمزارعين الذين يملكون ثروة كبيرة وتجعلهم يعيشون حياة الترف وهو ما أكده السليماني[2] عند تعرضه للسلاطين المتأخرين لهذه الدولة ولا يمكن في رأينا اقتصاره على الأسرة الحاكمة فقط بل موظفي الدولة وشيوخ القبائل وهؤلاء يملكون عدد من الخدم جواري وعبيد مصدرهم تجارة الدولة الزيانية مع أوربا والسودان الغربي فازداد عدد هؤلاء في تلمسان مما جعلهم يؤثرون سلبا على الأحوال الإجتماعية بها وهو ما يؤكده العقباني بقوله: "وماهو مألوف في تلمسان اجتماع الجمع الغفير والملأ الكثير منهـــن على السقايان والأفران لسقي الماء أو طبخ الخبز فيطلن الوقوف هناك بغير ماتبين له على الاستدعاء في الحديث مع فسقة العبيد وبعض الأحرار على ما ظهرت آثاره في الكثير من الدور بولادة الخدم فيهن أبناء الزنا[3]. زيادة على ماسبق يلاحظ الباحث أن مدينة تلمسان كانت تحتوي على مجموعة من الأفران

1- المازوني،المصدر السابق،ج2،ورقة 97.

2- السليماني، الشماريخ، ج3، ورقة 124

3- العقباني ،تحفة الناظر،ص261

خاصة بطهي الخبز سواء الذي يخبز بالدور أو من قبل الخباز نفسه ثم يباع للناس وهو ما يوضح لنا الرقي الذي بلغته هذه المدينة.

كما أن تلمسان كانت تحتوي على مجموعة من العيون بأغلب دروب المدينة وأن نقل الماء منها إلى المنازل يكون بواسطة هؤلاء الخدم فيما يتعلق بالعائلات الغنية.

لم يقتصر الإنحلال الخلقي على العبيد والجواري فقط بل امتد أيضا إلى بعض العائلات فانتشر في صفوفها الشذوذ الجنسي، ولعل ذلك راجع بالدرجة الأولى لتأثير الهجرة اليهودية والأندلسية في أراضي الدولة الزيانية انتشرت بها عادات لا تتماشى مع المجتمع الزياني .وقد أكد أحد السجلماسيين الـــذي ألّـــف للمتوكل كتابا في الأحكام، تعرض للموضوع وأثاره على المجتمع كما تعرض إليه العقباني فقال: "ومنها ما يفعله شرار النساء من التفاعيل لا سيمـــا مـــا يدعـــو إليه اطلاع بعض الفاسقات على محاسن الأخريات وتحريـــك شهـــوة التفاعل على الذين يختار بعضهن لذته عن مباضعة الرجل والحكـــم في تأديبها وقد كثر هذا في زماننا[1].

فالشذوذ الجنسي نشأ داخل العائلات وبين النساء خلال اجتماعهن في بعض المناسبات التي تعرض لها العقباني[2]، ومنها:

خروج النساء لمجالس تجمعن كما يفعلن عندنا في مجمع يسمونه التويزة، يغزلن عند امرأة واحدة في منزلها عندما تدعوهن لغزله من كتان وصوف إعانة ورفق، لكن بالنسبة للعقباني وبعض فقهاء تلمسان المتشددين في أحكامهم

1- نفسه، ص،269.

2- العقباني، المصدر السابق. ص:264.

يرون فيه خطرا على الفتاة أو المرأة الصغيرة المتزوجة حديثا، حيث يضع لهن الشباك بعض النساء المحترفات في ميدان الدعارة، فيؤدي بهن إلى الفرار من بيت الزوجية.

لم يقتصر إجتماعي في مجتمع التويزة فقط وبل حتى لدى الصناع، وعلى الخصوص الذين يصنعون الحلي[1] والمنسوجات والتجار الذين يبيعون القماش، وما تحتاج إليه المرأة من عطر وغيره. وهذا في رأي العقباني له تأثير سلبي، لأن صناع عصره والفترة الموالية له، لم يتقيدوا بالأحكام الشرعية لضعف الدولة الزيانية وضعف من يتولى شؤون الحسبة. يضاف إلى ماسبق ما يحدث في المناسبات كالأعراس، حيث تقوم الأفراح ويحدث الإختلاط فيما بين الرجال والنساء لسماع المغنيين والمغنيات، لأن تلمسان خلال هذه الفترة عرفت توافد عدد من الأندلسيين الذين نشروا الموسيقى بها. وهو ما يؤكده العقباني بقوله: "وأما ما يقع في تلمسان من اجتماعهن على احتفال أو تزيين فيحلقن دائرة على رجل غير محرم يغنين ويطربن"[2]. يضاف إلى ماسبق زيارة المقابر، وعلى الخصوص في المواسم الدينية، لأن أغلب المقابر في الدولة الزيانية توجد خارج المدينة. فكان الرجال، وعلى الخصوص الشبان يتعرضن لهن لمغازلتهن وتحديد موعد لهن، مما دفع بالعقباني إلى المطالبة بمعاقبة هؤلاء حتى يتم القضاء على الآفات الإجتماعية التي بدأت تنتشر في تلمسان.

1- نفسه، ص: 260-261.

2- العقباني، نفس المصدر،ص: 264.

- **التأثيرات السلبية بالنسبة للطبقة العاملة**

*** أولا: المـــزارعـــين:**

إن خصوبة أراضي الدولة الزيانية التي كانت تمتد من جبال أكفـــادوا فـــي بلاد القبائل الكبرى إلى حوض وادي الملوية[1] وسط الجزائر وغربها جعلـــت السكان لا يعتمدون على نمط واحد في الحياة، بل نجد ثنائية الاستقـــرار والترحال، بين الزراعة وتربية المواشي.

*** أنواع المزارعـــين:**

فإذا كانت المصادر التاريخية التي تناولت حياة الدولة الزيانية قـــد ركزت بالدرجة الأولى على أمراء هذه الدولة وعلاقتهم الخارجية، وخاصـــة مع الدول المجاورة لهم والقبائل المستقرة بمحيط دولتهم، فإنها لم تلق الضوء على المزارعين، لذا كان لا بد لنا من الإعتماد على كتـــب النوازل، لأنها تغطي بعض الجوانب المظلمة من حياة هؤلاء الفقـــراء والمساكين. وحسب ما أورده المازوني[2] فإن هؤلاء المزارعين يتشكلـــون من ثلاث أصناف:

أولا: مزارع مستأجر[3] وهو الذي يكتري أرض غيره لمدة سنة أو أكثـــر، ويلتزم بدفع الكراء إلى صاحبها.

1- عن سهول هذه المنطقة، انظر : حليمي، المرجع السابق،ص: 96

2- المازوني، المصدر السابق،ج2،ورقة 76.

3- نفسه ،ج2،ورقة 86

ثانيا: مزارع مشارك[1] لصاحب الأرض ويعرف بالخماس، و كان عليه أن يقوم بجميع الأعمال بما في ذلك خدمة الحيوان الخاص برب الأرض.

ثالثا: مزارع موسمي يعمل بالأجرة في أيام الحرث والقطف والحصاد.

والراجح أن أغلب هؤلاء المزارعين كانوا يعملون في أراضي القبائل العربية التي استقرت بأغلب أراضي الدولة الزيانية بعد أن أزاحت عليها القبائل البربرية كبنى توجين و مغراوة وبني راشد وبني عبد الواد الذين فضل بعضهم الاستقرار بالمناطق الجبلية الوعرة مثل الظهرة وجبل الونشريس، فأصبحت أراضي السهول ملكا لهذه القبائل بعد أن تخلت عليها الدولة الزيانية لصالح سويد وبني عامر وبني يزيد الذين كانوا يقدمون مساعداتهم للدولة خلال الحروب التي دارت بينها وبين أعدائها من المرينين والحفصين والقبائل البربرية المعادية لها، وعلى الخصوص في عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني، الذي عرف بكثرة اقطاع هذه القبائل كما هو الشأن بالنسبة لبني عامر وسويد وذوي عبدالله من المعقل.

لم يتوقف عمل هذه القبائل على استغلال الأرض فقط، بل فرضت ضرائب باهضة على المزارعين، خاصة في المرحلة الأخيرة من حياة دولة بني زيان، وهو ما ساعد على نمو ثرواتهم العقارية بشكل أثار انتباه الحسن الوزان.

كما أثرت على المزارعين ودفعتهم إلى ترك أراضيهم، ناهيك عن عملية الإغارة والسلب والنهب التي كانت تقوم بها بين الفينة والأخرى بعض القبائل العربية من بني هلال.

1- نفسه ،ج2،ورقة 87 كذلك عرفت أراضي الدولة الزيانية خلال فترة هذا البحث سوء الأحوال الطبيعية جفاف انظر ابن خلدون ،العبر،مج6،ص : 156
الحسن الوزان ،المصدر السابق،ج2،ص : 48-57.

وعلى العموم فقدعاش المزارع حياة تعيسة وبؤس مع أسرة متكونة من عدة أفراد كانوا يعملون إلى جانبه في الحقل، على الرغم من ذلك لم يحصلوا على ما يحتاجون إليه، مما أدى ببعضهم إلى مزاولة حرف أخرى كالصناعة التقليدية مثل المنسوجات والأواني المنزلية وغيرها.

- الظـــروف الطبيعيـــة:

اجتاحت بلاد المغرب الإسلامي سنوات جفاف، وهو ما تؤكده بعض النصوص والوثائق الإسبانية على الرغم من قلّتها، منها أنه في سنة/1535م وقع قحط شديد ضرب جميع أنحاء الدولة الزيانية فقل الإنتاج الزراعي وماتت أغلب المواشي.

كما أن انتشار الجراد أصبح هو الآخر ظاهرة مألوفة، وكل هذه الظواهر السالفة الذكر أثرت على مزارعي الدولة الزيانية وعمقت أزمتهم، مما جعل الكثير منهم يعوضون هذه الخسارة بالإلتجاء إلى الرعي الذي يتطلب الترحال.

*** الرعـــــاة:**

الواقع أن معلوماتنا عن الرعاة تبقى ناقصة، وإن كانت أوصاف الرحال لاتخلوا من فائدة، لأنها تؤكد كلها على أن أراضي الدولة الزيانية تعد مـــن أحسن المناطق الرعوية، حتى وصل وزن الشاة من الشحم إلى مائة أوقية.

والنمط الرعوي هو النمط الغالب على الحياة المعاشية للفئات الإجتماعية في أراضي الدولة الزيانية.

وبما أن أغلب سكان الدولة الزيانية من عنصرين بارزين: البربر والعرب، وكلاهما يهتم بتربية المواشي، فالزناتيون مثلا، قال في شأنهم ابن خلـــدون:

من عوائدهم ايتلاف الرحلتين، مشيـرا بذلك إلى عمليـة الانتجـاع بين المرتفعـات والسهول.

وإذا كانت هذه الظاهرة الطبيعية تشير إلى وضعية إيجابيـة، فيجـب ألا يغرب عن الأذهان أن عائد الماشية كان يؤول إلـى القبائـل العربيـة كمـا أن سنوات الجفاف كانت تخلف نتائج سلبية على و ضعية الرعاة.

*** الحـرفيـون:**

بعد أن عرضنا لأحوال الرعاة في أراضي الدولة الزيانية نحاول أن نرصد أحوال الصناع والحرفيين. فمن بين العوائد أن الحرف والصنائع كانت ضمن الأنشطة الهامة التي تزاولها جماهير الدولة لكسب رزقها.

ومن المؤكد أيضا أن الدولة الزيانية عرفت أسواقا متنوعة، كان يستقر بها الحرفيون[1] .

*** الصنـــاع:**

أما عن علاقة الإنتاج التي كانت سائدة في أوساط الحرفيين فيمكن استخلاصها من كتب النوازل وعلى الخصوص إذا اعتمدنا على قاعدة وحدة التشريع في المدن المغربية بقياس الشاهد على العايد على حد تعبير ابن خلدون، فمن خلال قراءة تلك النوازل يتضح أن الصناع كانوا ثلاثة أصناف:

الصانع الخاص[2] الذي يملك آلات العمل ويكتريها لغيره بأجر لأجل معلوم.

1- الحسن الوزان،المصدر السابق، ص : 48-51.
ابن خلدون، العبر، مج6،ص : 220.
الحسن الوزان،المصدر السابق،ص : 26.
2- نفسه الوزان،ص.36.

الصانع المشترك[1] وهو ليس بأجر عند رب العمل وإنما يحسن استخدام لكل ما يقدم له الصانع المتجول مثل صانع الأدوات الحديدية والخشبية وغيرها.

أما عن أوضاع هؤلاء الحرفين ،فالثابت أنها كانت مزرية فلا غرو أنهم كانوا يسمون في البنائين العصر الموحدي بعبيد المخزن ويمكن أن تسوق في هذا الصدد مثل الذين جندوا لخدمة أغراض السلطة في بناء الحصون والقلاع، فمن المؤكد أنهم كانوا يعملون ساعات كثيرة تفوق طاقتهم من صلاة الغداة إلى المساء.

* التجار:

وعلى غرار الحرفيين، لم يكن الباعة الصغار في حالة يحسد عليها إذ سلّط عليهم المحتسب تحت مبرر قمع الغش، فكانوا يتعرضون من جراء ذلك إلى أقصى العقوبات، ومن بينها الطرد من السوق، أما الباعة المتجولون فقد تعرضوا لمضايقات كبيرة وأغلب الظن أنهم كانوا يملكون حوانيت لكنهم عجزوا عن أداء كرائها مما جعلهم يتحولون إلى باعة متجولين[2].

يتضح مما تقدم أن وضعية الفئات الشعبية في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الزيانية كانت مزرية للغاية وقد زادت الظروف الطبيعية وضعيتهم تفاقما، إذ كانت مجاعات دورية تقع على رأس كل سبع سنوات يتبعها إرتفاع في الأسعار.

1- نفس المصدر ص37

2- العقباني، المصدر السابق ص162-163.

- **بقية الوظائف:**

تعرض الونشريسي: في كتابه (المعيار) لبعض الوظائف التي عرفتها تلمسان فيقول: سئل عن معلم يقرئ الأولاد وفيهم أولاد الموثقين وأولاد الحلاجين، والدلالين، والصيارفة، والحجامين، وأولاد المخزنين فهل يجوز أن يأخذ منهم أم لا[1].

مهنة الموثقين من بين المهن التي عرفت انتشارا في هذه المرحلة وقد ألف في شأنها كل من ابن الخطيب الأندلسي، وأبو العباس الونشريسي، ويبدو أن مهنتهم لاتقتصر على كتابة العقود المتعلقة بالبيع، والشراء، مثل ماهو عليه الحال لا بل كان هؤلاء يرافقون الحاميات العسكرية، التي تخرج من مدن الدولة، وخاصة تلمسان، بجمع والجبايات المخزنية المحرمة ولعل ما كان يقوم به الأتراك، فيما بعد هو امتداد لما كان معمولا به في عهد الدولة الزيانية.

ولعل علاوتهم تأتي من الجبايات التي كانوا يقومون بجمعها من القبائل وعلى الخصوص التي تقوم بمعارفه الدولة الزيانية والبعض من هؤلاء الموثقين لا يأخذون مالا إذا كان حلالا.

يقول عن هؤلاء: "فلا أدري حقيقة أمرهم لكنني سمعت أنهم إذا نزل التاجر عند أحدهم تولى ضبط جمع ماجلب وفرض ما يجب عليه للمخزن، وأخذ سلع منه ثم يبيعها الجلاس ويدفع ثمنها للوالي ولهم من معه مرتب يحال به على الوالي فيقطعه من خزن السلع التي يأخذها من التجار النازلين على يديه، مع قبح كيفية عقود استجارهم، وقبح شركتهم مع الدلالين وإنما يجب للجلاس أجر

2- الونشريسي،المصدر السابق،ج2،ص:167

مثله، فيما يتولى مما التاجر فله منفعة خاصة، وأقبحهم حالا من يأخذ المرتب من المخزن.

يلاحظ على النص الذي أورده الونشريسي[1] مايلي:

أولا: أن هؤلاء الجماعة كانوا يستقبلون التجار القادمين من المناطق الأخرى، فينزلون عندهم، ويتولون ضبط كمية السلع التي أتوا بها، ولعل هذه العملية تتم بالفنادق لأنها مكان استراحة التجار، وتحتوي على مخازن للسلع، وهنا يتم تحديد ثمن الضريبة التي تدفع إلى بيت مال المسلمين، وإن لم تكن لديهم أو أموال يأخذون منهم سلعا فيبيعونها يدفعون ثمنها للوالي والسلطان أو المكلف بجمع هذه الأموال.

ثانيا: أن هؤلاء كانوا يعمدون إلى أخذ أجور أصحاب السلع الذين ينزلون عندهم، ومن الدولة لأنهم يعتبرون أنفسهم موظفين لديها، أو يأخذون أجور من السلع التي تدفع للوالي ومن الذين يكلفون الدلالين، الذين يأخذون منهم السلع، لعرضها على أصحاب الدكاكين، لأن العادة المتبعة في أسواق الدول الإسلامية، أن التاجر عندما يحط رحاله في المدينة يكلف الدلالين بعرض سلعته على التجار، ويأخذون مقابل ذلك نسبة من الفائدة.

*** الحجامون:**

مهنة الحجامة من بين المهن التي لا تخلو منها أسواق الدولة و نجد في تلمسان بعض العلماء يلقبون بالحجام، ويعتبر هؤلاء بمثابة الحلاقين، الآن ولعل نفوذهم كان كبيرا. وهو ماجعل الونشريسي[2] يصفهم بالتعاون

1- أبو العباس الونشريسي المعيار ج6 ص 157.

2- الونشريسي، المصدر السابق،ج2،ص: 169.

مـــع مغتصبي أموال الناس الصيارفة:

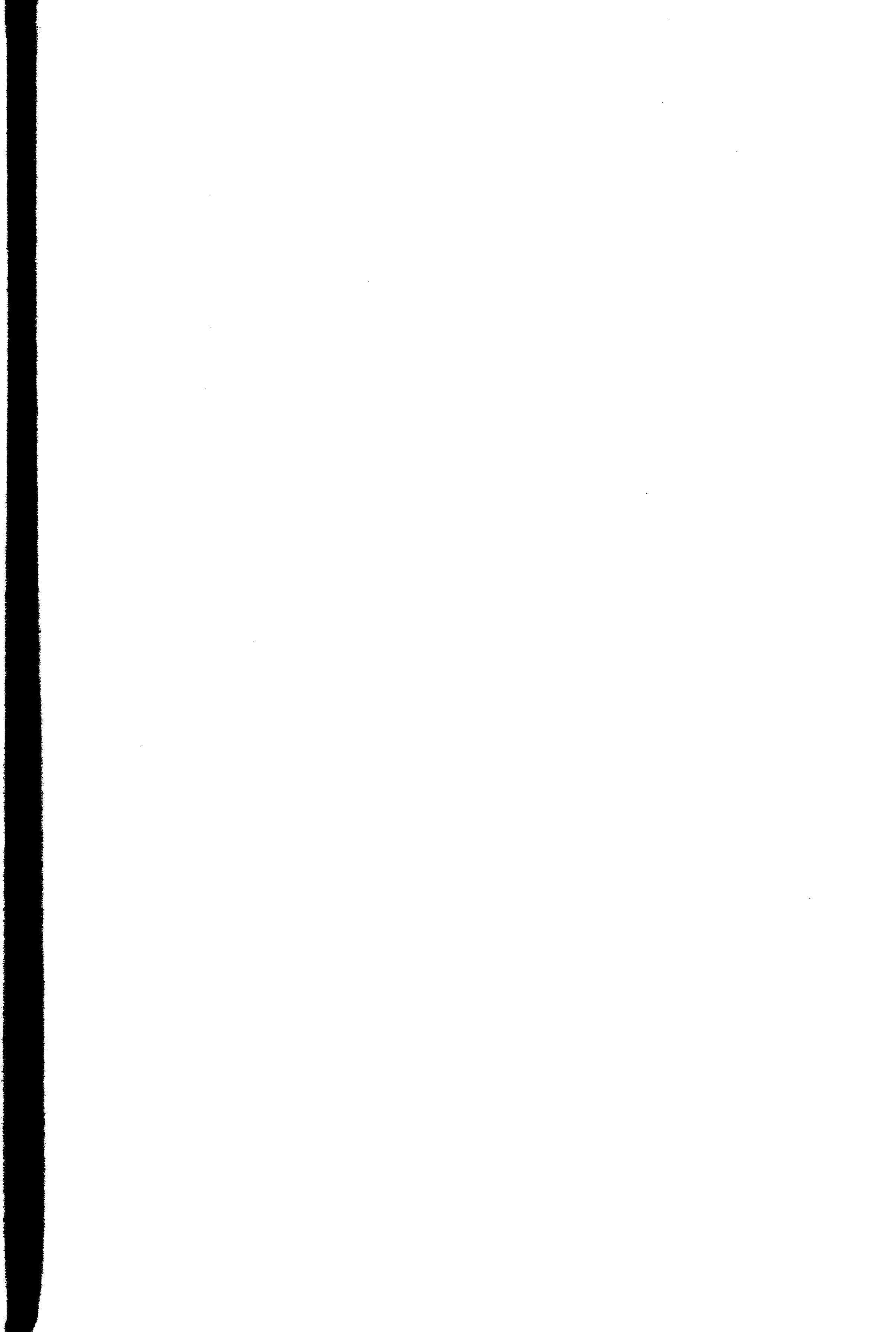
من أبرز المهن في أسواق الدولة الزيانية التي تتوفر على مختلف السلـــع القادمة من السودان الغربي، والبلدان الأوروبية والدول الإسلامية، وأغلـــب مـــن يقوم بهذه المهنة هم اليهود لأن المسلمين يبتعدون عنها لوجود الربـــا ضمن تلك المعاملة التي لا تختلف عن معاملة المصارف المالية في عصرنـــا وهو ما جعل الونشريسي يعلق على هؤلاء الصيارفة بقوله هؤلاء الناس أغلـــب معاملهم التجارية بالربا".

*** المخـــزنيـــون:**

هؤلاء وظيفتهم، جبايات الأموال من الولايات ومن التجار فـــي أســـواق الـــدولة الزيانية ويعتبرهم الونشريسي[1] من مستغرقي الذمة لأنهـــم يأخـــذون أموال الناس بغير حق.

1- نفسه، ج2،ص: 256

الفصل الثالث



الجــاليــات الأجــنبية

- الجالية الأندلسيــة:

علاقة الدولة الزيانية بالأندلس قبل سقوط غرناطة:

عرفت تلمسان في عصورها الذهبية علاقة حسنة مع الأندلس فقد تولى بعض أفراد هذه الجالية وظائف حساسة في الدولة وهذا منذ تأسيس الدولة الزيانية وعلى الخصوص في عهد السلطان أبى حمو موسى[1] الأول والثاني[2] الذي تأثر كثير بالحضارة الاندلسية.

أما أسباب الهجرة فترجع إلى عاملين أساسين:

أولهما : أن أراضي الدولة الزيانية كانت تشكوا من انهيار ديمغرافي تواصل خلال المراحل التي مرت بها الدولة نتيجة لكثرة الاضطرابات الداخلية التي أدت إلى مقتل الكثير من سكانها وهجرة البعض الآخر وقد ذكر لنـــا الحسن الوزان أن مدينة شرشال خالية من السكان وقد عمرت من قــبل مهاجري غرناطة وقد أشار إلى عدم قطف ثمار بساتين هنين ومليانة والسبب في ذلك على ما يبدو لنا هجرة سكانهما وانتشار الأمراض المعدية نتيجة للحروب المتواصلة وانتشار المجاعات.

1- من بين الشخصيات الأندلسية التى تولت إدارة الدولة الزيانية في عهد السلطان أبي حمو موسى الأولى707، 717، 1317،1307 إبراهيم بن محمد بن ميمون بن الملاح وعلي بن عبد الله، انظر التنسى، تضم الدرر والعقبان، ص202.

2- أما في عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني791،750، 1358، 1389، فنجد محمد بن علي بن القاسم المرسى أحد كتاب الانشاء، انظر ابن خلدون يحي، بغية الرواد ، ج1، ص118.

ثانيهما: مأساة الأندلس: وتبدأ المأساة من بداية انهيار ذلك الصرح الكبير الذي أقامه الأمويون بالأندلس منذ العشرية الرابعة من القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي إلا أن ذلك الصرح بدأ يتحطم في أواخر القرن الرابع الهجري الشيء الذي أفقد الدولة وضعيتها السباسية الموحدة وكان ذلك في نهاية حكم الحاجب المنصور وبدأ عصر الدويلات والطوائف وهذه بداية النكبة التي أصابت المجتمع الأندلسي ربما كانت تلك الأسباب قوة الدافع الاسلامي القائمة على دعوة التوحيد ضعفت عندما وصلت إلى أقصى انتشارها وأن العناصر البدوية ،عربية أو بربرية حالت دون القضاء على الجيوش الاسبانية المدحورة في الهضاب العليا الشمالية من شبه جزيرة ايبيريا وسمحت هذه التناقضات لهذه الجيوب أن تتكامل وأن تقوى وأن تتربص بالمسلمين الدوائر، حتى لاحت لهم لائحة الخلاص من المسلمين حين راحت ملوك الدويلات الاسلامية تترامى على أعتاب بلاط ملك قشتالة يؤدون الجزية لملوكها صاغرين.

وقد كان لسقوط طليطلة عاصمة مملكة بني ذي النون بداية لسقوط الأندلس وهي أول حاضرة أندلسية كبرى تسقط وهو ماجعل ملوك الطوائف يستغيثون بالمرابطين ،حيث أجاب صراخهم يوسف ابن تاشفين فكانت موقعة الزلاقة سنة 1086/464 فبسط بعدها المرابطون نفوذهم على الأندلس وجاء الموحدون على انقاضهم واستمرت وضعية الأندلس تحت حكم المغاربة قرنا ونصف بعد مواقع حاسمة مع الإسبان منها:

موقعة اقليش1008/501 وفراغة 1134/528 والعقاب 609/ 1212 وفي هذه الأخيرة كانت الغلبة للاسبان، حيث انهار سلطان الموحدين في الأندلس والمغرب الإسلامي.

وبعد هذا التمزق انتهزت اسبانيا الفرصة لاسترجاع الحواضر الأندلسية قرطبة واشبيلية ولم يكن القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي يحسب حتى كانت الولايات الأندلسية الشرقية والوسطى قد أصبحت بيد الاسبان. ولم تبق سوى ولاية صغيرة في الطرف الجنوبي من شبه جزيرة ايبريا هي مملكة غرناطة تتحمل المسؤولية من جديد وقد استطاعت أن تحافظ على الوجود الإسلامي في الأندلس لقرنين من الزمن وكل الفضل في ذلك يعود إلى تدعيم هذه المملكة من قبل الخلفاء الموحدين وبني مرين وبني زيان الذين استجابوا للصريخ فتحالفوا مع الأندلسيين تحالفا أخويا على أساس أن المسلمين أمة واحدة وأن الجهاد الإسلامي واجب في أي مكان من البسيطة فكانت هزيمة الاسبان سنة1275/674على يد السلطان أبي يوسف يعقوب وكان نصرا عظيما أعاد إلى الأذهان ذكريات الزلاقة والارك.

لكن الصراع بين دول المغرب الإسلامي خلال تلك المدة حال دون تكمين تلك الانتصارات فعادت الجيوش المرينية إلى المغرب الأقصى لمواجهة الدولة الزيانية.

من خلال ماسبق يتبين لنا أن الهجرة الاندلسية إلى أراضي المغرب الإسلامي ومنها أراضي الدولة الزيانية كانت نتيجة لظروف سياسية جعلت هؤلاء السكان يتركون أراضهم ويتوجهون إلى المغرب الإسلامي.

وقد مرت الهجرة الأندلسية إلى المغرب الإسلامي بعدة مراحل على النحو التالي:

المرحلة الاولى: ترجع إلى القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي حيث نجد البعض منهم كانوا يمارسون النشاط التجاري مما نتج عنه انشاء مراكز عمرانية بالموانيء التي كانوا يتوافدون عليها مثل تنس ووهران ومن هنا نؤكد وجهة النظر التي تقول أن الأندلسيين كان لهم الدور الكبير في بناء المدينتين.

المرحلة الثانية: في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي وقد بدأت هذه المرحلة مع بداية ضعف المسلمين في الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية 1029/422 وتكوين دولة الطوائف وقد نشطت مع ازدياد حركة الاسترداد المسيحي للمراكز الإسلامية في الأندلس ،ولذلك توافد مهاجروا الأندلس من تلك المدن التي سقطت في يد الاسبان مثل اشبيلية وقرطبة. وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون [وأمّا أهل الاندلس فاستقروا في الاقطار عندما تلاشى ملك العرب بها ومن خالفهم من البربر وتغلب عليهم النصارى فانتشروا في عدوة المغرب وافريقية من لدن الدولة اللمتونية إلى هذا العهد وشاركوا أهل العمران بما لديهم من الصنائع وتغلب خطهم على الخط الإفريقي.

نستخلص من النص السابق أن الهجرة الأندلسية قد بدأت مع بداية ضعف المسلمين في الأندلس توسع النصارى على حساب المراكز الاسلامية مثل قرطبة التي سقطت سنة 1235/633 وبنلسية سنة636/ 1238 ومرسية سنة 1266/666 مما جعل سكن تلك المدن يتوجهون الى غرناطة ومدن دول المغرب الاسلامي كتلمسان.

وهناك مجموعة من الأندلسيين قدموا من غرب الأندلس نحو أراضي الدولة الزيانية بعد سقوط اشبيلية سنة1248/646 فاستقروا بها.

وخلال الصراع بين دولة بني ناصر ومملكة اراجون وغيرها من دول شبه الجزيرة ايبيريا باسبانيا المجاورة لبني ناصر نجد عدد من الأندلسيين يتوجهون نحو أراضي الدولة الزيانية واغلبهم استقروا بمدينة تلمسان ووهران وقد تعرض يحي بن خلدون لبعضهم وعلى الخصوص المستقرين بتلمسان منهم: ابو العيش بن عبد الرحمان الخزرجي ومحمد بن العيش الاشبيلي الأصل ويقول عنه:

[روي ببلده عن أبي بكربن سعادة وأبيه أبي زيد عبد الرحمان بن ابي العيش وولده متقن ذوعلم وخط بارع خطيب الجامع الأعظم بتلمسان.

ومع أن الأندلسيين كانت هجرتهم جماعية فهناك عائلات بكاملها توجهت إلى تلمسان وخاصة المثقفون منهم الذين وجدوا مكانة كبيرة عند الزيانيين وفرصا للعمل في جميع الميادين الثقافية والسياسية.

ومن العلماء الذين توافدوا على أراضي الدولة الزيانية يحيى بن علي المرسي التلمساني وكذلك موسى بن أحمد بن مروان الهمداني الوهراني الأصل التلمساني المنشأ الشلبوني المقدم وعلي بن يحيى بن سعيد بن سعود بن سهل الأنصاري القلي الذي كان قد سكن اشبيلية ومراكش وكان فقيها أديبا حسن الخط قرأ بجامع قرطبة زمنا.

ومن علماء اشبيلية الشيخ أبو عبد الله الحلوي الاشبيلي الذي كان يحترف مهنة بيع الحلويات في تلمسان وينصدق بنقودها على الفقراء والمساكين وهو من الأولياء الله الصالحين المعروفين في تلمسان.

ومنهم أبو بكر بن سعادة الاشبيلي وقد قال في شأنه يحي ابن خلدون: [هــو أبو عبد الله أخذ عن أبي الحسن شريح وأبي العباس بن حرب المسيلي الزابي بكر بن العربي وأجازه أبوبكر بن رزق وابن مدير وأبو الطاهر السفلي كان مجودا للقران حافظا محدثا نفاذا على الرواية نزل تلمسان وعمر بها وتوفي في رجب سنة ستمائة وهؤلاء تمتعوا بثقافة عالية فأصبح لهم التأثير في المجتمع الزياني وقد تركوا بعد وفاتهم تلامبذ تأثروا بهم ومن أبرزهم أبوزكرياء يحيى بن عصفور وأبو العباس بن عبد الرحمان الخزرجي.

وقد شملت هذه الهجرة التجار والحرفيين وقد تجمع هؤلاء يحــي خــاص بتلمسان عرف بدرب الأندلسيين.

المرحلة الثالثة: ترجع هذه المرحلة إلى القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي .إثر سقوط دولة بني ناصر حيث خرجت هجرات كبيرة بلغت الأسكندرية لكن أغلب هؤلاء استقروا بالمغرب الاسلامي وفي هذا الصدد يقول ابن غالب [ولما نفذ قضاء الله على أهل الأندلس بخروج اكثرهم عنها في هذه الفتنة الأخيرة فافترقوا ببلاد المغرب من بر العدوة حتى بلاد افريقيا فأهل البادية قد مالوا إلى البوادي إلى ما عتدوه ودخلوا مع أهلها وشاركوهم فيها فاستقوا المياه وغرسوا الأشجار واحدثوا الأراضي وعلموهم اشياء لم يكونوا يعلمونها ولا رأوها. فأشرقت بلادهم وصلحت أحوالهم].

وقدد حددت نوعية الثقافة أو الحرفة لدى الأندلسيين المكان الذي كانوا فيه بالاندلس فأهل البادية توجهوا لاستغلال الأراضي الزراعية.

أمّا المثقفون فتوجهوا إلى الحواضر ومنها تلمسان ووهران وكذلك التجــار والحرفبن وأما أصحاب صناعة الملاحة والصيد فقد استقروا بالموانىء.

لقي هؤلاء المهاجرين في أراضي الدولة الزيانية صعوبات نتيجة لانعدام الأمن بعد ضعف الدولة مما جعل بعضهم يتعرض لعملية النهب والسرقة من قبل بعض القبائل وهو ما دفع بالأغلبية منهما إلى متابعة الهجرة نحوتونس وغيرها من حواضر الدولة الحفصية.

ومن فوائد هذه الهجرة الأخيرة أن هؤلاء حذروا سكان الدولة الزيانية وأطلعوهم على جرائم الاسبان ونواياهم تجاه البلاد الإسلامية ولكنهم لم ينتفعوا بشيء من هذا.

- أثر الأندلسيين في المجتمع الزياني:

أما أثرهم في المجتمع الزياني فقد شمل مجموعة من الميادين لعل أبرزها الميدان الإداري، حيث تقلد هؤلاء مناصب في الدولة الزيانية وهذا يرجع إلى تجاربهم في ميدان الإدارة وكونهم يتحلون بالأمانة والصدق والسيرة الحسنة ومن بين هؤلاء، الفقيه أبو بكر محمد بن عبد الله بن داوود بن خطاب الغافقي المرسي وهو من بين الذين ترجم لهم ابن خلدون يحيى فقال عنه: "روي عن أبي بكر بن جمهور وأبي بكر بن محرز وأبي بكر الغافقي وأبي الحسن عبد الرحمن بن وفاء وأبي عيسى محمد بن محمد بن أبي سداد وأبي مطرف بن عميرة الميورقي وغيرهم.

أجازه أبو الربيع سالم وكان من أبرع الكتاب خطا وأدبا ومن أعرف الفقهاء بأصول الفقه كتب بغرناطة عن ملوكها وقفل إلى مرسية وقد اختلت أمورها فارتحل إلى تلمسان ولما ظهر اهتمام يغمراسن بالعلوم قربه منه فقال عنه يحيى بن خلدون كتب بها لأمير المؤمنين يغمراسن بن زيان وتوفي بتلمسان يوم عاشوراء سنة 1238/636.

ومن الموظفين الذين توافدوا من الأندلس على تلمسان ابن وضاح بعد سقوط دولة الموحدين اجتاز البحر مع جالية أندلسية. فأثره يغمراسن ثم قربه من مجلسه وأكرم وفادته وأجله من الخطبة والشورى بمكان اصطفاه له.

ومن هؤلاء الفقيه عبدون بن الحباك الذي تولى القضاء كما أشار إلى ذلك ابن خلدون يحيى إلا أنه لم يحدد لنا مكان توليه القضاء وزمنه فاكتفى بقوله [هو الفقيه القاضي أبو محمد عبدون بن محمد الحباك كان خطيبا وصاحبا لأمير المسلمين أبي يحيى بن زيان ويرى جورج مارسي أنه من أصل أندلسي لأن اسمه ينتهي بالواو والنون.

ومن بين الشخصيات الأندلسية أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الابلي التلمساني ويعود أصل أجداده إلى مدينة ابلة بالأندلس وقد وولد بتلمسان حوالي681/ 1280.فدرس بها.

وكذلك إبراهيم بن ميمون بن محمد بن ميمون بن الملاح كان دور هـذه العائلة الأندلسية قد انتهى بنهاية السلطان أي حمو موسى الأول.

ومن موظفي الدولة من الأندلسيين في عهد السلطان أبي حمو موسى الثانـي محمد بن علي بن القاسم المرسي أحد كتاب الانشاء وشعراء البلاط العبد الوادي، أما سعيد العقباني فقد خلف أبا عبد الله الشريف في التدريس بالمدرسة اليعقوبية.

ومنه أبوعثمان محمد بن محمد العقباني ولد بتلمسان سنة720/1320 أخذ العلم عن الأخوين ابني الإمام ثم درس على الابلي الأصول والعلوم العقلية.

ومنهم قاسم بن سعيد العقباني فقد أخذ عن والده وغيره من العلماء فبرع في العلوم الدينية وولي القضاء بتلمسان وأخذ عنه حفيده محمد بن أحمد العقباني وابنه محمد بن قاسم العقباني الذي كان فقيها عارفا بالنوازل ولي قضاء الجماعة بتلمسان ومن أبرز ماكتبه تحفة الناظر في تغيير المناكر.

ومن الأندلسين الذين زاروا تلمسان وتأثروا بها وأثـروا فيهـا الشيـخ أبـو الحسن على بن محمد بن على السبطي الشهير بالقلصادي، عنه السخاوي قال صاحب الصالح الرحلة المؤلف أخر من له التأليف الكثير من أئمة الأندلس أخذ عنه الإمام السنوسي[1] صاحب العقائد وجملة من الفرائض والحساب واجازه جميع مروياته، وعند ارتحاله إلى المشرق مر بتلمسان فأخذ بها عن الإمام عالم الدنيا حسب تعبيره ابن مرزوق والقاضى أبى الفاضل قاسم العقباني وابن العباس بن زاغوا وغيرهم من علماء تلمسان ومن بين هؤلاء أبو عبد الله محمد بن على بن الازرق قال عنه ابن دارد أنه من كبار الطريقة الشاذلية. وقد قال العلامة ابن دارد حدثني مولاي رضي الله عنه لقيته في تلمسان يوم الاثنين سنة 895 هـ.

كما قال دخل علي في نفس السنة وبالتحديد في شهر رمضان و من الذين استقروا في تلمسان من الأندلس أبى عبد الله محمد بن الحداد الوادي نزيل تلمسان.

وقد قال المقري تذكرة ما رأيته مكتوبا على دائرة مجرى الماء بمدرسة تلمسان التى بناها أمير المسلمين أبو تاشفين الزياني من بدائع الدنيا وهي:

1- نفسه، ج2،ص65.

انظر بعينـــك بهجتي وسنائى «» وبديع اتقاني وحســـــن بنـــانــــي
وبديع شكلي واعتبر فيما ترى «» من نشأنى بل من تـــدفــــق مائي
جسم لطيف دائب سيلانـــه «» صاف كذوب الفضـــة البيــضاء
قد خف الى ازهاروشينى تمقت «» قعدت كمثل الروض غـــير سماء

ومن بين الذين توافدوا على تلمسان أيضا شمس الدين عبدو الله الوداشي[1] قال في شأنه ابن مرزوق عاشرته فقرأت عليه الكثير وقيدت من فوائده وانشدني الشعر وقرأت عليه بمنزلي من تلمسان[2].

هذا العالم درس بتلمسان الحديث والفقه والأصلين والنحو والمنطق والجدل والفرائض وكان كثير الأسماع في الفقه والجدل.

ومن بين الذين نزلوا تلمسان من الأندلس الزاهد أبو عمرة بن غالب المرسي[3] وكان بتلمسان غير واحد من أصحابه وسأله بعضهم أن يشهد عقد ابنته ،فتعذر عليه حكم، فلم يزل له حتى أجاب بعد جهد، فحضر العقد، وطعم الوليمة ثم لما حضر الزفاف استحضره في ركوبها إلى دار زوجها على عادة أهل تلمسان فأجابه مسرعا، فقيل له أين هذا التيسير من ذلك العسير فقال من أكل طعام الناس مشى في خدمتهم[4].

1- نفسه ،ج1،ص 149.
2- نفسه، ج1،ص 149.
3- نفسه، ج5، ص192
4- نفسه، ج1، ص 92.

فهذه الرواية التى ذكرها المقرى عن هذ العالم يمكن أن نستنتيج منها مايلى:

أولا: أن بعض أفراد الجالية الأندلسية كانوا يرفضون المشاركة في بعض مناسبات الزواج وغيرها من الإحتفالات التى تتم بتلمسان.

ثانيا: بعض العادات في تلمسان فيما يخص حفلات الزواج حيث تقام احتفلات في بيت العروس وعندما تنتقل العروس لبيت زوجها يرافقها بعض المعروضين لزوجها.

- هجرة الأندلسين ومراكز تواجدهـم بأراضي الدولة:

أولا/ تلمسان: من بين الأندلسين الذين توافدوا على تلمسان، القلصادي ومـن الذين استقروا بتلمسان أبوعبد الله محمد بن الأزرق896هـ/1491م صاحب كتاب بدائع السلك في طباع الملك قبل سقوط مالقا 883هـ/ 1468م[1]. يقول المقري عن هؤلاء الأندلسين « تقلص الإسلام بالجزيرة واستولى الكفار علـى أمصارها، وقراها، على وجه الغنوة والصلح، والاستيلاء، لم يـزل العلمـاء، والكتاب والوزراء يحركون حميات ذوي البصائر[2].

فالشيء الذي يمكن استخلاصه من النص يتمثل فيمايلي:

إن الدوله الأرغونية والقشنالية استطاعت خلال النصف الأول من القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، أن تسيطر على أغلب أراضى الدولة الناصرية، بعد ضعف هذه الدولة نتيجة للخلافات الأسرية، وضعف دول

1- هو أبو عبد الله الزغل المعروف بالمجاهد خرج إلى مرسى وهران في آخر شوال سنة1491، 897، انظر الزياني المصدر السابق، ص141.

2- ابن الخطيب من أكبر علماء الأندلسين في القرن 8هـ، 14م مات مقتولا بفاس لمزيد من المعلومات عنه، انظر المقري نفح الطيب: ج5ص 141.

المغرب الإسلامي، وعدم تقديم يد المساعدة للناصرين، سهل حركة الاسترداد المسيحي.

إن رجال الفكر والموظفين السامين، وهذا منذ عهد ابن الخطيب[1]، أدركوا خطورة الاسترداد، والنتائج التى يمكن أن تصل إليها، والمتمثلة في نهاية الدولة الاسلامية بالأندلس بذلك استمروا في تجنيدهم للمسلمين، لكن صيحاتهم لم تجد أذانا صاغية لدى الأندلسين، مما أدى ببعضهم إلى ترك الأندلس والاستقرار بدول المغرب الإسلامي. ومن هؤلاء العلماء الذين اتجهوا إلى تلمسان أبو جعفر أحمد بن على البلوي[2]، توجه لتلمسان لأنها كانت من بين مراكز الثقافة. تعرض المقري لهذه الهجرة، فذكر البلوي وقال عنه: « أنه من بين علماء الأندلس الذين تركوا غرناطة، ونزلوا بتلمسان ومن بين هؤلاء المذكورين في فهرسة ابن غازي[3]. هؤلاء خرجوا من الأندلس قبل أخذ غرناطة، لكن لما رأوا تضيق العدو عليها، وأن أخذها لا محالة، فولوا رجالهم عنها فنزلوا تلمسان، المحروسة، وأخذت الحضرة الغرناطية بعد ارتحالهم بقليل».

نستخلص من النص مايلي:

أولا: إن الهجرة الأندلسية حدثت قبل سقوط غرناطة وهو ما يؤكده هذا النص، الذين فضلوا تلمسان عن غيرها من أمصار المغرب الإسلامي، لكن

1- المقري، المصدر السابق، ج5، ص 368.
2- نفسه،ج5،ص 397.
3- نفسه، ج5، ص 363.

بعض الباحثين لا يوافق المقري لأن كلامه يوحي بأن هجرة البلويين كانت بعد أن أيقنوا من أخذ غرناطة أن عاجلا أو آجلا[1]».

ومما يؤكد هذا النص أيضا قول السليماني: نزلت الجالية الأندلسية في عهد الأمير أبو العباس أحمد بن أحمد أبى زيان، محمد بن أبي حمو، وأكثر هؤلاء استقروا بتلمسان، وجزائر بنى مزغنة وبجاية وفضل بعضهم ندرومة، وهنين وغيرها من أمصار الدولة الزيانية فالذي يستخلص من النص يتمثل فيما يلي:

أولا: أن الأندلسين الذين توافدوا على أراضي الدولة الزيانية لم يقتصر هجرتهم على مدينة من مدن الدولة، بل انتشروا في أغلب مدنها، وعلى الخصوص الساحلية التي وجدوا بعض منها خالية من السكان، مثل ماهو الحال بالنسبة لشرشال، التى قال عنها الحسن الوزان[2] "انه أعيد بناؤها من قبل الغرناطيين الذين استقروا بها، وطوروا الزارعة في الأراضي المجاورة لها، كما عمدوا إلى بناء مدن جديدة مثل مدينة البليدة، والقليعة[3]".

ثانيا: يبدو أن استقرارهم في المدن جعلهم يؤثرون على حالتهما الاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية، وهو ما يؤكده السليماني بقوله: "وأما من قصد منهم تلمسان فقد استقرعلماء، وأهل بيوتهم، بداخل المدينة وعامنهم أنزلهم السلطان بوادي الوريت خارجها، فاتخذوا قراها سكنا لهم وأهلها، وملؤوا تلك الشعاب من البساتين المتنوعة الثمار وأنواع الرياحين، والأزهار،

1- السليماني، المشاريخ، ج6، ورقة 116.

2- الحسن الوزان وصف افريقية : ص 136.

3- مدينة القليعة من بين المدن التي شيدت من طرف الأندلسيين وقد استغلوا الأراضي المجاورة لها، انظر مرمول المصدر السابق، ج2، ص566.

واتصلت مساكنهم بذلك الوادي فأقاموا به عمارة بقيت أثارهم الى نهر الصفصف[1]، فاقاموا به عمارة بقيت آثارهم بتلك الشعاب ذات الادراج المؤنقة والحياة المترفة وامتدت الى جبل يدر حيث زاوية الشيخ احمد بن الحـــاج، بـــن محمد بن على المناري، الحسنى المتوافى بسنة930هــ/[2]". أما المقري فينقل عن ابن غالب فيقول: "ولما نفذ قضاء الله على أهل الأندلس، بخروج أكثرهم عنها في تلك الفتنة الأخيرة، فتفرقوا ببلاد المغرب من برالعدوة حتى بلاد افريقية، فأهل البادية قد مالوا إلى البوادي، إلى ما اعتدوه ودخلوا مع أهلها وشاركوهم فيها، فاسقوا المياه، وغرسوا الأشجار، واحدقوا الأراضي، وعلموهم أشياء لم يكونوا يعلمونها، ولا رأوها، فأشرقت بلادهم وصلحت أحوالهم[3].

نستخلص من النصين مايلي:

أولا: عوامل الهجرة أما أسباب الهجرة الأندلسية، فترجع إلى عاملين أساسين:

أولهما: إن أراضي الدولة الزيانية، كانت تشكو انهيارا ديموغرافيا تواصل خلال المراحل التي مرت بها الدولة الزيانية، نتيجة كثرة الاضطربات الداخلية، وعلى الخصوص الصراع بين الدولة الزيانية والقبائل الزيانية، كمغرارة[4] وبنى توجين[5]، في البداية ثم بينها وبين القبائل الهلالية، التى استغلت الصراع وانتقلت إلى النواحي التلية، وأصبحت تتدخل في شؤون الدولة

1- وادي الصفصف لا يبتعد كثيرا عن مدينة تلمسان .

2- السليماني، الشماريخ ، ج3، ورقة 112.

3- المشرقي بهجة الناظر ورقة 12.

4 ابن خلدون،العبر ،مجلد7، ص134 .

5- نفسه ج7، ص316 .

الداخلية وعلى الخصوص قبيلة سويد[1] وحصين[2]، وبنى عامر[3] ثم الحروب مع الدولة المجاورة لها، إمارة بجاية الدولة الحفصية الدولة المرينية». يضاف إلـــى ذلك الأمراض المعدية كمرض الطاعون الذي كان يصيب أراضي الدولة، فأدى إلى هلاك عدد كبير من السكان مما أدى إلى فراغ في بعض أقاليم الدولة، وهو مايؤكده الوزان بقوله: « إن مدينة شرشال كانت خالية مـــن السكان وقد عمرت من قبل مهاجري غرناطة[4]، كما أشار أيضا إلى عدم قطف ثمار أشجار هنين ومليانة والسبب في ذلك على ما يبدو لنا هجرة السكان فحـــل محل هؤلاء المهاجرون والأندلسون، هو ما يؤكده الوثائق الاسبانية التـــى أشارت إلى سكان المرسى الكبير ووهـــــران بأن أغلبهم من المهاجرين الأندلسيين، قبـــل الاحتلال الاسباني لهما. لكن بعض هؤلاء المهاجرين لقوا صعوبات فـــي .أراضي الدولة الزيانية، نتيجة لانعدام الأمن من قبل بعض القبائل مما دفع بالأغلبية منهم إلى متابعة الهجرة نحو تونـــس أو غيرها مـــن حواضر الدولة الحفصية، ومن فوائد هذه الهجـــرة الأخيـــرة أن هؤلاء حذروا سكان الاولة الزيانية وأطلعوهم على جرائم الاسبان ونواياهـــم تجاه البلاد الاسلامية، ولكنهم لم ينتفعوا بشيء من هذا، بعـــد استعراضنا للشخصيات الأندلسية التى توافدت على تلمسان خلال عهد الدولة الزيانية فـــي مرحلتها الأخيرة".

1- نفسه مجلد6، ص124 .

2- نفسه مجلد 6، ص124 .

3- نفسه مجلد 6، ص105 .

4- الحسن الوازن ، المصدر السابق ، ج2، 34 .

- أثـــر الأنـــدلسييـــن:

كان من نتائج نزوح الأندلسين إلى تلمسان: إزدهار الحركة الفكرية بهـــا حيث قام مجموعة من أفراد هذه الجالية بنشرها التعليم بواسطة القائهم الدروس بالمؤسسات التعلمية المتواجدة في تلمسان والمدن التابعة لها. ومن هؤلاء محمد بن أبى زيد عبد الرحمن بن محمد بن أبى العيش الخزرجي الذي قام بأحـــد مساجد تلمسان بتفسير القرآن لطلابه وشرح أسماء الله الحسنى، كما يبدو أنـــه درس الأصول والتصوف و ألف فيهما.

- مـــراكز تواجـــد الأنـــدلسين:

يضاف إلى مدينة تلمسان مراكز أخرى استقبلت عددا لا يستهان به مـــن أفراد الجالية الأندلسية ولعل من أهم مدن الدولة التى توافد عليها الأندلسيون المدن الساحلية وبعض المدن أو القرى الداخلية مما أدى إلى إدماج العنصر الأندلسي في المجتمع الزياني لأنه لم يكن غريبا عن المناطق فبعض الأندلسيين ينحدرون من القبائل البربرية التى هاجرت إلى الأندلس خـــلال المراحل التى مرت بها من قبل الدولة الاسلامية بها[1].

ومن بين هذه المدن مدينة ندرومة لقربها من تلمسان من جهة وهنيـــن مـــن جهة أخرى وهو ما يجعلنا نؤكد على أن بعض الأندلسين استقروا بـــهـــا خاصة بعد سقوط هنين[2] بيد الاسبان سنة/1531.

1- مرمول المصدر السابق ، ج2 ، ص295 .

2- وعن سقوط، هنين، انظر، الباب الأول الفصل الثالث من هذه الرسالة ص .

يضاف إلى مدينة ندرومة هنين التى تقع على الساحل البحرى المتوسط ولها علاقة بساحل البحر المتوسط ولها علاقة بالأندلس منذ القرن الثاني الهجري، الثامن الميلادي فكان انتقال التلمسانين إلى الأندلس أو توجه الأندلسيين الى تلمسان عن طريق ميناء هنين ونتوصل لذلك من خلال كتب التراجم التى أرخت للأندلسيين، وكما لعبت هذه المدينة دورا لا يستهان بـه فـي العلاقة التجارية في الأندلس وأراضي الدولة الزيانية، منذ تأسيسها حـتى سقوط آخر القلاع الاسلامية وهنين مدينة غرناطة.

ويبدو أنه خلال هذه المدة قصدها مجموعة من المهاجرين الأندلسين اتخذوا منها قاعدة للجهاد البحري ضد السواحل. الاسبانية وهو ما يؤكده مرمول بقوله: « أن سكانها لم يكتفوا بتجارتهم بل مارسوا القرصنة وخرجوا لشن الغارات على شواطىء اسبانيا[1] ».

ويعتقد مرمول أن ذلك كان من بين العوامل التى دفعت بشارل الخامس إلى الهجوم عليها من قبل قائد أسطوله واحتلالها. أما اقليم بنى راشد وعلـى الخصوص القلعة فإنها استقبلت مجموعة من المهاجرين الأندلسين بعد سقـوط مدينة غرناطة لبقي هؤلاء الترحاب من قبل سكانها مما جعلهم يلعبون دورا مشرفا في ازدهار الحركة الفكرية بها وسوف نعالج هذا عند تعرضنا للأحـوال الثقافية. لكن أهم المدن التى عرفت توافد الأندلسيين عليها هنين المدن الساحلية وعلى الخصوص المنطقة الممتدة ما بين تنس والمرسى
حيث توافـد عليها مجموعة كبيرة من الأندلسيين أشار إلى ذلك أبوراس[2]

1- مرمول، المصدر السابق، ج2، ص296
2- أبو راس الحلل، ورقة 47.

الناصري عنـــد تعرضه إلى قبيلة هبرة الذين أساؤوا إلى هؤلاء الأندلسيين فقتلوا بعضهم وفتحوا بطونهم بدعوة.

أنهم يخفون بها الجواهر، وقد أشارت إلى ذلك إحدى الوثائق بالأرشيف الوطني وهي عبارة عن رسالة أرسلت من قبل هؤلاء لسلاطين العثمانيين تشتكي له معاناتهم فأرسل السلطان رسالة إلى باشا الجزائر حسن بن خير الدين يطلب منه الاحسان لهؤلاء الأندلسين. ومما يؤكد أيضا كثرة هؤلاء الوافدين. أن إحدى الشواطىء القريبة من وهران عرفت بالأندلسيات، كمـا تنص الوثائق الاسبانية التى استطعنا الاطلاع عليها على وجود مجموعة مـن الأندلسين في كل من المرسى الكبير ووهران اتخذتا قاعدة للهجوم على السواحل لتحرير إخوانهم الذين كانوا مضطهدين من قبل المسيحين، وفـي هـذا الصدد يذكر الوزان فيقول كان التجار فيما مضى يجهزون على الدوام سفنا شراعية وأخرى مسلحة يمارسون بها القرصنة ويجتاحون سواحل قطالونة وجزر يـــابسة وميورقة ومنورقة حتى أصبحت المدينة تزخـر بالأسرى المسييحين، لكن ما يعاب على هذا النص عدم تعرضه للأندلسين الذين كانوا يرافقون المجاهدين لوهران[1] ».

أما مدينة شرشال فقد استقبلت هي الأخرى مجموعة كبيرة من الأندلسيين استقروا بداخلها بعد إعادة تعميرها وفي هذا الصدد يقول الوزان:"بقيت المدينة خالية من السكان زهاء عدة قرون حتى سقوط غرناطة في يد المسيحين فقصدها الغرناطيون واعادوا بناء عدد من دورها وجددوا القلعة وزرعوا

---

[1] الحسن الوزان: المصدر السابق، ج2، 30.

الأراضي المحيطة بها إلا أن وجدوا هناك كمية لا تحصى من أشجار التوت الأبيض[1]». فالذي يمكن التوصل إليه من خلال هذا النص:

أولا: أن الأندلسين الذين توافدوا على شرشال وغيرها من الدولة الزيانية مارسوا نفس الحرف التى كانوا يقومون بها في الأندلس مما ساعد في ازدهار الصناعة ،قد تعرض في هذا الصدد السليمانى الى الاندلسين الذين أقاموا بضواحي تلمسان وعلى الخصوص ضفاف وادي الصفصف بالاضافة إلى بناء منازلهم التى لاتزال أثار بعضها ماثلا للعيان .كونوا ورشات زاولوا فيها النشاط الحر فازدهرت الصناعة بخارج تلمسان لفترة زمنية. أما الذين نزلوا بشرشال فزيادة على النشاط الحر حيث ازدهرت صناعة المنسوجات الحريرية عمدوا أيضا إلى تطوير الزراعة باستغلال الأراضي غير المستعملة وهـــو ما يؤكده مرمول بقوله: قام بعضهم ببناء قلعة شرشال وأصلحوا الدور التـــى راؤوا فيها فائدة في بعض اصلاحها. وشيئا فشيئا قام العمران بهذا السهل على أيدي المدجنين وأهل تاكارت والمسلمين الأندلس المتصفين بالشهامة والحذق حتى صارت لهم الأراضى المزروعة الممتدة وأشجار كثيرة من الكروم والزيتون ومعاصر تقع داخل الأسوار القديمة كما قاموا بغرس عدد من أشجار التوت تقتات منها دودة القز وصار الحرير أهم مواردهم لأن البلد طيب لمثل هذا النشاط». لم يكن نشاط هؤلاء الأندلسين قد اقتصر على شرشال فقط بل امتد أيضا لكي يشمل سهل متيجة حيث كان لهم دور في بناء مدينة [2]
التـــى استقبلت المهاجرين من قشتالة والثغور ومملكة بلنسية، وعمـــد هـــؤلاء

---

1 نفسه ، ج2 ، ص34.

عن شلالة الوريط التى ورد ذكرها في المصادر القديمة ، انظر بغية الرواد، ج1 ، 87-91.

الى استغلال الأراضي المحيطة بوادي الزعفران وغرسوا بها أشجار البرتقال والتوت فازدهرت بها الصناعة والزراعة، ومايقال عليها ينطبق أيضا على مدينة البليدة.

- ثانيا: موقف علماء الدولة من مأساة الأندلسيين:

وقف علماء الدولة الزيانية موقفا متميزا عن غيرهم من مشكلة الأندلسين التى كانت تحتل المرتبة الأولى في تفكيرهم ومن هؤلاء ابن مقلاش[1] عالم وهران في القرن الثامن الهجري الرابع عشرالميلادي، كان من كبار علماء عصره وله علاقة بمحمد الهواري، وقد نسب له صاحب المعيار المازوني مجموعة من النوازل مما يدل على أنه من بين المجاهدين في عصره زاول الفتوى في وهران، كما يبدوا أنه تولى بها القضاء وأصلح كتاب السهو لمحمد الهوراي، كما كانت له علاقة بأفراد الجالية الأندلسية في وهران أو في منطقة الثغور[2] التى كانت أول المراكز التى تسقط في يد الاسبان لقربها من أراضي أرغوان وقشتالة وبعد السيطرة عليها اتصل مسلمو الثغور بابن مقلاش في وهران لاصدار فتوى تتعلق بعلاقتهم بالمسيحين وكيفية المحافظة على معتقداتهم الدينية بعد الاضطهاد الذي سلط عليهم. وقد أصدر هذا العالم فتوى تنص في مجملها على أنه يمكنه المحافظة على اسلامهم باتخاذ التقية، لكي لا ينكشف أمرهم المسيحيون الذين سيطروا على أراضيهم وسمحوا لهم بالبقاء واستغلال أراضيهم مقابل دفع الجزية للإسبان. ولم تكن الفتوى معرفة لدى

1- أبوزيد عبد الرحمن بن مقلاش علم شهير أخذ بالمغرب عن ابن غازي و هو من سلالة محمد الهوراي أصلح كتاب السهو الشيخ محمد الهواري ، انظر الزياني دليل الحيران ص37 .

2- الثغور هي المناطق الواقعة بين حدود الدولة الاسلامية بالأندلس في الشمال والدول المسيحية-ارغوان-قشتالة»

الباحثين الذين تناولوا في دراستهم الجالية الأندلسية وعلاقتهم بالدولة الاسبانية وقد استطعنا الحصول عليها خلال زيارتنا لإسبانيا وبحثنا في مخطوطات مكتبة مدريد وجدناها ضمن مجموع يتعلق بالفقه هذا فيما يتعلق بالقرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي أما القرنان التاسع والعاشر الهجريين الموافق للقرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، فإن قضية الأندلس قد ازدادت تدهورا بسقوط المراكز الاسلامية التى بدأت مع القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي بيد الاسبان ودشنت بسقوط مدينة طليطلة[1] التى تعتبر من المدن التى تحتل مكانة في التاريخ الاسباني لأنها آخر عاصمة للدولة القوطية ومراكز للكنيسة الكاثولكية بها لذا كان التركيز عليها من قبلهم وبعد سقوطها، ثم هزيمة الموحدين في معركة العقاب سنة609هـ/ 1212م[2] سمحت للاسبان السيطرة على أغلب المدن الاسبانية وقراها وحصونها وقلاعها وسقطت مدنها الرئيسية كقرطبة واشبيلية ومرسية[3].

فانهيار هذه المدن دفع بالاندلسين إلى الهجرة الى المدن المغربية فأصبحوا يكونون جالية أندلسية[4] كبيرة في كل من فاس ومراكش والرباط وتلمسان ووهران وبجاية وتونس وامتدت هجرتهم إلى المشرق الإسلامي وعلى الخصوص مدينة الاسكندرية.

1- مدينة طليطلة كانت عاصمة الدولة القوطية قبل الفتح الاسلامي لها سنة 92هـ، 710وقد استولت عليها دولة قشتالة سنة492هـ، لمزيد من المعلومات، انظر المقرى، نفح الطيب ج6، ص124

2- عن هذه المعركة، انظر ابن عذري البيان، ج5 ص236 .

3- وعن سقوط هذه المراكز، انظر المقرى، المصدر السابق، ج5 ، ص 267 .

4- عن الهجرة الأندلسية لتلمسان، انظر السليماني الشماريخ، ج3 ورقة 101 .

وقد كان لعلماء المسلمين دور كبير لمحاولة في توحيد القوى الاسلامية لوقف الخطر المحدق بما بقي من المراكز الاسلامية فالدارس لكتاب المقرى (نفح الطيب) يجد معلومات قيمة يتعلق بها الموضوع وتحتاج الى دارسة، لكن استغاثتهم لم تجد القبول من قبل الدول الاسلامية التى كانت مستغلة بخروجها فيما بينها وبين القبائل الداخلة تحت نفوذها.

وإن اختلاف المسلمين فيما بينهم قدم خدمات جليلة لحركة الاسترداد وأكبر فرصة استغلت من قبل الاسبان ثورة ابن غانيه التى كانت ضربة قاضية لوحدة القوى الاسلامية في المغرب الاسلامي، ثم الصراع بين دول المغرب الاسلامي التى نشأت على أنقاض الدولة الموحدية، ثم الصراع بين هذه الدول "المرينيون-الزيانيون-الحفصيون- بنوناصر".

كل ذلك أثر في قوة المسلمين وسهل مهمة الاسبان أمّا المهاجرون الذين بقوا في أراضيهم فقد عوملوا كأهل الذمة فأصبحوا يدفعون الجزية للدولة مقابل قيامهم بالنشاط الاقتصادي في ميدان الزراعة والحرف.

ولم تسلك إمارة ارغوان وقشتالة تجاههم سياسة التصفية العرقية، لكن عندما توحدت اسبانيا على عهد فرديناند الكاثوليكي Ferdinand وإيزابيلا Isabelle تغيّرت سياسة الدولة الاسبانية وعلى الخصوص بعد أن تدخلت الكنيسة ورجالها في توجيه سياستها في الداخل والخارج وظهرت إلى الوجود فكرتان تتعلقان بالوجود الاسلامي في الأندلس من قبل قادة الكنيسة.

فالفكرة الأولى ترى بأنه يجب المحافظة على المهاجرين الأندلسين وادماجهم في المجتمع الاسباني المسيحي عن طريق التكثيف من العلوم الدينية وتكليف علماء من رجال الكنيسة يحسنون العربية يعملون على نشر المسيحية في صفوفهم أي تنصيرهم بالطرق السلمية. وأما الفكرة المعارضة لها التى جاء بها الكردينال اخسيمانس الذي تولى الكردينالية بغرناطة وبه علاقة بإزبيلا ثم بفرديناند الكاثوليكي فكان يرى عكس الرأى الأول وهو لا يقبل تواجد هؤلاء بإسبانيا لأنهم لا يتخلون عن دينهم بتلك السهولة ولذا لابد من طردهم إلى خارج الأندلس وفرض التعليم المسيحي عليهم بالقوة وعدم السماح لهم بإظهار الشعائر التي لها علاقة بالاسلام ومطالبتهم بإرسال أولادهم للكنائس لتلقي المسيحية وحضورهم للصلوات بالكنائيس والزواج المختلط بينهم وبين المسيحين وأن كل من يرفض هذا يكون مصيره القتل بعد محاكمته من قبل رجال الكنيسة. وقد وصف هؤلاء أحوالهم في[1] رسالة مؤثرة إلى الدولة العثمانية، طالبين منها التدخل لانقاذ أرواحهم ومعتقداتهم أما في المغرب الاسلامي فقد أرسل هؤلاء طالبين منهم اصدار فتوى تتعلق بالوضعية التى أصبحوا عليها وهل يحق لهم الهجرة وترك ديارهم أو يبقون في بلادهم يعانون مايعانونه لأن امكانياتهم تحول دون مواجهتهم للاسبان. وهنا نجد موقفين لعالمين جزائريين.

أولا: أبو العباس الونشريسي[2] الذي اعتبر من كبار علماء عصره هاجر من تلمسان بعد أن ساءت العلاقة بينه وبين أميرها المتوكل الذي صادر أمواله

1- توجد هذه الرسالة مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية وقد نشرت لمزيد من المعلومات انظر، ليلى الصاغ ثورة جبال الشارات مقال بمجلة الاصالة ع26.

2- عن أبى العباس الونشريسى وظروف هجرته لفاس، انظر ابن مريم البستان ص37 .

ولولا خروجه لكان مصيره القتل فالتجأ الى فاس ولعب دورا مشرفا في ازدهار الحياة الفكرية بها خلال عهد الدولة الوطاسية وتولى التدريس بها وكان من كبار أعيان مدينة فاس التى استقبلت مجموعة من المهاجرين الأندلسين وعلى رأسهم آخر ملوك الأندلس. فالمكانة الاجتماعية حاولت له الاطلاع على أحوال المهاجرين الأندلسيين، وكذلك مستواه الفكري مما جعله يصدر فتوى تتعلق بالهجرة الأندلسية وركز فيها على ما يعانيه هؤلاء للمحافظة على عقيدتهم، وأنه لا يمكن لهم المقاومة.

نتيجة للامكانيات المادية لهم، وانعدام وصول الامدادات لهم من إخوانهم في المغرب الاسلامي للمشاكل التى يعانون منه ،فطالب بعودتهم إلى المغرب الاسلامي وأنه يجوز للاسبان أن يهاجر بدينه وقد اعتمد على سيرة الرسول«ص» إلا أنه أمر أتباعه بالهجرة الى الحبشة ثم المدينة المنورة عندما اشتد اضطهاد القريشين لهم.

فالأخذ بهذه الفتوى سيكون ضربة قاضية للوجود الاسلامي في الأندنس، لأن هؤلاء سيأخذون الفتوى محل جد ويتخلون عن منازلهم وأراضيهم ثم يرحلون الى دول المغرب الاسلامي وأن هذه الأخيرة كانت حالتها لا تشجع حركة الهجرة لأنها كانت تعاني من أزمات اقتصادية نتجت عن انتشار الجفاف وقلة المواد مما أدى إلى ارتفاع أسعارها وانعدامها في بعض الحالات كما كانت تتعرض على الخصوص في أراضي الدولة الزيانية والمرينية زيادة على انعدام الاستقرار وهو ما دفع بعض المهاجرين[1] الى العودة لاسبانيا والتخلى

1- نفسه ، ج ص. -

عـــن اسلامهم واعتناق المسيحية كما أن الخطأ الذي ارتكب من قبل المهاجرين الأندلسين ارتكب أيضا من قبل الفلسطنيين الذين تخلوا عن منازلهم وأراضيهم بعد حرب 1948و1967 إلى الدول العربية المجاورة لهم وقد عاناهم ما عانه الأندلسيون فلو مكثوا بأراضيهم ورفضوا الهجرة لكان مصير فلسطين أحسن على مما هو عليه الآن. كما أننا لو أخذنا بفتوى الونشريسي فإن الاسلام سيزول بزوال الدول الاسلامية لأنه لو أن كل دولة اسلامية تحتل من قبل النصارى لابد لسكانها من محاربتها فإنه لم يبق للمسلمين أي أثـــر فـــي العالم.

ثانيا/ أبوجمعة الوهراني: أما أبو جمعة الوهرني فقد كان هـــو الآخرعالما جليلا لا نعرف الكثير عن حياته قبل هجرته الى المغرب الأقصى ودافع هـــذه الهجرة لكن يبدو لي أنه تولى وظيفة القضاء والفتوى في وهران قبل سقوط المدينة وأنه هاجر منها نحو تلمسان ومنها إلى مدينة فاس بالدغرب الأقصى، فاستقر بها وكتب هو أيضا فتوى تتعلق بالهجرة الأندلسية وقد وجد الكتاب الاسبان عناية بها لأنه طلب من المهاجرين الأندلسيين بعدم الهجرة وترك أراضيهم للنصارى مقابل اللجوء إلى ما عرف في الاسلام بالتقية أي اخفاء اسلامهم على النصارى وهذا جائر واستدل على ذلك بما حدث لعماربن ياسر عندما اضطهد من قبل قريش في بطائح مكة فنسب الرسول«ص» وعندما سأل الرسول«ص» أخبره بأنه يمكنه له أن يحافظ على سلامة لأن الايمان بالقلب واللسان ولذا فيمكن القيام بما يطالب منهم ثم عند عودتهم لمنازلهم يغتسلون ويؤدون شعائر الاسلام وحتى ما يتعلق بالزواج، فأنه يمكن أن يتم زواجهم بالكنيسة ولكن عندما يرجعون لمنازلهم يحيون مانصت عليه الشريع

الاسلامية، وعندما مايطلب منه سب الرسول«ص» يرددون ماطلب منهم ولكن يقصدون شخصا آخر غير محمد«ص». وعلى الرغم من أن الاسبان كانوا يفرضون عليهم بقاء منازلهم مفتوحة الأبواب في كل المواسم الاسلامية واحتفالهم بمناسبة الزواج لكي يتمكنوا من مراقبتهم فانهم حافظوا على اسلامهم والمحافظة على اسمائهم العربية الاسلامية وخلال زيارتنا للمكتبة الوطنية بمدريد وجدنا وثيقة ترجع إلى النصف الأخير من القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي ذكر فيها صاحبها أنه ولدت له سنة1551 بنت سماها فــاطمة وفي سنة 1556 أخرى سماها على بركة الله سعدية فهؤلاء الذين مكثوا في الاندلس نفذوا ماجاء في فتوى الجامعي فكانوا يسمون أبناءهم بأسماء مسيحية وفي نفس الوقت ينادونهم بأسمائهم العربية الاسلامية وكانوا يعتقدون بأن الأندلس ستعود لحظيرة الدولة الاسلامية بعد أن يتم تحريرها[1].

هذا فيما يتعلق بالجامعي وموقفه من الهجرة الأندلسية التي أرى فيها أنه كان صائبا ولو طبقت فتواه بحذافيرها ووجد هؤلاء المهاجرين مساعدة من قبل إخوانهم في أراضى الدولة الاسلامية وعلى الخصوص الدولة العثمانية التي كانت من أهم الدول التي في امكانها تقديم يد المساعدة لهؤلاء الاندلسين إلاّ أن حروبها في المشرق الاسلامي وأوروبا الشرقية والوسطى حال دون إنقاذ الأندلس على الرغم من هؤلاء كتبوا مجموعة من الرسائل لسلاطين الدولة العثمانية وقد اعتذر أحد سلاطين الدولة بوجود توحيد المسيحين في جزر البحر المتوسط قبرص صقيلية–سردينيا وعندم تم تحرير هذه الجزر سيرسل أسطوله لاستعادة الأندلس.

1- هذه المعلومات توجد ضمن مخطوط بالمكتبة الوطنية بمدريد تحت رقم162 يحتوي على معلومات تتعلق بالاندلس

أما دول المغرب الاسلامي فإنها لا يمكن لها تقديم المساعدة لانشغالها بالصراعات الداخلية التى كانت تتخبط فيها، ولكن عندما ظهر الاخوان عروج وخيرالدين بالأراضي الجزائرية لم يبخلا بتقديم مساعدتهما لهؤلاء المهاجرين الاندلسين حيث تم نقل بعضهم للمدن الساحلية وتزويد ثوارهم بما يحتاجون إليه من الاسلحة[1] يضاف إلى ما سبق أن خروج الاندلسين من الأندلس أثر على الاوضاع بأراضي الدولة الزيانية فقد شارك أغلبهم في الحملات ضد السواحل الاسبانية، لأن خروجهم من الاندلس لموانئ اسبانيا جعلهم يتولون المقاومة فكانوا يشترون السفن ويزاولون عليها النشاط البحري[2]. ومن بين المدن التى تعرضت لضرباتهم قرطاجة والمرية ومالقا وأن العمليات العسكرية تتم خلال الليل و في النهار بالأماكن المتطرفة.

ومما يؤكد هذا الدور الحربى أنه في سنة 1500م قاد سفن من المرسى الكبير وهران لضرب قرطاجة أحد أفراد الجالية الاندلسية الذي سبق له أن التجأ إلى وهران مع عائلته وجند معه أفراد من الجالية الاندلسية تولى قيادتهم[3].

وعندما استولى الاسبان على المرسى الكبير كان من بين الذين قادوا المقاومة ضد الاحتلال الاسباني أفراد من الجالية الأندلسية لأن سكان المرسى الكبير سبق لهم أن استقبلوا مجموعة من المهاجرين الاندلسين وعلى الخصوص بعد سقوط غرناطة والمراكز الاسلامية الأخرى بالجنوب الاسباني كالمرية وقرطاجية ومالقا.

1- توجد رسالة بمراكز الوثائق اشارت الى ذلك ضمن علبه 36 رقم16.

2- الحسن الوزان وصف افريقية ص222.

3- مرمول وصف افريقية ، ح .

- **الجـــالية اليهودية:**

أصل اليهود بأراضي بنى زيان: أما فيما يتعلق بتواجد الجالية اليهودية بأراضي الدولة الزيانية فإنها ترجع إلى مرحلتين.

* **المرحلة الأولى:** فترجع إلى ما قبل الفتوحات الاسلامية نحو المغرب بعد اضطهاد اليهود في فلسطين وغيرهم من أراضي المشرق[1] بعد الاحتلال الروماني لتلك الاقاليم فانتقل اليهود فرارا من الاضطهاد الذي تعرضوا لـــه، وخلال اتصالهم بالسكان عمدوا إلى نشر الديانة اليهودية، ومن بين القبائل التـــى أخذت هذا الدين قبيلة جراوة في الأوراس[2] ومديونة بنواحي تلمسان واستمروا على اليهودية. حتى الفتوحات الاسلامية حيث تغلب الاسلام علـــى جميع الديانات التى كانت بالمغرب الاسلامي ولم تبق إلا فئة قليلة تخلـــى البعض منهم في عهود الدولة الموحدية، لأن سياسة عبد المؤمن كانت تتمثـــل في وحدة المغرب[3] دينا.

* **أما المـــرحلة الثانية** فيمكن تقسيمها إلى فترتين تاريخيتين:

أولا: تتمثل في الهجرة اليهودية التى انطلقت من أوروبا إلى أراضي الدولة الزيانبة نتيجة للاضطهاد الذي تعرض له في الأراضـي الأورزبية رعلى الخصوص بميورثة وأرغوان وقشتالة كان ذلك في أواخر القـــرن الثامـــن الهجري الرابع عشر الميلادي[4] 792هـــ،1391م وما سهل مهمة هـــؤلاء،

1- انظر: Mayar Voyage d' Etitudes Juives P 166

2- عن جراوة التي كانت مضاربها بالأوراس وقد وقع اختلاف بين المؤرخين عن عقيدة سكانها وعلى الخصوص رعيتها الكاهنة، انظر ابن خلدون العبر ج2 ص160

3- وعن مديونة، انظر ابن خلدون، نفس المصدر، ج6 ص286.

4- عن هذه الهجرة، انظر Mayar O . P 556-559

الحفاوة التى كانوا يتلقونها من قبل أمراء الدولة الزيانية وسكانها، زيادة على العلاقة التى كانت تربطهم بيهود الدولة المستقرين فيها منذ فترات تاريخية أو القادمين إليها لغرض التجارة فاليهود الذين كانوا بميورقة لهم علاقة جيدة بإخوانهم المتواجدين بأراضي تربط ميورقة بالدولة الزيانية ولذا فالهجرة كانت سهلة ومما يؤكد دليلنا هذا الوثيقة الميورقة[1] التى ترجع الى سنة728هـ/ 1327م والمتعلقة بدور الجالية اليهودية في المبادلات التجارية مع أراضي الدولة الزيانية وإن أهم ما ورد فيها أبلغت المجموعة اليهودية بجزيرة ميورقة الأمير فليب الوصي على العرش والمملكة أن القنصل الميورقي بتلمسان قد أمر جميع تجار ميورقة الموجودين في دولة السلطان أبى تاشفين الأول737هـ/1373 مبارحة تلمسان غير أن هؤلاء التجار يذكرون أن هذا الأمير قد أعطى أوامره بمبارحة أراضي الدولة منذ شهر ونصف وقد قرب الأجل وأن يهود ميورقة سلموا سلعهم الى تجار الدولة، الزيانية الذين يسافرون بها إلى مناطق بعيدة وبعدها يرجعون بقيمة السلعة سواء الدفع عينا أو نقدا ونظرا لأن هؤلاء التجار علموا أن الأمير قد أعطى أمره لهؤلاء بمغادرة أراضي الدولة فأنهم تأخروا وعمد الى الرجوع لتلمسان، لأن التجار الذين كانوا ينتظرونهم في تلمسان، مدينون لعدة تجار في ميورقة نفسها وليس لمجموعة اليهود السالفة بالجزيرة أي مورد عبر هذا التجارة وبما أن اليهود معرض للإفلاس، كما لا يمكنهم تسديد ما عليهم من ضرائب دولة ميورقة فهم يرجون الأمير فليب أن يتدخل لصالحهم فيطلب من أمير تلمسان السماح لهم بالتجارة وعدم طردهم من أراضي دولته .

1- Barges J.J Mémoire sur les relations Commerciales de Telmecen avec le Soudan sous le Réne de beni Zane

فالوثيقة تبين لنا أن أمراء الدولة الزيانية في هذه المرحلة كانـــوا يتحكمــون في الجالية اليهودية و لهم حرية الطرد عند ما يزداد نفوذهم لــم نلاحظـــه فـــي العصر المتأخر من حياة الدولة حيث كانوا يحتكرون اقتصادهـــا في جميع الميادين.

- **يهـــود وهــــــران:**

من بين المدن التى استقبلت المهاجرين اليهود القادمين من أوروبا وهران لقربها من الدول الأوروبية فقد استقر بها مجموعة من هؤلاء تزعمهم الحاخام سيمون بنرماح كما انتقل البعض لقلعة بنى راشد لموقعها الاستراتيجي مــن جهة وازدهارها التجاري ثم مدينة الجزائر التى كانت هي الأخرى من المدن التى استقر بها اليهود والملاحظ على هؤلاء اليهود أن أغلبهم قدموا إليها مــن قشتالة وبرشلونة من بينهم تاسغرام الذي ولد ببرشلونة حوالي710هــ/ 1391م[1] فاستقر في البداية بمليانة ومنها انتقل إلى الجزائر يتولى بهـــا رئاســـة الجالية اليهودية.

- **يهــود تلمســـان:**

أما في تلمسان نجد الحاخام الكاوة[2] المعروف في المــصادر الاسلامـــية بابن الأشقر كان يشرف على أبناء جاليته ويتمتع بنفوذ واحترام من قبل أمراء

1- Lettres du Fourc (Ch.E) une Coute de l'or moyen âge dans billin et on informatique hist Faculé des et on Alger N° 7 - 1966 PP.9 ET 11.

2- (ابرهيم لكاوة عرف في المصادر الاسلامية بابن الأشقر توفي بتلمسان سنة 846هـ، 1442م، انظر Barges (J.J)، P. Tlemcen OP.CIT.P 236 . 236.

الدولة الزيانية كما أشرف على تعليم علوم الطب وتتلمذ عليه الرحالة المصري عبد الباسط بن خليل[1].

أما الفترة الثانية التي تبدأ بسقوط مراكز دولة بنى الأحمر في الأندلس وعلى الخصوص مدينة غرناطة898هـ/1492م فقد عرفت هي الأخرى هجرة كبيرة من قبل يهود الأندلس وأغلبهم رافقوا المسلمين ووجدوا ترحابا من قبل سكان الدولة الزيانية، ومن اهم المدن التى استقروا بها وهران ولم تكن مدينة وهران في المرحلة الأولى من بين المدن التى تحتل فيها الجالية اليهودية نسبة كبيرة بالنسبة لمراحل تواجد الجالية اليهودية بأراضي الدولة الزيانية قبل القرن العاشر والسادس عشر الميلادي وأغلبهم من التجار الذين كانوا يتنقلون بين وهران وأراضي الدول الأوروبية المطلة على البحر المتوسط كمرسيلية ومالقة والمرية وغيرها من الموانئ.

لكن خلال القرن العاشر الهجري/16م فقد زاد عددهم عن ما كان عليه في السابق كنتيجة لمعاملة الدولة لهم فكانوا يشرفون على مراكز الديوانة في وهران وأبواب المدينة لقبض المكس من التجار الوافدين على المدينة .وهذا سهل مهمة الاسبان في التحالف معهم واحتلال وهران سنة 915هـ/1509م.

وهكذا نجد رغم الترحاب الذي وجدته الجالية اليهودية بأراضي الدولة الزيانية بأن موقفهم كان سلبيا حيث تعاونوا مع الذين اضطهدوهم في الأندلس لأنهم ضمنوا لهم مصالحه لهذا عمد أحد اليهود بالتحالف مع الكردينال

1- Abl al Basit I bn khalil، R.Brunshwik traduit en Franc&is par, et Bassit deux Recitres de Voyaze inedits en AFrique du nord ABdil . B.khalil et , adorne . Paris 1936 .PP 136 -137

اخسمنايس وفتح له أحد الأبواب الرئيسية بوهران وتمكن من خلالها الجيش الاسباني من الدخول إلى المدينة[1]، وقد ضمن للجالية اليهودية باستمرار نشاطهم التجاري والمحافظة على أرزاقهم بداخل المدبنة كما كلفوا من قبل الاسبان جباية الضرائب من القبائل المجاورة لوهران وكانوا يقومون بأعمال تعسفية تجاه القبائل التى ترفض دفع الضرائب لصالح الأسبان[2] كما أسروا سكانها وبيعوا في أسواق وهران ومنها ينقلون إلى الدول الأوروبية.

وتذكر الوثائق الاسبانية أن اليهود كانوا يتعاملون مع الاسبان بعد سقوط وهران والمرسى الكبير فقد ورد في إحدى الوثائق أن يهود مزغران ومستغانم عقدوا معاهدة مع الإسبان سنة917هـ/1511م مقابل السماح لهم ببيع سلعهم في أسواق وهران كما شارك يهود تلمسان في المعاهدة التى أبرمت بين مولاى عبد الله والملك فرديناد الكاثوليكي. ومنها الوثيقة التى ترجع إلى سنة946هـ/1539م فقد نصت هي الأخرى على التعاون بين اليهود والكوند الكوديتي .

وخلال الصراع الذي حدث بين الدولة الجزائرية الحديثة والاسبان على أملاك الدولة الزيانية كان لليهود دور كبير في التجسس لصالح النصارى.

ومما يؤكد ذلك وجود مجموعة من الوثائق الاسبانية تبرز الدور الذي لعبه هؤلاء وعلى الخصوص ما يتعلق بتقديم المعلومات عن جنود الدولة

1- المزاري سعد السعود، ج1، ص126 .

2- الجامعي، فتح وهران ورقة 9 .

الجزائرية[1]، لأنهم كانوا متواجدين في كل من تلمسان و الجزائر ولهم علاقة مع إخوانهم بوهران عن طريق الزيارة وتبادل الرسائل وحتى المبادلات التجارية فيما بينهم.

ولم يكن هذا العمل مقتصرا على الجزائر فقط بل شمل المغرب الأقــصى ففي سنة957هـــ/1550م نجد الانتقال من الوطاسين للسعديين ثم تقديم تقرير عام عن التلمسانين الذين ارتحلوا إلى مدينة فاس.

ومما سهل مهمة اليهود في تحسين علاقتهم الجيدة بالسكان عكس الجالية المسيحية لأنهم كانوا يتواجدون في المدن والأرياف ويرافقون القوافل التجارية.

- أثر اليهود عــلى الأحــوال الاقتصــادية:

لعبت الجالية اليهودية في هذه الفترة موضوع البحث دورا لا يستهان بها في العلاقات التجارية بين العالمين الغربى المسيحي والشرقي الاسلامي ومنها أراضي الدولة الزيانية، واستغلال الأوضاع السياسة المتميزة بعد الاستقرار لصالحها ولهذا تكون معالجتنا لدور الجالية اليهودية في النشاط الاقتصادي ضمن محورين أساسين.

- المنــاطق الشمــالية:

المناطق الشمالية من المغرب الاسلامي و منها أراضـي الدولة الز... عرفت توافد عدد كبير من أفراد الجالية اليهودية منذ نهاية القرن الثامن

1- تعرض فيها: Primauderaie (de la) documents inédits sur l' histoire de L'accupation espagnole en Afrique A.1875-1876-187

الهجري إلى سقوط غرناطة أواخر القرن التاسع الهجري الرابع والخامس عشر الميلاديين[1].

وأغلب هؤلاء توافدوا على المدن ذات الأهمية الاقتصادية كوهران[2] وتلمسان[3] ومستغانم وهنين وجزائر بني مزغنة، وهو ما جعل الجواسيس ثم القادة الإسبان يشيرون في تقريرهم إلى هذه المدن وعلى الخصوص وهران وتلمسان اللتين حظيتا بتدفق عدد كبير من أفراد الجالية الأندلسية واليهودية، لأن الطرد الذي فرض على غير المسيحيين لم يكن مقتصرا على المسلمين فقط، بل شمل اليهود أيضا، الآن رجال الدين المسيحيين خلال هذه الفترة يعتبرونهم كفارا، يجب محاربتهم أو على الأقل إبعادهم، لكي تتمّ الوحدة الدينية بشبه جزيرة البربر، كما اتهمهم البعض بأنهم كانوا وراء نجاح الفاتحين الأوائل.

لقد اجتمعت المصادر الاسلامية وكذلك التقارير المرسلة من الاسبان على أن هؤلاء المهاجرين وعلى الخصوص اليهود قد لعبوا دورا لا يستهان به في تسميته النشاط الاقتصادي وفي هذا الصدد يذكر العلامة المقري أن وهران وتلمسان استفادوا من الهجرة اليهودية من اسبانيا بحيث استقر التجار منهم بالمدينتين وتعاطوا مهنة التجارة.

كما كونوا روابط مع من بقي من إخوانهم في البلدان الأوروبية مثل مايورقة وكامل جزيرة إيبريا، كما انتقل البعض منهم الى الواحات الصحراوية وعلى الخصوص توات جرارة تيديكلت وسجلماسة ووداي درعة للتحكم

1- السليماني، المصدر السابق، ورقة 197.

2- المقري، نفح الطيب، ج1 ، ص166 .

3- الحسن الوازن، المصدر السابق، ج2 ، ص20 و يحدد عدد اليهود بها بنحو خمسمائة دارا اليهود وكلهم أغنياء يضعون على رأسهم عمامات صفراء » .

فـــي تجارة السودان الغربى وأن تأثيرهم في هذه المناطق كتوات نتعرض لـــه في المحور الثاني.

يضاف إلى ماسبق أن الاستقرار لم يكن مقتصرا على الأمصار فقط بينما نجد البعض الآخر ينتقل من المدن إلى الأرياف للقيام بالنشاط الحرفي وعلى الخصوص تصليح ما يحتاج إليه هؤلاء الريفيين في حياتهم كالحلي والغربل والبردع وبعض الآلات الحديدية كما كانوا يقومون بمقايضة السلع التى يأتون بها من المدن بالحبوب والجلود والأصواف والحنابل وغيرها وهو ما يؤكـــده المازوني بقوله: سئل أبو الفضل العقباني[1] عن يهود سكنوا في البادية ويتجرون في أنواع المتاجر وبعضهم سكنوا الحاضرة وتطول إقامتهم فـــي البادية هل تؤخذ الجزية من جميعهم تؤخذ من الساكنين خاصة».

ومما يؤكد أيضا استقرارهؤلاء بالأرياف ما أورده الصباغ عند تعرضه للأمراض في عصر أحمد بن يوسف الملياني وعلى الخصوص مرض الزهري الذي جاء به المهاجرون من الأندلس ومنهم اليهود وأن انتقاله بيـــن الأفراد بواسطة العلاقات الجنسية بين هؤلاء وسكان قلعـــة بنـــي راشـــد ومـــا جاورها[2].

1- المقري نفح الطيب، ج1، ص160، انظر كذلك بليوري سيد احمد: طرد اليهود وأثاره الاقتصادية والسياسية مقال في مجلة مخبر تاريخ الجزائر وإفريقيا وحوض البحر المتوسط العربي، دفاتر التاريخ المغربية عدد 2 مارس 1988 جامعة وهران ص16.

2- الصباغ وزهرة البستان ورقة 17 وعلق الوزان على هذا المرض فقال وداء الافراج الزهرى الفضيع بأوجاعه وبثوره وقرحه منتشر كثيرا في بلاد البربر لايكاد يسلم منه إلا قليل» انظر وصف افريقية،ج2 ،ص84.

- موقف أمراء بني زيـــان وحكام وهران من الجـــالية اليهودية:

إذا كان أمراء الدولة الزيانية قد استقبلوا اليهود كما استقبلوا إخوانهم المسلمين وعاملوهم أحسن من غيرهم فإن الاسبان عاملوهم أيضا بنفس المعاملة بعد احتلالهما لوهران والمرسى الكبير ولعل السبب في ذلك يرجع إلى الدور الذي قام به هؤلاء في احتلال وهران عندما فتحوا أحد أبواب المدينة لهم وهؤلاء يؤكده أبوراس بقوله أن الكفرة أدنهم الله لما استولى على برج المرسى وكان ذلك على يد يهوده ولما ملكوا المدينة انزلوا اليهود بهذا البـــرج وخلوا لهم النظر في الخرجات البرية والبحرية وثوراتها عنها بنـــوه مـــن سنـــة خمسة عشر وتسعمائة لا سنة ثمانين وتسعمائة».

فالذي يمكن استنتاجه من النص:

أولا: أن اليهود كانوا بوهران قبل الاحتلال الاسباني لها سنة 915هـ/1509م ويبدو أن عددهم بها لا يستهان به فكانوا يزاولون النشاط الحرفـــي والتجاري ويتحكمون في جبي الضرئب على السلع لصالح الدولة الزيانية، وبعد احتلال الاسبان لوهران حافظوا على ماكان لهم من قبل.

ثانيا: أن الإسبان كانوا في اشد الحاجة لهم نتيجة العلاقة التي كانت تربطهم بسكان الدولة الزيانية ومعرفتهم للعربية والاسبانية وتحكمهم في النشاط التجاري بأراضي الدولة الزيانية لذا سمح بإنشاء الدكاكين وإقامة المخازن ولعل أغلبها للتجار المسلمين الذين كانوا بوهران قبل احتلالها، وحتى اليهود الذين بارحوا المدينة بعد دخول الاسبان عادوا إليها[1].

1- بلوري سيد احمد ، نفس المقال ص19 .

- أثرهم فـــي الصنـــاعة:

لم يقتصر عمل اليهود على النشاط التجاري، فقط بل امتد إلى النشاط الحرفي .فاليهود منذ القديم كانوا يزاولون الحرف في أغلب مدن الدولة الزيانية وهذا في عصرها الذهبي، لكن تواجدهم بتلك المدن قد زاد بعض الهجرات الأندلسية المتعاقبة على أراضي الدولة الزيانية منذ القرن السابع إلى نهاية القرن التاسع وعلى الرغم من قلة هؤلاء اذا ما قورنوا بما توافد على أراضي الدولة المرينية ثم الوطاسية فالسعدية وكذلك الدولة الحفصية فإن دورهم لا يستهان به في بعث الحركة الصناعية[1] بالمدن التابعة للدولة الزيانية وعلى الخصوص في كل من وهران والمرسى الكبير وهنين وارشقول وبعض المدن الداخلية كتلمسان وقلعة بنى راشد. ومن بين المهن التى زاولها هؤلاء في هذه المرحلة موضوع البحث الخياطة والحدادة وصناعة الحلي. إن موقف الإسبان تغير من تواجدهم بوهران لأنهم أصبحوا يشكلون خطرا عليها[2] ونحـــن لا تهمنا هذه الفترة التي يمر فيها طرد اليهود بقدر ماتهمنا مكانتهم ودورهم قبل.

فالتقرير نص على مايلي: رغبـــات دون بيدر أرغوان حاكـــــم وهــــران دون سون يرى أن تواجد اليهود في المدينة يـــشكل خطـــورة، فقـــــد وصـــل عددهـــم إلـــى ثمان مائة بالاضافة إلى العبيد التابعيـــن لهـــم، ممــــا جعـــل عددهـــم يبلـــغ ألـــف نسمة، وبالرغم مـــن فقرهـــا عرفنـــا أنهـــم ســـيعاقبون

1- عن هذه الحرف، انظر الباب المتعلق بالحياة الاقتصادية، الفصل الثاني ص211 وما بعدها.

2- هذه الوثيقة تحمل رقم9، 6436 رقم10، لاكاديمية الملكية للتاريخ مدريد بليوري نفس المقال، ص17.

3- عن دون بيدر الارغوان donpedr نفس المقال، ص7، اماحاكم وهران خلال سنة 1669فكان دون فرناد DFernanda،انظر Primauderaie (Felix de la) OP cit P479 ..R.A.1877

علـــى أخطائهم بالأشغال الشاقة ونضيف أنهم فقراء دون أجور قليلة، كـــم مـــن فرص عديدة سمحت للحاكم القيام بالخرجات للبطحاء لتأديب العرب لكن ترك المدينة بكاملها لهذه حال دون ذلك».

يبدو أن هناك عوامل خفية كانت وراء اصدار قرار الطرد الذي لم يجد أذانـــا صاغية من قبل وهران ومن ضمن تلك العوامل نذكر مايلي:

أولا: أن اهتمام اليهود بالنشاط التجاري الحرفي بوهران وعلاقتهم بإخوانهم في أراضي الدولة الزيانية والدولة الجزائرية الحديثة قدم خدمات جليلة للاسبان وعلى الخصوص في ميدان الجوسسة التى نستعرض لها فيما بعد لكن انهيار الدولة الزيانية 964هـــ/1554م وتغلب باشاوات الدولة الجزائرية على المناطق التي كانت موالية للاسبان وبعد النجاح الذي حقق استعاد بجاية سنة 963هـــ/1535م والضربة القاضية التى وجهت للاسبان في مزغران سنة 966هـــ/1558م فقتل فيها الكوديتي Comte Al Caudete فقد أعظم قوته وكادت وهران والمرسى الكبير أسقط بيد الدولة الجزائرية لولا تحصيناتها ووصول الامدادات من اسبانيا لم تسمح للإسبان فيما بعد بالمغامرة خارج مراكزهم عكـــس ماكان من قبل وعلى الخصوص خلال حكم الكوديتي[1] لوهران فأضعـــف ربما نشاط الجالية اليهوديـــة بأراضي بني زيـــان التي كانت تتعامل مع الإسبان.

1- حكم دون مارتيناز القرطبي الملقب بالكوديتي martin de cordava yvelazlo Comte dalcaude'te مابين4 جوان1534 و26 اوت1558، انظر elie de laPrimauderie) P 467 .R.A.1877

لأن نهاية هذه الدولة واشتداد الحصار البحري على وهران والمرسى الكبير جعل السلطة الاسبانية ترى في تواجد ألف من أفراد الجالية اليهودية في وهران خلق لها أزمة اقتصادية من جهة وأمنية من جهة أخرى خوفا من تحالفهم مع المسلمين.

ثانيا: أن موقف حاكم مدينة وهران الذي يتجلى من خلال التقرير المرافق للوثيقة والذي دفع فيه عن اليهود و ذكر بأن الأزمة التي تعاني منها وهران ستكون ظرفية تزول مع الأيام، لكن هذا لا يتماشى مع الواقع ولعل دفاعه يرجع بالدرجة الأولى الى العلاقة التى تربطه بهؤلاء ومن عادتهم استغلال العلاقة مع السلطان الحاكمة لصالحهم وقد حدث هذا بالنسبة لأمراء الدولة الزبانية فالعلاقة الحسنة ببنهم وبين أبى عبد الله الثاني هي التي سمحت لهم بالدخول إلى المدينة والاستقرار في المنطقة الفاصلة بين القيصرية والمنشور.

ثالثا: إن اليهود قدموا خدمات جليلة للإسبان فهم الذين كانوا يخرجون إلى الدواوير المجاورة للمدينة لجمع الضرائب من الفلاحين المزارعين ومربي المواشي. كما كانت لهم الحرية الكاملة في الحركة خارج المدينة يرافقون القوافل بين تلمسان ووهران وهذا يتجلى لنا من الوثائق الاسبانية نقتصر على البعض منها خلال سيطرة خير الدين على حصن البنيون ببعث، أحد اليهود من مدينة الجزائر مع أفراد جاليته تقرير مفصل حاكم وهران عن مصير الحصن وماحدث للاسبان به تذكر بأن عدد القتلى بلغ خمسة وستين جنديا والاسرى مائة وخمسة عشر منهن خمسة وعشرين امرأة مع أطفالهن حول أغلبهم إلى عبيد[1]. وهو ما توضحه أيضا الرسالة التي بعث بها الكوديتي إلى الامبراطور

1- انظر lettre écrite d'Alger par un espion juif لكن حاكم وهران حددها في تقرير Sans date Arch de simancas estada ,lezago 4611529

شارل الخامس والمؤرخة في خمس وثلاثين وخمسمائة وألف عالج فيها صاحبها دور الجالية اليهودية في نقل المعلومات عن أمراء بنى زيان لحاكم وهران ولم يقتصر الأمر على هؤلاء فقط بل حتى القبائل المعادية للاسبان لأن اليهود كانوا يخرجون من وهران حاملين السلع لبيعها في الأرياف وتبادلهما بما يحتاج إليه الاسبان من حبوب ومواشي وبعض الصناعات التقليدية.

وفي ظل هذا يبدو بوضوح ما لليهود من نفوذ في المجال الاقتصادي وموازرة الاحتلال وتدعيمه.

رابعا: عمد اليهود إلى اضطهاد السكان عندما يخرجون الى الدواوير لاستخلاص الضرائب ناشرين الظلم والاضطهاد يتصرفون في السكان بكامل الحرية وفي هذا الصدد يقول المشرفي[1] كانت لهم حولة عظيمة على بنى عامر لكون الجباية بمحلته على يد اليهود الضريبة فيضرب خباؤه بواسطة دواوير بنى عامر من أولاد عبد الله وغيرهم يتصرف بهم لكونه الملك في رعيته كما شاء أمر ولهذا يضع على رجل هذا الرجل الحبال ويجلد هذا ويتخلى عن سبيل هذا إلى غير ذلك دون معترض.

- أثر علاقة اليهود مع السـودان الغربي وأثرها:

لعبت الجالية اليهودية دورا هاما في المبادلات التجارية بين السودان الغربي وبلدان العالم الاسلامي وقد اتخذوا من مفترق الطرق التجارية ومراكزها للإشراف على حركة القوافل التجارية[2]. تعرضت كتب الرحالة

1- عبد القادر، المشرفي، في بهجة، الناظر، ص35.

2 حساني المختار الاحوال الاقتصادية والاجتماعية للدولة الزيانية رسالة دكتورة الحلقةIII جامعة الجزائرية 1987ص 93.

لدور هؤلاء اليهود وكذلك أصحاب النوازل الفقهية ووجهت أسئلة في شأن اليهود إلى علماء تلمسان ومن بين هؤلاء عائلة العقبانى وفي هذا الصدد وردت النازلة التالية: (وكتب قاسم سعيد العقباني[1] لمحمد بن موسى الحسني جوابكم في شراء اليهود الذين بالبلاد الصحراوية القريبة من ظاهرة السودان العبيد والإماء الواردين عليهم إبتغاء التجور والاستفادة وطلب الفضل في بيعهم لايعود ذلك من القصور التى تحمل على شرائهم كدوام الملك أو الاستخـــدام أو الاستيلاء بل الفائدة في الربح خاصة على أن الرقيق في أول انفصالهم عن بلادهم يأتون على مجدهم وناقصون عليه، والاسلام إنما يخالف قلوبهم ويتزينون به بعد الاستقرار في عامة البلاد فهل يصح شراء اليهود باسم التجار فيهم وهم بالحال المعهودة الذي يستخلص من هذه النازلة يتمثل فيما يلي:

أولا: إن توات من أهم الواحات الصحراوية في أراضي الدولة الزيانية التى يتوافد عليها العبيد من السودان الغربي ولا تزال لحد الآن بعد مظاهر تلك التجارة فهؤلاء الرقيق مازلوا يعاملون معاملة تختلف عن بقية المسلمين، وتوجد أخباء خاصة بهم في القصور منفصلة عن أسيادهم ويمنع التصاهر معهم وحتى المقابر منفصلة في بعض القصور لأنه لايمكن للعبد ان يدفن الى جانب السيد، لكن هؤلاء الزنوج اعتنقوا الاسلام بعد وصولهم الى تلك الواحات والبعض منهم كانوا على الاسلام.

ثانيا: إن النازلة توضح لنا بأن الذين كانوا يحتكرون هذا النوع من التجار هم العبيد الذين كانوا يرافقون القوافل التجارية وعلى الخصوص في المسالك التى بين سلجماسة وتوات وتمبكتوا وجوجو وغيرها من المراكز التجارية،

---

[1] لمؤف محهول مجموعة من النوازل الفقهية ورقة 39 .

كما توضح لنا سيرة المغيلي عبد الكريم أن هناك جالية يهودية كانت متمركزة في إمارة السودان كدولة سنغاي ولهم علاقة مع إخونهم الذين كانوا بتوات ولذا حاول عبد الكريم المغيلي[1] أن ينتقم منهم عندما علم بمقتل ابنه في أحد قصور توات، طلب من السلطان سنغاني[2] معاقبتهم.

ثالثا: إن هذا النوع من التجارة يهدف من ورائها الربح الكثير حيث كان هؤلاء يعمدون إلى نقل العبيد نحو الموانئ الشمالية المطلة على البحر الأبيض المتوسط ومنها موانئ، الدولة الزيانية حيث يوجد إخوة لهم يحتكرون هذا النوع من التجار فيصدرن العبيد إلى الدول الأوروبية فيباعون من طرف اليهود الذين يتواجدون في أغلب المراكز التجارية وعلى الخصوص الموانئ وتؤكد الوثائق، الاسبانية أن اليهود في كل من الدول الأوروبية والدولة الزيانية والواحات الصحراوية والمراكز التجارية في كل من السودان الغربي متصلون ببعضهم في بعض الأحيان ،هم أفراد من أسر موزعة على تلك المراكز فهم الذين يحددون أسعار العبيد.

رابعا: أن النازلة توضح لنا ما توصل إليه الحسن الوزان بأن هؤلاء العبيد كانوا ينقلون من قراهـــم بالقوة بعد الحروب التى كانت تتخبط فيها منطقة السوادن الغربي، وبعض هؤلاء يأتون من النواحي التى اعتنق سكانها الاسلام، وبعض هؤلاء يعتنقون الاسلام بعد أن يتم شراؤهم من أسر اسلامية للعمل فـــي الدور أو في البساتين.

1- المغيلي عبد الكريم مجموعة المغيلي مخطوط بالزاوية البكرية تمطيت ورقة 56 .

2- عن هذا ،انظر رسالة المغيلي تتعلق بدوابة سنغاني مخطوط بالخزانة العامة بالربط تحت رقم 1026 ورقة 16 ورقة.(2) لمؤلف مجهول نوازل فقهية، ورقة 41 أ

ففيما يتعلق بالرقيق المسلمين نجد نازلة وردت في هذه المجموعة ورد فيها قول صاحبها: « من اشترى من اليهود رقيقا حقق إسلامهم هل شراؤهم صحيح، وإنما يحرم بيعه: فأجاب محمد بن موسى الحسنى بقوله: الحمد لله بيع السودان الكفار الأول وردوهم من بلادهم، وهم بصفة المتجسيسين من اليهود، والنصارى، ليس بحراس، وإن كان ترك الرفيع منهم أولى وأما صغار السودان فلا سبيل لبيعهم[1]» أما أبو القاسم العقباني فقال وأما شراء اليهود من حقق اسلامهم من الرقيق، فلا يجوز، ولا يكاد يصدر من مسلم ولله الموافي، فلا يجوز، ولا يكد يصدر من مسلم، ولله الموفق[2].

أولا: هذه النازلة وردت الإجابة عليها من عالمين يعتبران من أبرزعلماء تلمسان في عصرهما وهما السنوسي وابن زكري وقد وقع اختلاف في إجابتهما عن النازلة.

1: يركزون على الرقيق الذين نقلوا من السودان الغربي وهم على وثنيتهم، فإن بيع من قبل اليهود ليس بحرام، وفرق بينهم حسب السن، والمكافحة الاجتماعية، فترك الرفيع منهم أولى وأما صغار السودان أي الأطفال فلا سبيل لبيعهم، لأنه أحيان وربما في أغلب الحالات يفضل بين أفراد الأسرة الواحدة، فيباع بعضهم في مركز والأخرون في مراكز أخرى.

2: إن العقباني يمنع الاتجار بالمسلمين من قبل اليهود سواء كانوا أطفالا أونساء ويطلب المسلمين منع هؤلاء اليهود .من النوازل أوردها المازوني يتعلق بمنع هذا النوع من التجارة، لكن عندما ضعفت الدول المغربية، ومن

1- نفسه، ورقة 42 ب. الحسن الوزان ، المصدر السابق ، ص : 256.
2- نفسه، ورقة 42 أ.

بينها الدولة الزيانية، أصبحت الجالية اليهودية تتاجر بموانئ هذه الدولة، فهذه المراكز محتلة من قبل الاسبان. ومما يؤكد على ازدهار المبادلات التجارية بين تلمسان وتوات، وردت هذه النازلة.

- دور اليهود في المبـــادلات التجـــارية بين تلمســـان وتوات:

من بين السلع يتم تبادلها بين توات وتلمسان العبيد، كما أسلفنا حيث كـــانت مجموعة، هؤلاء يملكون المخازن التجارية، في القيـــصرية، تلمـــسان، وقـــد أشارت إلى ذلك الوثائق الاسبانية حيث حدد هؤلاء موقع الحي اليهودي، بأنـــه مجاور للمشور[1]، والنازلة توضح هذه العلاقة، فأهم ماورد فيها: « سل عبيـــد الله أحمد بن محمد بن زكريا التلمساني جوابكم الكريم في أمة مملوكـــة ببلـــدنا تزوجت عبدا، لأهل تمنطيت، في زمن العافية وبما أن حدثت الحرب ذهبـــت العبدة إلى سيدة.

وبقـــيت الأمة عند سيدها، ولما طال الأمر أرادت تطليق نفسها الانفاق.[2] توضح هذه النازلة بالاضافة إلى العلاقة بين توات وتلمسان الاضطرابات التي عرفتها الدولة الزيانية، وخاصة العاصمة، وكان الناس يتركون المدينة كلما كثرت الحروب بها، ومن بين المهاجرين أفراد من الرقيق[3].

وهناك نازلة أخرى تؤكد دور اليهود، في المبادلات التجارية وأهم ماجاء فيها، سؤال للإمام سيدي قاسم العقباني: جوابكم المبارك في مسألة يهودي

1- Cueva, Francisca de la Relacion de la zuerra de Tlemcen» in caleccion de libros Raros curiosos txv Madrid 1881, 397 B .N .de Madrid no G 47 en manuscr

2- المؤلف مجهول نفس المصدر ورقة 43أ .

3- نفسه ورقة 43 ب

مـن تجار الصحراء إتباع من تجار المسلمين تحقق سلعا كثيرة بثمن معلوم، إلـى أجل مما يقرب الثمانية ألف دينار ذهبا ونحوها، فلما وصل إلى قصر مـن قصور الموضع المذكور، وتمنع بأهله، إلا أن سافر أرباب الديون، عـاد إلـى موضعه وصار، يبيع ويشتري، كما كان أولا وبيده مال كثيـر فعندما يطلبه أحـد من أرباب الديون الذين كان اشترى منهم السلع المذكـورة، يقول هـو عديم[1] وهل يطاف اليهودي المذكور بالأسواق وينادي عليه بالعدم والسلام.

فأجاب العقباني يجب في الحاكم أن يضرب على يديـه، ويحال بينه وبيـن ما يؤخذ بيده، ويهجم على منزله، فيجمع جميع أمواله، ويصال حبسه، و يحمل عليه بالسوط ثم يمنع من السوق، ويشهر أمره بإقامة الناس عنـد المساجد، ومحل الاجتماعات[2].

وما يمكن استخلاصه من النص يتمثل في أن موقف المسلمين من اليهود لـم يكن الدافع إليه الجانب العقائدي كما ذكر بعض الباحثين، واليهود، عندما عالجوا موقف عبد الكريم المغيلي من الجالية اليهودية في تمنطيت.

أولا: أن التجار الذين كانوا يتوافدون على توات من المراكز التجارية، كانوا يعمدون إلى بيع سلعهم لكبار تجار الجالية اليهودية، بتوات، وينتظرون بيع السلع ولأخذ أموالهم لذلك يجدون وقت أخذ تلك الأموال، ثم يعودون لقبض أموالهم لكن هؤلاء يعمدون إلى إتباع طرق ملتوية حتى لايسددوا ديونهم ومنها

1- لمؤلف مجهول المصدر السابق ورقة 43 أ

2- نفسه ورقة 43 ب .

الدخول إلى قصرهم والتحصن به وبذلك نجد الصراع الذي حدث بين هؤلاء وأولئك.

ثانيا: أن اليهود كانوا يعودون إلى عملهم في السوق بعد مبارحة صاحب الدين بتوات، وهو ماجعل العقباني يطالب بمصاردة أموال هؤلاء التجار وحسبهم.

ثالثا: أن كل تاجر سواء أكان يهوديا أو مسلما يقوم برفع الأسعار أواحتكار السلع أو عدم تقديم الديون لأصحابها يطرد من السوق و يشهر به في الأماكن التى يتوافد عليها الناس كالساحات والمساجد حتى لا يتعامل الناس معـــه فـــي المستقبل وهذه العملية مجدية للغاية لأنها تقضي على تلاعب التجار بـــأموال الناس[1].

- موقف المغيلي من اليهـــود في توات:

كما تعرض عبد الكريم إلى وضعية الجالية في توات وغيرها من القصور الصحراوية في نهاية القرن9هـ/15م وبداية القرن10هـ/16م. ومن بين مـــا أورده قوله: قبائل في أطراف الصحراء، حيث لا سألهم حكم ولا أمراء، يتخذهم اليهود اجلاء ويلقبونهم بالغلائف، ويجعلون الموازين والسكة بأيديهم، دون أمير يكون عليهم، فيغشون للمسلمين خاصموه حتى لا يتوصل إلى أخذ الحق منهم[1]».

1- مثل ما عليه الحال في عصرنا هذا.

1- لمؤلف مجهول نفس المصدر ورقة 56 .

نستخلص من هذا النص:

أولا/ إن اليهود في الواحات الصحراوية وبالخصوص اقليم توات كانوا يعتبرون سادة القوم، لتعاونهم مع أعيان تلك القصور، فكانوا لا يعترفون بما تقره الشريعة الاسلامية في حقهم.

ثانيا/ إن اليهود كانوا متواجدين في أغلب قصور توات وبالخصوص قصر أولاد داود[2] تمنطيت، لأن هذه الأخيرة تعتبر المركز الأساسي للمبادلات التجارية بين السودان الغربى وبلدان العالم الاسلامي في مشرقه ومغربه لأنها تقع على الطريق التجاري الذي يربط هذه البلدان لذلك توافد عليها عدد من اليهود من الدول الاسلامية والمسيحية لاحتكار النشاط التجاري بها، فالمكائل والموازين بأيديهم، وبذلك يتحكمون في السلع وأسعارها كما كانوا يقومون بضرب النقود المتداولة بين التجار سواء في توات أوغيرها من الواحات الصحروية ولم تكن هناك سلطة تراقب النوعية في تلك الأماكن وهو ماجعل هؤلاء المسلمين يردون على المغيلي بقولهم: على هذا أدركنا أباءنا وعليه أدركت أباؤنا أباءهم، ولم نسمع من أنكر ذلك تطبيق الأحكام الاسلامية على هؤلاء لم يتم منذ نزولهم بتلك البقاع الصحراوية، وحتى الفقهاء أنفسهم لم يفرضوا على هؤلاء اليهود الجزية.

ثانيا/ إن هؤلاء هم المشرفون على الأسواق التجارية، ولذلك فإن خروجهم من قصورهم سيؤدي إلى تعطيل هذه الأسواق، ويشيركذلك المغيلي إلى خطر

2- لا يزال قصر أولاد داواد لحد الآن محافظة على تلك الأسوار والحصون التى كانت في عصر عبد الكريم المغيلي وحتى الدكاكين لا تزال الآن باقية.....

هؤلاء اليهود، على أمن السكان في توات[1] وغيرها من الواحات التى كان يقيم بها المسلمون، فتسببوا في الفتن بين القصور حتى لا يكون هناك اتحاد، يهدد مصالحهم الاقتصادية، في المنطقة وهي نفس السياسة التى كان عليها اليهود في أغلب أمصار الدول الاسلامية، كالأندلس، والمغرب، وحتى بلدان المشرق، وعلى الخصوص عندما يكون هناك تعاون بينهم، وبين أعيان تلك القصور[2]. لأن القصور التواتية كان يشرف عليها الأعيان و رجال الزوايا لتأثرهم على المجتمع هناك وذكر المغليى أن نفوذهم جعلهم لا يتقيدون بما جاءت به الشريعة الاسلامية، فهم ينكرون ارتداء الزنانير ويتزينون بالزي الرفيع ويتخذون الرقيق، ويظهرون ماشاءوا من التعاظم أولا وأمورهم، ويرفعون أصواتهم، بذلك في أعيادهم وأفراحهم ويحدثون المعابد حيث شاؤوا بين دور المسلمين ويرفعون أصواتهم بالقراءة وغيرها، وأحدثوا كنيسة، واتخذوا النقود وعلى الخصوص جودة الذهب المستعمل.

كما كانوا يقومون بتقديم القروض للتجار وهو ماجعل هؤلاء في رأي المغيلي يغشون المسلمين ويخونهم ويخدعونهم[3].

ثالثا/ نجد هناك تعاونا بينهم وبين ذوي الجاه، والمكانة في تلك القصور، فيتقدمون هؤلاء اليهود عندما يحددون معارض لهم وأحسن مثال على ذلك، ما وقع لعبد الكريم المغيلي الذي لم يستطع أن يحقق ماكان يصبو إليه في توات، مما جعله يفضل الانتقال إلى السودان العربي، وقد تعاون هؤلاء

1- لمؤلف مجهول المصدر السابق، ورقة 45أ.

2- نفسه ورقة 45 ب الركائز من اللباس فرض على اليهود منذ القرون الأولى للهجرة.

3- لمؤلف مجهول، المصدر السابق ،ورقة 44أ.

اليهود وحلفاؤهم على ابنه فقتلوه.

وكان هؤلاء اليهود لا يدفعون الجزية لأن المسلمين الذين كانوا بتلك القصور لما طلبوها منهم إدعوا أنهم كانوا معفيين منها في العصور التي سبقت وصول المغيلي إلى توات، وهو ما جعل هذا الأخير يردّ على ذلك بقوله: "فإذا قيل لهم أنكم أعنتم اليهودي على التمرد ومنع الجزية، وإذاية المسلمين بقوله، على هذا أدركنا أباءنا، وعليه أدركت آباؤنا آباءهم، ولم نسمع قط من أنكر ذلك، وحتى الفقهاء ونحن ان قهرنا اليهود يرحلون عنا إلى من يمنعهم فتدركنا المعرة وتعطل أسواقنا[1]"، ومن الملاحظ: **31**

أولا: إن وجود اليهود في توات، وغيرها من الواحات يعود إلى فترة زمنية قديمة ولعله لعهد الدولة الرستمية[2] التي اهتمت بالمبادلات التجارية مع السودان، وكان بداخل تلمسان حي خاص باليهود[3] ومن جملة ماعرفوا به يقولون العرب بنو أمة منا ونحن خير منهم في الدين لأنهم يقتلون النفوس، ونحن لا نقبلها، إلى غير ذلك من العظائم التي ارتكبوها[4].

ثم يوجه نقدا للعضو الذي أفتى اليهود في رفع الأصوات عند القراءة والألات وأنواع الظلالات[5].

1- لمؤلف مجهول المصدر السابق ورقة 44ب.

2- الدولة الرستمية 160-296 هـ/776-909م.

3- ابن مريم، البستان ص263.

4- لمؤلف مجهول المصدر السابق ورقة 45 ب.

5- نفس المصدر ورقة 45أ.

ومما يؤكد احتكار هؤلاء اليهود للنشاط التجاري يقول المغيلي تصرفات في البيع والشراء وقضاء الحوائج في بعض بلاد الصحراء على أيدي اليهود، فـــلا يكاد المسلم يتوصل لحاجة من حوائجه، ولا يدفع شيئا من سلعته، فـــي غالب الأمر إلاّ على أيديهم حتى أن أهل البلد المذكور اذا جاء عليهم يوم السبت سبتوا في كثير من تصرفاتهم وظهر أثر السبت على أسواقهم وجرى ذكره على ألسنتهم، يوم السبت لا يجد قبولا فترى التاجر إذا أقدم للبلد نزل فـــي منازل اليهود يأكل من أطعمهتم ويصبح ويمشي في جماعتهم، ويخالطهم كما يخالط المسلمين أحبابه المسلمين خوفا على تجارته من الكساد واختيار منازلهم على سائر منازل البلاد[1].

ومن أهل البلد المذكورين من يتخذ من اليهود خادما يتصرف في قضاء حوائجه ويؤهله على البيع والشراء وغيره. فهذا النص الذي أورده المغيلي نستخلص منها مايلى:

أولا: أن اليهود كانوا من ذوي النفوذ في توات لعلاقاتهم بأعيان القصور، الذين كانوا يقبلون الهدايا التى تقدم لهم من قبل هؤلاء وهو ماجعل السكان الذين يواجهون مشاكل يتوافد على دكاكين اليهود، الذين كانوا يتدخلون لصالحهم لدى أعيان هذه القصور، للعلاقة الحسنة بينهم وبين أفراد الجالية اليهودية، وإحتكارهم للنشاط التجاري، لأنه لا يمكن لأي تاجر أن يعارض اليهود تسويق سلعتهم، وشراء أخرى من أسواق توات، والقصور التابعة لها، وقد أدرك ذلك حتى التجار القادمون إليها من السودان الغربي، أو بلدان المغرب، فكانوا يخاطبون هؤلاء اليهود لكي يتمكنوا من التصرف في سلعهـــم

1- نفسه ورقة 45 ب .

وشراء سلع جديدة وهوما دفع إلى القول: يكاد المسلم أن يتوصـــل لحاجـــة مـــن حوائجه أو أن يبيع شيئا من سلعته في أغلب الأمر إلاّ بأيديهم[1].

ثانيا: أن قصور توات أصبحت تحمل طابعا يهوديا لسيطرة هؤلاء على شريانها الإقتصادي، فالأسواق والدكاكين تعلق يوم السبت بدل يوم الجمعـــة، ولا تقضى حوائج الناس في ذلك اليوم، وكذلك أعياد اليهود التي يحتفلون بهـــا في أغلب تلك القصور التواتية.

ثالثا: إن القوافل التى تأتي من السودان الاسلامي، كانت لا ينزل إلاّ بأحياء الجالية اليهودية، لكي يتمكنوا من بيع سلعهم، وشراء السلع التى يحتاجون إليها، واذا نزلوا بخارج منازل اليهود تبقى السلعة مكدسة في الأسواق لضغط اليهود على التجار[2] .

- أثر اليهود على الأحوال الاجتماعية:

هذا فيما يتعلق بدور الجالية اليهودية، في الميدان الاقتصادي أما في الجانب الاجتماعي فإن لليهود دورا كبيرا أيضا.

وفي هذا الصدد يقول: صاحب هذه النوازل: « سئل محمد بن احـــمـــد بـــن قاسم العقباني جوابكم في أهل الذمة، هل تلزمهم الضيافة في البادية، والحاضرة، أو لا تلزمهم إلا في الحاضرة وعلى اللزوم فهل يلزمهـــم منهـــا إلا مقدار ما يقوم بالضيف غداؤه وعشاؤه؟».

1- لمؤلف مجهول، نفس المصدر السابق ورقة 46 أ.

2- نفسه، ورقة 46 ب.

فأجاب: «الجزية المفروضة على أهل الذمة، مع الأرزاق، والضيافة لازم أن ذلك غير أن الضيافة على حال المضيف وراء الإمام يمكن سقوط الأرزاق، والضيافة مع ما أحدث عليهم من الظلم فإن لم يكن ظلم».
يستفاد من هذا النص مايلي:

أولا: إن هناك ضريبة تدفع من قبل أفراد أهل الذمة، ومن بينهم الجالية اليهودية، والتى تعرف هذه الضريبة، والمقصود بها دفع جزء من أموالهم لصالح بيت مال الدولة، ترجع عائدتها على الغرباء الذين يتوافدون على أراضها، لكن يبدو أن فترة الضعف التي عرفتها الدولة دفع بقابض هذه الضريبة إلى التعسف في أخذها لذا قال تسقط الأرزاق، والضيافة، مع ما حدث عليهم من المظالم.

ثانيا: إن القرآن وأحاديث الرسول «ص» لا تقر هذه الضرائب بل تذكر الجزية التى حددت من الفقهاء بالنسبة للوضعية الاجتماعية، الأهل الذمة وكذلك سن الذي يدفعها، ومن بين المواضيع التى تعرضت لها كتب النوازل الفقهية قضية الملابس التى حددتها الفقهاء.

وردت مجموعة من النوازل تتعلق بهذا الموضوع منها هذه النازلة قال فيها: « كتب محمد بن العباس جوابكم في لباس اليهودي هل يمنعون من الترفه في اللباس؟، وإنما يكلفون بشد الزنار ويتركون مايشتهون من اللباس وهل يسوغ رفع أبنيتهم عن أبنية المسلمين» وإلا فإنه لا يسوغ ذلك فكيف إذا كان فعلهم ذلك على وجه التحصن لرقابهم وأموالهم؟، لأنهم بموضع لاسلطان فيه ولا والي من جهته، فإذا كانت فتنة بين القبائل فى الموضع ركب أهل

القصور المجاورين لقصور اليهود قصورهم مما يجعل هؤلاء لا يخشون على أنفسهم[1]».

إن الجالية اليهودية بعد احتكارها للمبادلات التجارية بين المراكز المختلفة وتحكمها في السلع القادمة من السودان الغربي، والدول الأروبية، وتقريرها للأسعار التى تراها مناسبة لها، جعلتها تستفيد من ثروات مالية كبيرة وبالخصوص في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الزيانية، أثرت تلك الأموال على وضعيتها الاجتماعية، فأصبح أفرادها يعيشون حياة الترف، بملكهم للعبيد، والجواري، وبنائهم للقصور إرتدائهم ملابس فاخرة، وامتطائهم، أجود الجياد فتخلوا عما كان يربطهم بالدولة الاسلامية التي كان حدد لهم فيها نوع الملابس حتى يفرق بين أهل الذمة والمسلمين.

ثانيا: أن بعض الفقهاء عارضوا هذه الوضعية في مقدمة هؤلاء عبد الكريم المغيلي الذي شن حربا على هؤلاء.

وهناك فريق يرى بأنه لا يمنع عليهم اللباس الفاخر بل يطالبون بشد الزنار فقط، لكن البعض لا بفرض علي هؤلاء لباسا معينا لأن الوضعية السياسة التي أصبحت عليها بلدان المغرب الاسلامي وعلى الخصوص الدولة الزيانية حيث انعدم الأمن، سيؤثر على أفراد الجالية اليهودية الذين كانوا يزاولون أنشطة الاقتصادية لذلك لا يطالبون بلباس معين حتى لا يكتشف أمرهم خوفا على أرواحهم ونهب أموالهم نتيجة للفوضى التى عرفتها منطقة توات في نهاية القرن9هـ/15 وبداية القرن10هـ/16م، حيث اشتد الصراع بين قبائل

1- لمؤلف مجهول، نفس المصدر، ورقة 46 ب .

الناحية والإغارة على القصور، منها قصر بني داود الذي تقطن بـه الجاليـة اليهودية في تمنطيت.

الواقع أن اليهود حينما أحسوا بضعف دولة بنـي عبـد الـوادي حـاولوا التخـلي عن دفع الجزية التي فرضت عليهم شرعا وفي هذا الـصدد يقـول العقباني عن ذلك ومثله: "ماعهدناه في مغربنا يقصد القرن9 هـ/15م".

مواطاة العمال لبعض يهود الكبوس على اعتزازهم بوضع الجزية استقباحا عندهم مساواتهم للذين يؤدنها واستكبار في مخادعة للخروج عن دائرة من رسم الله فيهم أدائها مذلة وسمحوا في ذلك لولا خدمتهم للعامل.[1]

يستخلص من هذا النص: «إن هناك تواطؤ بين السلطة الحاكمة واليهود التحايل على الشريعة[2] التي لها موقف واضح من أهل الذمة والجزية مصدر من مصادر بيت مال المسلمين[3] وفي توات نال اليهود منزلة سامية جعلتهم يعمدون الى بناء البيع فبنوا عدة بيع لهم في قصور توات حيث كان يقيـم ابـو عبد الله محمد بن عبد الكريم التلمساني[4] وصحبته، فقام عليهم بمساعدة اهالى توات في هدم البيع وتطبيق الجزية عليهم»، وقد تعرض المغيلي الـى محالفة قاضي توات، وهو ابو محمد عبد الله بن ابي بكر العصنوني، فكتب المغيلي الى علماء فاس وتلمسان في شأن هذا الموضوع فانقسم هؤلاء بيـن مؤيد ومعارض، فمن المؤيد له الإمام محمد بن يوسف السنوسي المشهور

1- لمؤلف مجهول : مجموعة من النوازل ورقة 17ب.
2- نفسه. ورقة 47 ب .
3- المازوني الدرر المكنونة ، ج1، ورقة 276.
4- الونشريسي المعيار ج1 ، 256 .

بتأليفه في علم التوحيد(والمتوفي سنة 895هـ/1484)[1] ولقد استفدنا مما دلل به السنوسي على فتواه الفقهية الصبغة السياسية التى اكتشفها في هذه القضية، وعرفنا مدى الهوة العميقة التي احدثتها اليهود، وبعد ووصول جواب السنوسي[2] لتوات ثار التواتيون، وهدموا معابد اليهود. ويعلق المغيلي على تعامل اليهود مع السلطة فيقول: «من التعدي والطغيان والتمرد على ما في الأحكام بتولية أرباب الشركة أوخدمة السلطان وأنه تسهلا من المسلمين مع هؤلاء اليهود حتى كان الواحد منهم بقربه إلى اليهود من نفسه وعياله أو يستعمله في أعماله ويجعل بيده ماشاء من ماله مع أنه لا دين له ولا مروة»، يوضح هذ النص:

أولا: إن سلاطين الدولة الزيانية قد جعلوا من اليهود بطانة يشاركونهم في الأحكام وهو ماجعل العلماء يعارضون ذلك ويعانون من ثروتهم ضدهم مما أدى بالبعض إلى الهجرة كما فعل عبد الكريم المغيلي الذي ترك تلمسان وتوجه إلى توات وعندما ما فشل في القضاء على اليهود بها لوجود مؤيدين لهم في توات وهو ما تؤكده هذه النازلة، رحل إلى السودان فوجد تأييدا من أمرائها الذين ساعدوا في نشر الاسلام في تلك الربوع .

أما النازلة فقد جاءت على لسان قاسم بن سعيد العقباني وكتب قاسم بن سعيد العقباني لطف الله به الحمد لله سيدي جوابكم في مسألة وطن ليس به سلطان ولا حاكم وأهل الوطن المذكور لا بد لكل واحد منهم أن يشتد إلاّ من له هنالك وجاهة وحزبه ليمنعه من الظلم والافرط في الإهانة إن لم

1- ابن مريم البستان، ص237

2- نفسه، ص 236 .

يفعل اليهود ذلك فضاع حقهم وأخذت أموالهم وجرت عادة هؤلاء أن يتحصنوا أمرا استندوا إليه بالهدايا والصرف والدرهم وغيرهم فهل يا سيدي يسوغ لأحد منهم و يحل بمانعهم ويكون ذلك شبيها بالجزية ولا يحل له.

فأجاب: « الحمد فتول هدية اليهود إلى أمد استند إليه فمن له وجاهة يمنعه من العداء عليه في ماله أو في بدنه سائغ ان يشاء الله ولا خرج بـــه على قائلـــة منه[1]».

فالنازلة توضح لنا الرأي المعارض لعبد الكريم وهو أن هؤلاء اليهود يوجدون في منطقة ليس لها سلطان وأهل الوطن يعتمدون على ذوي الوجاهة أي شيوخ قبائل الناحية الذين يتحكمون في أمور الوطن، ولذا لا يمنع على اليهود أن تكون علاقتهم حسنة بهذه الفئة للمحافظة على تجارتهم وحتى تقيم نصيبا من الأموال لصالح هؤلاء الناس.

ولعل هذا ماجعل هؤلاء يعارضون عبد الكريم المغيلي في موقفه من اليهود ويتهمونه بأمور تتعارض مع الشريعة الاسلامية[2] وهو ما تؤكده هذه النازلة فقد خصصها صاحبها إلى أولاد يعقوب[3] أنصار عبد الكريم المغيلي فقال عنهم رجل من أولاد يعقوب أصحاب المغيلي: « هربت إليه أمة امرأة من القبيل الذي قاتلوهم بأمر حلول المغيلي عندهم وقـــد سمعتهم وعلمتم

1- لمؤلف مجهول نفس المصدر ورقة 49 أ

2- توجد في الخزانة العامة بالربط رسالة لابن هلال رد فيها على عبد الكريم المغيلي في قضية اليهود مخطوطة تحت رقم 2500 ورقة 56 .

3- يوجد قصر أولاد يعقوب بتمنطيت غير بعيد عن قصر أولاد دواد ولازال المنزل الذي نزل به المغيلي الآن.

مـــا يزعمه المغيلي في أعدائه من إباحة دمائهم وأموالهم فعمد الرجل إلى الأمة ووطئها فولدت منه ولدا فهل يدار عنه الحق ولا يلحق بـــه الولد وكانت عادة البلاد أنهم يملكون مثل ذلك ولكنه ما استمروا على قبيح عادتهم فزادهم الله الرجل بزعمه فوقع الرجل فيما وقع فيه[1] ».

فالذي يستخلص من هذه النازلة يتمثل فيمايلي:

أولا: أن وصول المغيلي إلى توات جعل أعيانها ينقسمون على أنفسهم منهم من اليده ووقف إلى جانبه ويأتي في مقدمة هؤلاء بنو يعقوب الذين لا يزلـــون لحد الآن يحتفضون بذكرياته ولايزال بداخل قصرهم المنزل الـــذي سكـــن بـــه والمخزن الذي كان يخزن فيه سلاحه خلال مواجهة يهود قصر دواد غيـــر بعيد عنه. بينما وقف آخرون إلى جانب عبد الله العصموني قاضي توات وهو تلمساني أيضا، وكان الأخير من المعارضين لموقف عبد الكريم المغيلي من الجالية اليهودية ولا يزال أثر القصر الذي كان به العضوني والمسجد الـــذي عرف به.

ثانيا: ماهو معروف في المصادر الاسلامية أن عبد الكريم المغيلي قـــد أبـــاح أموال اليهود ودمائهم وأعلن الجهاد في قتالهم ولعل هذا أساء إلـــى حلفائهم من قصور توات الذين كانت لهم علاقة ودية بهؤلاء اليهود.

لم يكن المغيلي هو المعارض لهؤلاء اليهود بل نجد في كتاب الونشريسي مجموعة من النوازل تعالج هذا الموضوع منها الإمام الذي يدخل اليهود لـــداره وتخرج زوجته وأولاده خسيس عديم الغيرة ».

1- لمؤلف مجهول نفس المصدر السابق ورقة 49 ب .

فالنص يؤكد على ان أهل الذمة كانوا على علاقة جميع الفئات الاجتماعية ومن بين هؤلاء الأئمة الذين كانوا يستقبلونهم في بيوتهم يتنافى مـــع غيـــر الاسلامية.

المصادر والمراجع

* **المخطوطـــات**

– التنسي: نظم الدر والعقبان في شرف بني زيان مخطوط بالخزانـــة العامـــة بالرباط تحت رقم444

– أبوسعيد العقباني: تحفة الناظر وغنية الذكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر مخطوط بالمكتبة الوطنية بالجزائر.

– مؤلف مجهول: زهر البستان مخطوط بمانشستر ببريطانيا

– مؤلف مجهول: غزوات عروج وخير الدين مخطوط بالمكتبة الوطنية.

– المازوني: الدرر المكنونة في نوازل مازونة مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم1335 /1336

– الياكوتي: تلخيص الأثار وعجائب المسالك والأمصار مخطـــوط ومـــصور على ميكروا فيلم بمعهد المخطوطات القاهرة.

* **المصـــادر**

– ابن آدم أبوعبيد قاسم: الخراج تحقيق محمد شاكر الطبعة الثانيـــة القـــاهرة 1384.

– ابن الابار أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي ت سنة658: كتاب الحلة السيراء ط1 تحقيق حسن مؤنس الشركة العربية للطباعة والنـــشر القاهرة1963.

كتاب التكملة لكتاب الصلة تحقيق محمد بن أبي شنب والفريـــد بـــل المطبعـــة الشرقية الجزائر.

- ابن الأثير أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ت630: الكامل في التاريخ8 اجزاء نشر دار الكتاب العربي بيروت1967/1387

- ابن بشكوال ابي القاسم خلف بن عبد الملك: كتاب الصلة مراجعة عزت العطار الحسيني مكتبة المثنى بغداد1955/1374

- ابن بطوطة شمس الدين ابو عبد الله بن ابراهيم ت703: رحلة ابن بطوطة دار صادر بيروت للطباعة والنشر بيروت1964/1384

- ابن حزم ابو محمد بن سعيد456: جمهرة انساب العرب تشر ليفي بروفنسال القاهرة1948

- ابن حوقل ابو القاسم ابن حوقل النصيبي ت367: كتاب صورة الارض ط2 مطبعة بريل ليدن1938

- ابن خردادبة ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله في حدود300هـ: المسالك والممالك بريل ليدن1889

- ابن الخطيب لسان الدين بن عبد الله ت776: أعمال الاعمال فيمن بويع قبل الاحتلام تحقيق احمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني دار الكتاب الدار البيضاء 1964.

الاحاطة في اخبار غرناطة نشر محمد عنان رقم الحلل في نظم الدول تونس1899/1316.

نفاضة الجراب تحقيق محمد العبادي بدون تاريخ

اللمحة البدرية في الدولة الناصرية القاهرة1947

معيار الاختبار في ذكر المعاهد والاثار الرسالة الثالثة من مشاهدة لسان الدين ابن الخطيب ببلاد المغرب جامعة الاسكندرية1958

- ابن خلدون عبد الرحمان ت808: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر بيروت1968

المقدمة دار الكتاب اللبناني1968

التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا تحقيق ابن تاويت القاهرة لجنة التأليف والنشر 1951

- ابن خلدون يحيى: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد نشر الفريد بل مع ترجمة الى الفرنسية جزءان ج1904/1 والثاني في قسمين1913 وقد حقق الدكتور حاجيات الجزء الاول سنة1980

- ابن خلكان ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد ت681: وفيات الاعيان وانباء أبناء أهل الزمان تحقيق احسان عباس دار الثقافة بيروت1971

- ابن ابي زرع ابو الحسن علي بن عبد الله الفاسي ت ق8هـ: الانيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس

- ابن ابي دينار ابو عبد الله محمد بن ابي القاسم الرعيني القيرواني ت 1681/1092: المؤنس في اخبار افريقية وتونس تحقيق محمد شمام طبع المكتبة العتيقة ط 3 تونس 1967 ونشر مطبعة النهضة تونس 1950

- ابن صاحب الصلاة المن بالامامة تحقيق ممد التازي الدار البيضاء

ابن ابي الضياف احمد ت1291/1874؛1875

اتحاف أهل الزمان باخبار تونس وعهد الامان ج 1 ط تونس 1963

- ابن سعيد علي بن موسى المغربي: كتاب الجغرافيا ط2 تحقيق العربي اسماعيل ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1982

- ابن الصغير حي في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري

تاريخ أئمة الرستميين 1908
- ابن عبد الحكم عبد الرحمان بن عبد الله ت 257: فتوح افريقية والانـــدلس تحقيق انيس الطباع مكتبة دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر بيروت 19
- ابن عذارى المراكشي ابو عبد الله محمد ت في القرن السابع الهجري البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب تحقيق ج ؛ س؛ كولان وليفي
- بروفنسال دار الثقافة بيروت1965/1384
ابن فرحون ابو الفداء ابراهيم علي بن محمد توفي1397/799
الديباج المذهب في معرفة اعيان المذهب ط 1 دار السعادة القاهرة1329
- ابن قنفذ القسنطيني: الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية
الوافيات نحقيق عادل نويهض.
- ابن منظور محمد بن مكرم بن علي الانـــصاري ت711: لـــسان العـــرب المحيط اعداد يوسف الخياط دار لسان العرب بيروت1970.
ابن مريم ابو عبد الله محمد بن احمد الشريف المليتي المديوني التلمساني البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان تحقيق محمد بن ابي شنب الطبعـــة الثعالبية الجزائر 1908/1326.
- ابو الفداء عماد الدين بن اسماعيل بن محمد بن عمر ت732: تقويم البلـــدان تصحيح رينود ديسلان باريس1840
المختصر فياخبار البشر جزءان المطبعة الحسينية القاهرة
- البغدادي ابن عبد المؤمن ت1438/839: مراصد الاطـــلاع علـــى اســـماء الاماكن والبقاع طبعة حديثة في 3 اجزاء

- البكري ابو عبد الله ت487: المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب وهـــو جزء من كتاب المسالك والممالك مكتبة المثنـــى بغـــداد ومطبعـــة الحكومـــة الجزائرية 1857

- التيجاني ابو محمد عبد الله بن محمد التيجاني كان حيا سنة 13/702 رحلـــة التيجاني المطبعة الرسمية تونس 1958

- التنسي ابومحمد عبد الجليل التنسي: نظم الدر والعقبان في بيان شرف بنـــي زيان حقق جزء منه محمود بو عياد 1977

التمبكتي ابو العباس احمد بابا بن احمد الصنهاجي السوداني 963 / 1555 نيل الابتهاج بتطريز الديباج وهو على هامش المـــذهب لابـــن فرحـــون ط 1 القاهرة 1329

- الدباغ ابو زيد عبد الرحمان الانصاري ت696: معالم الايمان في معرفـــة أهل القيروان ط2 اكمله وعلق عليه ابو الفضل القاسم بن عيسى بـــن يحيـــى التنوخي ت839 تحقيق محمد الاحمدي ابو الانوار واخرون مكتبـــة الخـــانجي 1968

- الدرجيني ابو العباس احمد بن سعيد ت670: كتاب طبقات المشائخ بالمغرب تحقيق ابراهيم طلاي مطبعة البعث قسنطينة 1974/1394.

- الزركلي خير الدين: الاعلام 11 جزء ط 3 بيروت 196

الزاركشي تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية تحقيق محمد ماضـــور تـــونس المكتبة العتيقة 1966

- الزهري: كتاب الجغرافيا نشر محمد الحاج صادق مجلة الدراسات الشرقية للمعهد الفرنسي دمشق 1967 :1968

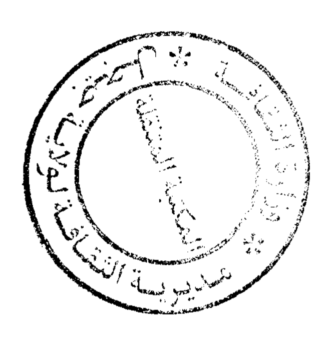
- الضبي ت 459: بغية الملتمس في تاريخ اخبار الاندلس علمائها وامرائهـا وشعرائها ودوي النباة ومن دخل اليها واخرج منها ط مجريد1884.
- الشيرازي عبد الرحمان بن ناصر بن عبد الله الشافعي ت1193/589.
نهاية الرتبة في طلب الحسبة تحقيق ونشر باز العريني القاهرة1946.
- العمري ابن فضل الله ت1349/749: مسالك الابصار في ممالك الامصار نشر وتحقيق احمد زاكي القاهرة1924.
- العبدري ابو محمد عبد الله بن محمد العبدري القـرن8 : رحلـة العبـدري المسماة بالرحلة المغربية تحقيق محمد الفا سي الرباط.

الفهرس

الفصل الأول

الـــفـــصـــل الـــثـــانـــي

الـــفـــصــــــل الـــثـــالـــث



Achevé d'imprimer sur les presses
de l'imprimerie HASNAOUI M.
09, Rue Med BOUCHAKOUR. Alger. - Tél. : 021 74 70 83
Juin 2009

هذا الكتاب

دراسة تارخية، سياسية، اقتصادية، ثقافية واجتماعية..
تعد مرآة صادقة لأحوال الدولة الزيانية، التي تعتبر من أهم الدول التي نشأت على أرض الجزائر، حيث استمرت أكثر من ثلاثة قرون..
وقد مرّت الدولة الزيانية بجميع المراحل التي ورد ذكرها في مقدمة ابن خلدون حيث كان شاهدا هو وأخوه يحى بن خلدون على أهم مراحل هذه الدولة.

منشورات الحضارة
ص.ب 04 بئرالتوتة -الجزائر
هاتف فاكس: 021.44.34.41

الإيداع القانوني 2009-759
ردمك 978-9961-767-67-2

صدرهذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة

هذا الكتاب

دراسة تارخية، سياسية، اقتصادية، ثقافية واجتماعية..
تعد مرآة صادقة لأحوال الدولة الزيانية، التي تعتبر من أهم الدول التي نشأت على أرض الجزائر، حيث استمرت أكثر من ثلاثة قرون..

وقد مرّت الدولة الزيانية بجميع المراحل التي ورد ذكرها في مقدمة ابن خلدون حيث كان شاهدا هو وأخوه يحى بن خلدون على أهم مراحل هذه الدولة.

منشورات الحضارة

ص.ب 04 بئرالتوتة -الجزائر

هاتف فاكس: 021.44.34.41

الإيداع القانوني 759-2009

ردمك 978-9961-767-67-2

صدرهذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة